

صُورٌ وَخَوَاطِرٌ

بقلم
علي الطنطاوي

دار المنارة للنشر والتوزيع
جسدة - مكة
السعودية

ح) دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤١٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الطنطاوي، علي

صور وخواطر - جدة.

... ص ٤٠٠ سم

ردمك ٦ - ٥٧ - ٨٢٠ - ٩٩٦٠

١ - السعودية المقالات العربية ٢ - الإسلام - مقالات ومحاضرات

أ - العنوان

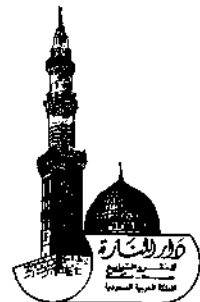
١٦/٢٠٥٢

ديوي ٥٣١، ٨١

رقم الإيداع: ١٦/٢٠٥٢

ردمك: ٦ - ٥٧ - ٨٢٠ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الرابعة
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م



هاتف: ٣٦٥٢، فاكس: ٣٢٣٨، ٦٦ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١، ص. ب. ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين . . آمين . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد * كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم * وبارك على محمد وعلى آل محمد * كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين * إنك حميد مجيد .
اللهم علمنا ما ينفعنا * وانفعنا بما علمتنا * وزدنا علماً .

بلسم اللد وحمه
 اصدر هذه الطبعة الجديدة
 مكتبة (صدف وخاله) واسأل الله أن يشرحها
 وأن يديم الفقه به
 وأن يلبس لي الثواب عليه
 وأن يحزني ناسه ضرا

مد اللثة : غرة سوال ١٤٠٨

مع الطهارة

لَمَّا قعدت أكتب هذا الفصل، لم يكن في ذهني شيء عن الموضوع الذي أكتب فيه، ولكنني نظرت في التقويم المعلق بالجدار فوجدت الموضوع. الموضوع (أول المحرم).

أفيمر بكم أول المحرم، كما يمر غيره من الأيام، وفي صبيحته ولد عام، وفي ليلته قضى عام؟.

يجتاز المسافر مرحلة من الطريق فيحط الرحال، ويقف ليستريح، فيتلفت وراءه ليرى كم قطع وينظر أمامه ليبصر كم بقي.

والتاجر تنتهي سنته، فيقيم موازينه ويحسب غلته، ليعلم ماذا ربح وماذا خسر.

وهذه (محطة) جديدة، نقف فيها ونحن نسير على طريق الحياة، وسنة أخرى تمضي من العمر، أفلا نقف عليها ساعة نفكر ونذكر ونحسب ونعتبر؟.

نحن اليوم في أول المحرم من سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف، ننظر إليه في الفجر، فنراه يوماً طويلاً يمتد أمامنا، نستطيع أن نعمل فيه ما نشاء، نستمتع فيه (إن أردنا) بدينانا، ونحمله ما نريد حمله من الزاد إلى أخرانا، فإذا أمسى المساء وذهب اليوم — لم نعد نستطيع أن نستفيد منه ولا أن نستمتع فيه.

نظنه باقياً لنا، فـ (نبذر) في دقائقه، كما يبذر المسرف في ماله ونضيع ساعاته، ولكننا لا نجدّه حتى نفقده. إنه لا يكاد يبدأ حتى ينتهي ثم يمضي، فلا يعود أبداً.

اذكروا الآن أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين .

لقد كنا نراه (أيضاً) ونحن نستقبله طويلاً، وكنا نقدر أن نصنع فيه خيراً كثيراً، فأين هو منا اليوم؟. وأين الأول من المحرم سنة أربع وثمانين؟.

وأين أوائل المحرمات التي مرت بنا، أو مررنا نحن بها من قبل؟ ماذا بقي منها في أيدينا؟.

تمضي السنة وتجيء أخرى بعدها، فمن لم يعمل خيراً فيها، عمله في التي تليها.

إن فاتك عمل الخير في النهار، فعندك الليل (خلفة) منه، فاعمل الخير فيه. مواسم متتابعة، إن أضعت الموسم فلم تزرع فيه، فازرع في الذي يليه.

وإن رسبت في الامتحان في دورة حزيران، فعندك دورة أيلول.

هي خلفه لك ما بقيت حياً، ولكن هل تعلم كم تبقى حياً؟.

* * *

ينقضي العام — فتظن أنك عشته، وأنت في الحقيقة قد مِتَّ، لا تعجبوا من هذا المقال ودعوني أوضح الفكرة بالمثال.

أنت كالموظف الذي منح إجازته السنوية، شهراً كاملاً، إذا قضى فيها عشرة أيام يكون قد خسر منها عشرة أيام فصار الشهر عشرين، فإذا مر عشرون صار الشهر عشرين، فإذا تم الشهر انقضت الإجازة فكأنها لم تكن.

أنظنون أني (أفلسف)؟ لا والله بل أصف الواقع.

نحن كلما ازداد عمر الواحد منا سنة في العد، نقصت من عمره سنة في الحقيقة، حتى ينفد العمر، ويأتي الأجل، ونستقبل حياة أخرى تبدأ بالموت.

فتحت كتابي (من حديث النفس) فقرأت فيه فصلاً نشرته في العدد الممتاز من مجلة الرسالة في مطلع سنة ١٩٣٨، عنوانه (على أبواب الثلاثين) لوتصورت يومئذ أني سأقرأه في مطلع سنة ١٩٦٦، لتراءى لعيني دهر طويل ثمان وعشرون سنة، أنظر إليها الآن، بعدما مرّت، فأراها كأنها يوم وليلة.

ولو نظرت الآن إلى ما بعد ثمان وعشرين سنة إلى سنة (١٩٩٤) لرأيتها بعيدة جداً، ولكن من يقرأ هذا الفصل يومئذ سيرى سنتنا هذه كأنما كانت بالأمس.

فنحن نوسع المستقبل بالأمل.

* * *

وما هذا المستقبل الذي نسعى إليه، ونكدّ من أجله؟.

لما كنت طالباً كان مستقبلي في نيل الشهادة. فلما نلتها صار المستقبل في الوصول إلى الوظيفة. فلما وصلت إليها صار المستقبل في بناء الأسرة وإنشاء الدار، وإنسال الولد، فلما صارت لي الزوجة والدار والأولاد والحفدة، صار المستقبل في الترقّيات والعلاوات والمال المدخر، وفي الشهرة والمجد والكتب والمقالات، فلما تم لي بفضل الله ذلك كله، لم يبق لي مستقبل أفكر فيه، إلا أن ينور الله بصيرتي، ويريني طريقي، فأعمل للمستقبل الباقي، للأخرة وإني لفي غفلة منها.

فالمستقبل في الدنيا شيء لا وجود له. إنه يوم لن يأتي أبداً لأنه إن جاء صار (حاضراً) وطفق صاحبه يفتش عن (مستقبل) آخر. يركض وراءه.

إنه (كما قلت مرة) مثل حزمة الخشيش المعلقة بخشبة مربوطة بسرج الفرس تلوح أمام عينيه فهو يعدو ليصل إليها، وهي تعدو معه فلا يدركها أبداً.

إن المستقبل الحق في الآخرة، فأين منا من يعمل له؟ بل أين من يفكر فيه؟.

* * *

وقد يكون هذا الذي أقوله (فلسفة)، ولكنها فلسفة واقعية، إنها حقائق لا يفكر فيها أحد منا.

نحن كالمسافر في الباخرة أوفي الطائرة، همّة الغرفة الجميلة، أو المقعد المريح، يركب في الدرجة الأولى ويأكل أطيب الطعام، ويتصفح الجرائد

والمجلات ينقل بصره فيها حوله أو تحته من المشاهد ولكن هذا كله لأيام السفر، وأيام السفر معدودة، أفما كان خيراً له لو فكر فيما يريجه في إقامته في البلد الذي يمضي إليه؟ .

أما كان أنفع له لو تحمّل بعض المتاعب في ليالي السفر القليلة، ووفر ماله ليشتري به الراحة في سنوات الإقامة الطويلة؟ .

أم قد شغلته متعة السفر عن التفكير في سبب السفر، وجمال الطريق عن غاية الطريق؟ .

الحياة سفر، فكمن من الناس يسأل نفسه لِمَ السفر؟ وإلى أين الرحيل؟ كم منا من يسأل ما الحياة؟ ولماذا خلقنا؟ وإلّا المصير؟ .

* * *

إننا نقطع الوقت من الصباح إلى المساء، في مشاغل نخترعها لننسى بها أنفسنا، ونبدد بها أعمارنا، من أحاديث تافهة، ومجالس فارغة، ومطالعات في كتب لا تنفع، أو نظرات في مجلات لا تفيد، فإن خلا أحدنا بنفسه، ثقلت عليه صحبة نفسه، وحاول الهرب منها، كأن نفسه عدو له لا يطيق مجالسته، فهو يضيق بها، ويفتش عما يشغله عنها، وكأن عمره عبء عليه، فهو يحاول أن يلقيه عن عاتقه، وأن يتخلص منه .

* * *

نفر من نفوسنا ونبدد أعمارنا، في لذائذ نتوهمها، ونسعى وراءها ولكننا لا نناهاها .

ولما كنت أشرف على طبع كتاب ابن الجوزي (صيد الخاطر) الذي قدمت له وعلقت عليه، وجدت فيه كلمة عظيمة، يقول فيها (إن لذائذ الدنيا نماذج تعرض ولا تقبض) .

نماذج (ريكلامات)^(١) للمعرض والإعلان، لا للبيع والافتناء، فأنت تسر برويتها، ولكن لا تقدر على امتلاكها .

(١) صرنا نفسر العربي بالإفنجي، هذا والله العجب!

خذوا أكبر لذات الدنيا، (اللذة المعروفة...) تروا أنها ليست في الحقيقة إلا لحظة، دقيقة أو دقيقتين، لا تكاد تحس بأنك قد وصلت إليها، حتى تجد أنك قد فقدتها.

إنها ليست إلا (نموذجاً) مصغراً للذة الآخرة، فما يستمر هنا دقيقة فقط، يدوم هناك إلى الأبد.

إنك فيها كمن يعطي ملعقة من الطعام ليزوقه ويجد طعمه في حلقه، فإذا ارتضاه اشترى منه فأكل حتى شبع.

فالدواق في الدنيا والشبع في الآخرة.

لذلك ترى الرجل الفاسق، يشكو (الجوع الجنسي) مهما (ذاق) من الحرام. يعرف مائة من النساء، ثم يرى الواحدة بعد المائة فتطلبها نفسه، كأنه ما عرف امرأة قط، ولا يزال كذلك حتى يعجز جسده، ولا تكل رغبته، فهو كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر، وكلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً.

وما عهد (فاروق) ببعيد.

ومثلها لذة المال.

إن الفقير الذي ينام في كوخ الطين، ويأكل خبز الشعير، ويمشي بالحذاء البالي، أو يركب عربة النقل، التي يجرها الحمار، يتصور أنه لو نام يوماً على فراش الغني، أو أكل على مائدته، أو ركب في سيارته، لنال اللذائذ كلها ولكن الغني الذي ألف ذلك لم يعد يجد فيه لذة، بل يجد الألم إن فقد منه شيئاً.

والشباب المغمور، يتمنى أن يكون علماً مشهوراً، تردّد الإذاعات اسمه وتنشر الصحف رسمه، ويتحدث الناس عنه، ولكن العالم المشهور الذي ألف ذلك لم يعد يهتم به ولا بيباليه.

إن لذات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟. تراه من بعيد غديراً، فإذا جئته لم تجد إلا الصحراء. فهو ماء ولكن من بعيد!.

عفواً يا سادتي القراء، إن جئت أعظكم وأزهدكم، فما أردت وعظاً ولا تزهيداً، وما أنا من الوعاظ الزهاد، ولكنها خواطر أثارها في نفسي أنا في اليوم الأول من المحرم، وإني وقفت كما يقف المسافر، وقعدت أحسب كما يحسب التاجر.

إني أنظر إلى حياتنا هذه التي نعيشها، فأرانا فيها كموكب من السيارات، تمضي مجنونة مسرعة، متسابقة، هم كل واحدة أن تسبق الأخرى، وتحلفها وراءها، ولكن لو سألت سواقها إلى أين يسيرون ولماذا يسرعون؟ لما وجدت عندهم جواباً.

سباق إلى المال، سباق إلى اللذات، سباق إلى الوظائف، سباق في كل طريق من طرق الحياة.

ثم ينتهي العمر، فنترك كل ما استبقنا إليه، ونغضي. فلنفق لحظات في مطلع كل عام، لنسائل أنفسنا ما الذي نربحه من هذا السباق؟ أوليس (الربح) الحق في جهة أخرى، غير الجهة التي يتجه الناس كلهم إليها، ويحسبون أن الربح المقصود فيها؟.

إن هذا اليوم نذير لنا. بأن السنة المقبلة ستمضي كما مضت السنة المودعة، وإن كل واحدة منها تحمل معها جزءاً من أعمارنا، حتى تنفذ أعمارنا، فلتتدارك ما بقي، ولكن يوماً واحداً في السنة من المتناصحين ومن المتواصين بالحق، والمتواصين بالصبر.

إنكم تقرأون في المجلات كلاماً كثيراً، كلاماً جليلاً يزيد ثقافة عقولكم وكلاماً جميلاً يدخل البهجة على قلوبكم وكل هذا خير، ولكن خيراً منه أن تسمعوا كلمة تذكركم أخراكم، وتنفعكم يوم العرض على ربكم.

وما أصلح والله لأن أقول أنا هذه الكلمة، وأنا إلى أن أوعظ فأتعظ، أخرج مني إلى أن أعظ، ولكن (على مدير الكاس أن ينهي الجلاس).

لما أردت أن أسافر إلى جدة، من بيروت، قعدت في مطعم المطار، أفطر

وأنظر، وكان المطعم ممتلئاً، وكل من فيه يأكل ويشرب ويتحدث، مثلما كنت آكل وأشرب وأتحدث، تراهم فتحسبهم أصدقاء متلازمين لا يفترقون. وأن شملهم جميع لا يتشتت، ولكن مطار بيروت الذي تحط فيه كل ربع ساعة طائرة، وتقوم منه طائرة، لا يلبث الصوت أن يخرج منه ينادي من (المكبر):

— ركاب طائرة (BOAC) المسافرة إلى لندن، يتوجهون إلى أرض المطار. فترك أكلها وشربها جماعة من الحاضرين، وتقوم.

ثم ينادي:

— ركاب طائرة (KLM) المسافرة إلى جاكرتا.

فترك ناس أكلهم وشربهم ويقومون.

وطائرة إلى أميركا، وأخرى إلى الكونغو، وثالثة إلى إيران، ورابعة إلى موسكو.

فنظرت في الناس وقلت لأخي، وكان معي. هذه هي حياتنا.

نعكف على طعامنا وشرابنا، ومشاعل عيشتنا، وإذا بالنداء يدعو من (جاء دوره) ليذهب إلى حيث يحمل، إما إلى غابات أفريقية، وإما إلى ثلج سيبيريا، وإما إلى ملاهي باريز ومشاهد نيويورك.

فمن كان مستعداً للسفر، حاجاته مقضية، وحقايقه معدة، وحمله خفيف، مضى مستريح البال، ومن (جاء دوره)، وهو لم يعد متاعه، ولم يقض حاجته ذهب بلا زاد، ومضى على غير استعداد.

أفلا نستعد للسفرة التي لا بد منها، ونزود لها الزاد الذي لا ينفع غيره فيها؟.

أم نحن نتناسى الموت وهو أماننا نظنه أبعد شيء عنا، وهو أقرب الأشياء منا، نصلي على الأموات ونشيع الجنائز، ونحن نفكر في أمور الدنيا، كأننا نخلدون فيها، وكأن الموت كتب على الناس كلهم إلا علينا؟.

يا إخوتي القراء .

إننا نعيش الأيام كلها في غفلة، فلننتبه اليوم، ولنقف كما يقف المسافر على المحطة، ينظر كم قطع من الطريق وكم بقي عليه منه؟ ولنفتح دفاترنا كما يفتح دفاتره التاجر، لنرى ماذا ربحنا في سنتنا التي مضت وماذا خسرنا، ولنمد أيدينا، فنقول يا ربنا. اغفر لنا ما سلف، ووفقنا فيما بقي .

اللهم إذا كتبت لنا، أن نعيش إلى مثل هذا اليوم من قابل، فاجعل ما يأتي... خيراً لنا، وللمسلمين مما ذهب،... وإلا، فاكتب لنا بفضلك وكرمك حسن الخاتمة، واغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

* * *

نُشرت في سنة ١٩٤٨

كنت أقرأ في ترجمة (كانت) الفيلسوف الألماني الأشهر، أنه كان لجاره ديك، قد وضعه على السطح قبالة مكتبه، فكلما عمد إلى شغله صاح الديك فأزعجه عن عمله، وقطع عليه فكره. فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه، ودعا إلى ذلك صديقاً له، وقعدا ينتظران الغداء، ويحدّثه عن هذا الديك، وما كان يلقي منه من إزعاج، وما وجد بعده من لذة وراحة، ففكّر في أمان، واشتغل في هدوء، فلم يقلقه صوته، ولم يزعجه صياحه...

... ودخل الخادم بالطعام وقال معذراً، إن الجار أبى أن يبيع ديكه، فاشترى غيره من السوق، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح!

* * *

فكرت في هذا الفيلسوف العظيم فرأيت أنه قد شقي بهذا الديك لأنه كان يصيح، وسعد به وهو لا يزال يصيح، ما تبدّل الواقع، ما تبدّل إلا نفسه، فنفسه هي التي أشقته لا الديك، ونفسه هي التي أسعدته، وقلت: ما دامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا؟ وما دامت قرية منا فلماذا نبعتها عنا، إذ غمسي إليها من غير طريقها، ونلجها من غير بابها؟ إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك، لأن الأرض مملوءة بالديكة، فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض؟ لماذا لا نسدّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسدّ أفواهها عنا؟ لماذا

لا نجعل أهواءنا وفق ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا؟

أنام في داري فلا توقظني عربات الشارع وهي تزلزل بسيرها الأرض، ولا أصوات الباعة وهي ترعد في الجوّ، ولا أبواق السيارات وهي تسمع الموق، وتوقظني همسة في جوّ الدار ضعيفة، وخطوة على ثراها خفيفة، فإن نمت في الفندق لم يوقظني شيء وراء باب غرفتي، فإن كان نومي في القطار لم يزعجني عن منامي حديث جيرانني إلى جنبي، ولا صوت القطار وهو يهتز بي فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك؟ وألني هناك ما لم يؤلني هنا؟

ذلك لأنّ الحس كالنور، إن أطلقته أضاء لك ما حولك فرأيت ما تحب وما تكره، وإن حجبتك حجب الأشياء عنك، فأنت لا تسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى، وتسمع همس الدار وهو أضعف وأخف، لأنك وجّهت إلى هذا حسّك، وأدخلته نفسك فسمعت على خفوته كما ترى في الضياء صغائر الأشياء، وأغفلت ذلك وأخرجته من نفسك، فلم تسمعه على شدته، وخفي عنك كما تختفي في الظلام عظام الموجودات. فلماذا لا تصرف حسّك عن كل مكروه؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك، ولكن ما أدخلته أنت برضاك، وقبلته باختيارك، كما يدخل الملك العدو قلعة بثغرة يتركها في سورها. فلماذا لا نقوّ نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام؟

إني أسمعكم تتهامسون، تقولون: «فلسفة وأوهام». نعم، إنها فلسفة، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً. وإنها أوهام، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص، ونسعد بها ونشقى، أوشيء كالأوهام:

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد، فيشكو هذا ويتذمر فكأنه حمل حبلين، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئاً، ويعرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد، فيتشام هذا ويخاف، ويتصور الموت، فيكون مع المرض على نفسه، فلا ينجو منه، ويصبر هذا ويتفائل ويتخيل الصحة فتسرع إليه ويسرع إليها. ويحكم على الرجلين بالموت، فيجزع هذا

ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات، ويملك ذلك أمره ويحكم فكره، فإذا لم تُنْجِه من الموت حيلته، لم يقتله قبل الموت وهمه.

وهذا بسمارك رجل الدم والحديد، وعبقري الحرب والسلام، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقة واحدة، وكان لا يفتأ يوقد الدخينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلَّ فكره، وساء تدبيره. وكان يوماً في حرب فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة، لم يصل إلى غيرها، فأخرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم، وبقي أسبوعاً كاملاً من غير دخان، صابراً عنه أملاً بهذه الدخينة فلما رأى ذلك ترك التدخين، وانصرف عنه، لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة...

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري، أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعباناً، فراجع الأطباء، وسأل الحكماء فكانوا يداورون الضحك حياء منه، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود، ولكن لا تقطنها الثعابين. فلا يصدق.

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب، بصير بالنفسيات، قد سمع بقصته، فسقاه مسهلاً وأدخله المستراح وكان وضع له ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه، ونشط جسمه، وأحس بالعافية، ونزل يقفز قفزاً، وكان قد صعد متحاملاً على نفسه يلهث إعياء، ويثن ويتوجع. ولم يمرض بعد ذلك أبداً.

ما شفي الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار، لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة، وإن في النفس الإنسانية لقوى إذا عرفتكم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب.

تمام هذه القوى فيوقفها الخوف أو الفرح؛ ألم يتفق لواحد منكم أن أصبح مريضاً، خامل الجسد، واهي العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب، فرأى حية تقبل عليه، ولم يجد من يدفعها عنه، فوثب من الفراش وثباً، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم؟ أوردج إلى داره العصر وهو ساغب لاغب، قد هده الجوع والتعب، لا يبتغي إلا كرسيّاً يطرح نفسه عليه، فوجد برقية

من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره أو كتاباً مستعجلاً من الوزير يدعوه إليه ليرقي درجته، فأحسَّ الخفة والشبع، وعدا عدواً إلى المحطة، أو إلى مقر الوزير؟

هذه القوى هي منبع السعادة. تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقياً عذباً، فتتركونه وتستقون من الغدران الأسنة، والسواقي العكرة.

يا أيها القراء: إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها، فترمونها زهداً فيها، واحتقاراً لها.

يصاب أحدكم بصداع أو مغص، أو بوجع الضرس، فيرى الدنيا سوداء مظلمة، فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة؟ ويحمى عن الطعام ويمنع منه، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم، ويحسد من يأكلها، فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه، ولا يضحك الشاب لصباه؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي، أو متشحة بضباب المستقبل؟

كل يبكي ماضيه، ويحن إليه، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً؟

أيها السادة والسيدات:

إننا نحسب الغنى بالمال وحده، وما المال وحده؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يؤقُّ بأطياب الطعام فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً، لما نظر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود، يدفع اللقمة، في فمه ويتناول الثانية بيده، ويأخذ الثالثة بعينه، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً؟

فلماذا لا تقدّرون ثمن الصحة؟ أما للصحة ثمن؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار؟ من يبيع قطعة من أنفه بأموال الشربلي^(١)؟

أما تعرفون قصة الرجل الذي ضل في الصحراء، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً، لما رأى غدير ماء وإلى جنبه كيس من الجلد، فشرب من الغدير، وفتح الكيس يأمل أن يجد فيه تمرّاً أو خبزاً يابساً، فلما رأى ما فيه، ارتد يأساً، وسقط إعياء. لقد رآه مملوءاً بالذهب!

وذاك الذي لقي مثل ليلة القدر، فزعموا، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته يده ذهباً، ومس الحجر فصار ذهباً، فكاد يحن من فرحته لاستجابة دعوته، ومشى إلى بيته ما تسعه الدنيا، وعمد إلى طعامه ليأكل فمس الطعام فصار ذهباً وبقي جائعاً، وأقبلت بنته تواسيه، فعانقها فصارَتْ ذهباً... فقعد يبكي يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسُفرته وأن يبعد عنه الذهب.

وروتشلد الذي دخل خزانة ماله الهائلة فانصفق عليه بابها فمات غريقاً في بحر من الذهب.

يا سادة: لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً؟ أليس البصر من ذهب، والصحة من ذهب، والوقت من ذهب؟ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة؟

* * *

كلفتني المجلة بهذا الفصل من شهر، فما زلت أماطل به، والوقت يمر، أيامه ساعات، وساعاته دقائق، لا أشعر بها ولا أنتفع منها، فكأنها صناديق ضخمة خالية، حتى إذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد، أقبلت على الوقت أنتفع به، فكانت الدقيقة ساعة، والساعة يوماً، فكأنها العلب الصغيرة المترعة جوهرًا وتبرًا، واستفدت من كل لحظة حتى لقد كتبت أكثره في محطة (باب

(١) الشربلي أحد أثرياء مدينة جدة المعروفين.

اللقوق^(١) وأنا أنتظر الترام في زحمة الناس وتدافع الركاب، فكانت لحظة أبرك عليّ من تلك الأيام كلها، وأسفت على أمثالها، فلو أني فكرت كلها وقفت أنتظر الترام بشيء أكتبه، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرقة أجزاؤها، لربحت شيئاً كثيراً، ولقد كان الصديق الجليل الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت، يعلم في كلية المقاصد وثانوية البنات، فكان يتسلى في القطار بالنظر في كتاب (قواعد التحديث) للإمام القاسمي، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب، والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً، حتى إنه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألف (الحاشية). والسرخسي أملى وهو محبوس في الحب، كتابه المبسوط، أجلّ كتب الفقه في الدنيا، وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت، وهل يضيق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى: انظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان، تروا أنه لو قرأ مثله - لا أقول كل ليلة، بل كل أسبوع مرة لكان علامة الدنيا، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألفوا مئات الكتب كابن الجوزي والطبري والسيوطي والجاحظ - بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الإرب، أو لسان العرب، وانظروا، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ونسخه مرة واحدة بخطه، فضلاً عن تأليف مثله من عنده؟

والذهن البشري، ليس ثروة؟ أماله ثمن؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل؟ لماذا لا نتمكن للذهن أن يعمل ولو عمل لجاء بالملدهشات؟ لا أذكر الفلاسفة والمخترعين. ولكن أذكركم بشيء قريب منكم، سهل عليكم هو الحفظ، إنكم تسمعون قصة البخاري لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا متونها وأسنادها، فأعاد المائة بخطها وصوابها. والشافعي لما كتب مجلس مالك بريقه على كفه وأعاده من حفظه. والمعري لما سمع أرمنين يتحاسبان بلغتهما، فلما استشهداه أعاد كلامهما وهو لا يفهمه. والأصمعي وحّد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار. وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث

(١) في مصر وقد كنت سنة ١٩٤٧ مقيماً فيها.

والآثار. والمئات من أمثال هؤلاء... فتعجبون، ولو فكّرتم في أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا ولكنكم لا تفعلون.

انظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس والبلدان، والصحف والمجلات والأغاني والنكات، والمطاعم والمشارب، وكم قصة يروي من قصص الناس والتاريخ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات والمراثيات والمسموعات فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت.

أعرف نادلاً كان في (قهوة فاروق) في الشام من عشرين سنة اسمه (حلمي) يدور على رواد القهوة وهم مئات يسألهم ماذا يطلبون: قهوة أو شاياً أو هاضوماً (كازوزة) أو ليموناً، والقهوة حلوة ومرة، والشاي أحمر وأخضر والكازوزة أنواع، ثم يقوم وسط القهوة ويردد هذه الطلبات جهراً في نفس واحد، ثم يجيء بها فما يخرج مما طلب أحد حرفاً!

فيا سادة، إن الصحة والوقت والعقل، كل ذلك مال، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد.

* * *

وملاك الأمر كله ورأسه الإيمان، الإيمان يشبع الجائع، ويدفيء المفرور، ويغني الفقير، ويسلي المحزون، ويقوّي الضعيف، ويسخّي الشحيح. ويجعل للإنسان من وحشته أنساً، ومن خييته نجاحاً...

... وأن تنظر إلى من هو دونك، فإنك مهما قل مرتبك، وساءت حالك، أحسن من آلاف البشر ممن لا يقل عنك فهماً وعلماً، وحسباً ونسباً، وأنت أحسن عيشة من عبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد، وقد كانا ملكي الأرض. فقد كانت لعبد الملك ضرر منخورة تؤلمه حتى ما ينام منها الليل، فلم يكن يجد طبيياً يحشوها ويلبسها الذهب، وأنت لا تؤلك ضررك حتى يقوم في خدمتك الطبيب. وكان الرشيد يسهر على الشموع، ويركب الدواب والمحمل وأنت تسهر على الكهرباء، وتركب السيارة. وكانا يرحلان من دمشق إلى مكة في شهر وأنت ترحل في أيام أو ساعات.

فيا أيها القراء

إنكم سعداء ولكن لا تدرون. سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتُم بالمخزون من قواها، سعداء إن سدّتم آذانكم عن صوت الديك ولم تطلبوا المستحيل فتحاولوا سدّ فمه عنكم، سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم.

سعداء إن كانت أفكاركم دائماً مع الله. فشكرتم كل نعمة، وصبرتم على كل بليّة فكنتم رابحين في الحالين، ناجحين في الحياتين والسلام عليكم ورحمة الله.

نشرت سنة ١٩٤٨

من أسبوعين ابتليت من أولادي ببلية، هي أني كلما دخلت الدار تعلقوا بي طالبين تمثال العبد الأسود ذي الطربوش الأحمر. وأنا لا أدري ما هذا التمثال، ولا أعرف من أين أتتهم به، وهم يلحون لا يشغلهم عنه شيء من غالي اللعب، ونادر الطرف، حتى كرهوا إليّ البقاء في البيت...

وكنت مرة خارجاً إلى عملي مستعجلاً، فوجدت بائعاً يحمل هذه التماثيل، ينادي «الواحد بقرش» ففرحت به فرح الضال في البادية يرى معالم الطريق، واشتريت تماثيلين وحملتتهما معتزلاً بهما كأني أحمل كنزاً، وعدت بهما حتى إذا دنوت من الدار وجدت ولدين صغيرين قاعدين في ظل جدار، فلما أبصرا التماثيل برقت عيناهما، ودنا رأسهما في همس، وارتفعت يدهما في إشارة خفية متهيبة، وشخص بصراهما كما يفعل شابان غريبان طلعت عليهما من الطريق فتاة فتانة.. وقاما فتبعاني وعيونهما معلقة بالتماثيل، فلما رأيت ذلك منها فكرت أن أدفعهما إليهما. ولكنني خشيت أن أرجع فلا أرى البائع، وتحيلت رغبة أولادي فيها، فلم تطب نفسي أن أحرمهم هذه المتعة، ولم أستطع الإعراض عن الولدين الفقيرين فدعوتهما فدفعت إليهما قرشين، وقلت لهما:

هو ذا البائع، فالحقاه فاشتريا مثلها. الواحد بقرش!

فأخذوا القرشين وعهدي بمثلها أن القرش الصاغ ثروة له، لا يناله إلا بشق النفس، فها حفلا بهما ولا هشا لهما، ولبثا شاخصين في التماثيل كأنهما

لم يريا القرشين، ولم يسمعا الكلام أو كأن عقلهما فارقهما فاستقر على ما في يدي، فلم يفهما كلامي وحاولت نسيانها وسرت، فتبعاني كأنها كلبان وكنت أحس بحرّ نظراتهما على ظهري، وبثقلها على روحي، فأهم أن أمد يدي باللعب إليهما، ثم تدركني محبة الولد فأكف، حتى وصلت الدار وصورتها أمام عيني، تمنع عنهما رؤية فرحة أولادي باللعب وتوابهم إليها.

ولمّا خرجت وجدت الولدين لا يزالان في الطريق، يفتشان عن البائع يعدوان هنا وهناك، كأّم أضاعت طفلها ولا تدري أية سبيل سلك. فدعوتها فأفرخت روعهما، وسألتهما عن اسميهما فمشيا معي فما درت مع الطريق دورة حتى لقيت البائع أمامي، فاشتريت لهما تمثالين وتركت لهما القرشين، ووجدت حول البائع أولاداً مثلها، فقلت له:

— أعط كل ولد تمثلاً.

وكانوا تسعة فدفعت إليه تسعة قروش.

* * *

هل تصدقون أو أحلف لكم، أني لمّا نظرت في وجوه الأولاد وقد بدا فيها بهاء الفرح، وما عرفت هذه الوجوه الفرح قط، ولاحت عليها سمات الطفولة الراضية الشاكرة، وما كان يلوح عليها إلا الألم والحقد المرير، وأشرق عليها نور إلهي سطع من وراء ما حملت من الأوساخ والأقذار، ولما رأيت عيون الأمهات الواقفات تدمع، وألسنة الرجال الواقفين تدعو، أحسست في قلبي بفرحة لا تعدّها فرحة الجائع بالمائدة الملوكية المترعة، ولا الضجر بالقصة العبقريّة الممتعة، ولا المحب المدنف بلقاء الحبيب بعد طول الهجران.

لا والله، فتلك أفراح أرضية، وهذه فرحة سماوية، قد تعيش آلاف البشر وتموت، ولا تحس مثلها. وشعرت كأني كبرت في عين نفسي، وأني صرت أقوى وأقدر، وأني نلت الأمانى ومتعت بالخلود.

إننا ننفق كثيراً من المال، نشترى به يسير المتع، وهذي متعة ما يكاد يجد الإنسان مثلها، نلتها بتسعة قروش، وما تسعة قروش بالنسبة لي؟ إنها شيء

كالعدم؛ شيء لا يغنيني وجوده، ولا يفقرني فقده، فهل تحبون أن تشتروا مثل هذه المتعة؟ هل تحبون أن تعرفوا ما هي لذة الروح، وما هي راحة القلب؟ هل تريدون أن تذوقوا نعيم الجنة وأنتم في الدنيا؟.

لا تحسبوا أنني أصف كلاماً، وأرصف ألفاظاً، إني والله أسوق لكم حقائق فإن أردتم معرفتها، ففتشوا حولكم عن هذه الطفولة المحرومة وهذه النفوس المعذبة وثم أولوها بالإحسان.

وليست قيمة الإحسان بكثرة المال، إن المال ينفع الفقير ولكنه لا ينزع من قلبه النقرة على الحياة، ولا يستل منها بغض الأغنياء ولا يملؤها بالحب. إن الذي يفعل هذا كله هو العطف، وأن تشعر الفقير بأنه مثلك، وأن تعيد إليه كرامته وعزة نفسه. ورب تحية صادقة تلقاها على سائل أحب إليه من درهم، ودرهم تعطيه فقيراً وأنت تصافحه يكون أثر عنده من دينار تدفعه إليه متكبراً مترفعاً يدك تمتد إليه بالمال، ووجهك يجerce كأس الإذلال.

إن كل غني يستطيع أن يتصدق بالكثير. ولكن غني القلب بالإنسانية والنبيل والحب، هو الذي يستطيع أن يتصدق، مع المال، بالعاطفة المنعشة... فلا تضنوا على الفقراء بإنسانيتكم، ولا تبخلوا عليهم بعباءة قلوبكم، وذكروهم أنهم لا يزالون معدودين من البشر، وأنهم مثلكم لأب واحد ولأم واحدة، لآدم وحواء، وأنهم لم ينحدروا إلى دركة الدواب والبهائم.

ذكروهم بهذه الحقيقة التي طالما نسيتموها أنتم، ونسوها هم أنفسهم. ولم لا ينسونها وهم يعيشون كما تعيش البهائم: ينامون مثلها على الأقدار، في الأكواخ والحقول، وفي الأزقة المعتمة، وفي الخرائب المهجورة، ويأكلون مثلها من فضلات الناس، ويشربون مثلها من البرك الأسنة، والأنهار العكرة، ولم ينالوا تعلية يرفعهم عنها ولا مدينة تميزهم منها؛ يسهرون في عصر الكهرباء على السرج والقناديل، ويركبون في عهد الطيران على العربات التي تجرها الحمير، ويسكنون في الأكواخ على التراب في زمان ناطحات السحاب؛ ومن شبه منهم بالناس المتحضرين لم يكد يصل إلى مثل حضارة الإنسانية الأولى،

يخلق مثل (الناس) ولكنه يقعد على الأرض، على رصيف الشارع، ويده مرآة مكسورة يرى فيها وجهه، والصابون القذر يغطيه، وموسى الحلاق المفلولة تجري فيه، والدم ينبثق من نواحيه، ثم تمر على هذا الوجه البشري ممسحة لا ترضونها أنتم والله لمسح أذيتكم. ويركبون مثلما يركب الناس، ولكن على (عربات الكارو)، العشرة على متر مربع من الخشب، محمولين على دولابين من الحديد يسحبه حيوان هزيل، والعربة ترتج بهم، فترقص معدهم، وتزلزل أمعاءهم، ثم لا تصل بهم إلى نهاية الميل الواحد إلا بعد ساعة. ولهم قهوات، ولكن قهواتهم اضطرابات فيها ركائز تسمى مناضد أمامها عيدان تدعى كراسي. ولهم مطاعم ولكن مطاعمهم يقدم فيها المرض في طباق قدرة..

فتدركوهم قبل أن يكفروا بالإنسان، فينقلبوا حرباً عليه، حرباً ليس معها أمان. أشعروهم أنه لا يزال في الدنيا فضل وعدل ونبل. ليجد كل واحد منكم على من هودونه، لا بالمال وحده، بل بالعاطفة والتواضع والإنسانية... الرئيس على المرؤوس، والوزير على الوكيل، والوكيل على المدير، والضابط على العريف، والعريف على الجندي، فإن كل واحد من هؤلاء هو اليوم عبد لمن هو أعلى منه، وفرعون على من هودونه، يتكبر عليه من هوفوقه، ويتكبر هو على من تحته، حتى أن الشرطي ليطغى على البائع المتجول، والبائع يطغى على امرأته، والمرأة على ولدها والولد على القطة يضربها بالعصا أو الكلب يرميه بحجر، كل يحاول أن يظلم كما ظلم، والمجرم الأكبر هو الظالم الأول. إنهم كالحيوانات، الجرادة تأكل البعوض، والعصفور يأكل الجرادة، والحية تقتل العصفور، والقنفذ يقتل الحية، والثعلب يسطو على القنفذ، والذئب يسطو على الثعلب، والأسد يفترس الذئب، والإنسان يقتل الأسد، والبعوضة تقتل الإنسان فتغلق الحلقة على عدوان بعد عدوان.

كم تلقون كل يوم ممن هم دونكم فلا تفضلون بالالتفات إليهم، ولا تفكرون فيهم، ولا تشعرون بوجودهم، ثم تتألمون إذا أعرض عنكم من هوفوقكم، وتجاهل مكانكم، وترون ذلك جرحاً لشعوركم وكسراً لقلوبكم،

فلماذا تطلبون ممن فوقكم ما لا تعطونه من هم دونكم؟ أليس هؤلاء نفوس تحس، وقلوب تتألم؟.

مررت أمس بسائلة على شاطئ النيل الصغير، في الروضة، وأمامها بنت لها تحبو، وصلت إلى كومة أوساخ فنبشت فيها حتى وجدت بقية لعبة فحملتها فرحة بها وعادت إلى أمها مستبشرة، فأخذتها منها أمها ومسحتها وحاولت أن تصلحها وتعيد الحياة إليها، وقد فارقتها الحياة منذ أزمان.

فلويت وجهي ألماً من منظر هذه القذارة، ثم عدت ألوم نفسي وأسائلها، ما ذنب هذه الأم إذا أحبت ابنتها وأرادت إسعادها. وما ذنب هذه البنت إذا طالبت بحق الطفولة الطبيعي باللعب؟.

لماذا أشتري لبناتي كل أسبوع لعبة، ولم يخطر على بالي أبداً أن في البلد أطفالاً لا يجدون لعباً؟ نحسب أننا إذا أطعمنا أطفال الفقراء الخبز، فقد أدينا حق الله وحق المروءة والإنسانية علينا، ولكن الطفل لا يكفيه الخبز ولا يرضيه، وهو يرى أطفال الناس يمرون به كل ساعة، وعليهم أبهى الثياب، ومعهم أغلى اللعب، إنه بين أمرين إما أن يتبلد حسه، وتموت نفسه، فلا يطمع أن يجاري هؤلاء، ولا يأمل أن يكون مثلهم أبداً، فينشأ ضعيف الهمة، ذليلاً مهيناً، فيكون من أسباب ضعف هذه الأمة وهوانها على الأمم، وإما أن يثور ويغضب ويمتلئ قلبه الصغير حقداً، ثم يكبر ويكبر الحقد معه حتى يكون عدواً للمجتمع ونقمة على الناس، يظلمهم كما ظلموه، يسرق من يستطيع سرقة ماله، ويزهق روح من يتمكن من إزهاق روحه، وينشر الفساد في الأرض...

فلماذا نجعل من هؤلاء الأطفال أعداء لنا؟ لماذا لا نجبهم فنعلمهم الحب؟ أليسوا أزهاراً في روض الحياة؟ أليست كل زهرة حلوة ولو علاها الغبار؟ أليس كل صغير جميلاً ولو كان قطعاً أو كلباً؟ أفنحب القطة الصغيرة ونسحها ونضعها على الأحضان ونكره هؤلاء الأطفال؟ وما لهم؟ ألاهم قُذِرَ الوجوه والثياب؟ إن القذارة لا تحب، ولكن هذا ذنب أمهاتهم، لا يغسلن وجوههم وهن على النيل! لا، بل هو ذنبي وذنب كل واحد منكم وذنب الكتاب وأولي

الأمر، إنهم لم يعلموا هؤلاء الأمهات النظافة، ولم يقل لمن أحد إن النظافة لازمة والوساخة مؤذية. ومن يقول لمن، وهن (شحادات) على الطرقات، لا يكلمن أحداً بغير السؤال، ولا يكلمهن أحد أبداً؟!

وما يدريني أن ابنتي أو ابنة أحدكم لا سمح الله، ستلقى مثل هذا المصير؟ من منا أخذ على الدهر عهداً أن لا يزيل عنه نعمة؟ هل أمنا المريض والفقر؟ هل أوقفنا حركة الفلك؟

وهل نسينا أن في الوجود إلهاً، وأن بعد الدنيا آخرة؟ فكيف سوغنا لأنفسنا مع هذا كله إهمال هذه (الإنسانية) الصغيرة المبرأة الطاهرة؟ لقد كان فينا مقلدون متحذلقون ألفوا جمعيات للرفق بالحيوان... ولكن لم ينشأ فينا إلى اليوم من يؤلف جمعية للرفق بالإنسان؟ لقد بلغ الخزي من نفوسنا أن وجد فينا أناس يطعمون الكلاب المدللة اللحم السمين، والشكولاتة الغالية، وحوهم بشر لا يأكلون اللحم مرة في الشهر، ولا يتذوقون الشكولاتة أبداً.

* * *

إذا شئتم أن تذوقوا أجمل لذائد الدنيا، وأحلى أفراح القلوب، فجدوا بالحب وبالعواطف كما تجودون بالمال.

* * *

نشرت سنة ١٩٤٠

كم ذا يقاسي العاشقون ويألمون، ولا يدري بهم أحد، ولا يبلغ وهم
إنسان تصوّر ما يعانون.

كم للحب من شهداء عاشوا يائسين، وقضوا صامتين، فما حازوا مجداً
ولا فخاراً، ولا اشتروا جنة ولا أمنوا ناراً. مساكين... يعيشون في دنيا الناس
وليسوا فيها، يرون بغير العيون، فلا يرى الناس ما يرون، ولا يبصرون ما يرى
الناس، يموت عندهم كل حي ما لم يتصل بالحبيب، ويحيا كل ذي صلة به حتى
الجماد.

إن فكروا ففي المحبوب، أو تكلموا فعنه، أو اشتاقوا فإليه، أو تألموا
فعليه...

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن سكّت فشغلي عنكم بكم
وإن منحوا الدنيا باعوها كلها بقبلة منه أو شمة أو ضمة، ثم لم يأملوا إلا
دوامها، أو الموت بعدها لئلا يجدوا فقدانها، لا يألمون إن قال الناس مجانين،
ولا يحزنون إن نالهم الأذى، بل ربما سرهم ما يسوء، إن كان فيه رضا المحبوب.

ويا ويلهم من العذال. يا ويل الشجي من الخلي!

يلومون قيساً، لأنهم لا يرون ليلاه إلا كسائر النساء، ففي كل امرأة
عوض عنها وبديل منها، ولو استعاروا عيني قيس فنظروا بهما لرأوا ليلي هي

الدنيا، وهي الأخرى. وهي الروح، لولاها ما كانت الحياة، ولا أضواء الشمس، ولا أنار القمر، ولا بسم الروض، ولا ضحك ينبوع، ولا همس النسيم، ولا غنى الطائر، ولا كان في الدنيا جميل.

قصة الحب هي القصة الأزلية التي تكرر دائماً، وتعاد أبداً، لا تمل ولا تسأم. وهل يمل حديث الحب ويحكم؟ نقرأها كل يوم فلا نراها تبدل فيها إلا الاسم، فهي أنا قصة ليل أو لبنى أو عفراء أو سلمى كرامة، وهي أنا قصة هلويز أو ماجدولين أو فرجينى أو شارلوت، ولا تغير إلا المنازل؛ فمن بطاح نجد إلى ضفة البحيرة، إلى ساحل الدنيا الجديدة، إلى ظلال الزيزفون... أما القصة فهي هي ما تبدلت ولا تغيرت، ولا يمكن أن تتبدل حتى تبدل الأرض غير الأرض.

على أن للحب مواسم، وله منازل، ينبت فيها كما ينبت النخيل في البصرة، والكرم في الشام. فمن منازل لبنان...

لبنان (شرقيه والغربي) الذي برأه الله على مثال الجنة: روح وريحان، وهور وولدان، فمن حلّ فيه مؤمناً ذاق نعيم الخلود في دار الفناء، وأحس بسعادة الأخرى في الدنيا؛ ومن حلّه غير مؤمن أذهب طيباته في حياته الدنيا وماله في الآخرة من خلاق.

لبنان الذي كان دار الأولياء والشعراء والسياح والزهاد، من كل عابد مبتل، ومحب هائم، وتائب أواب!

لبنان الذي جعل الله ماءه خمراً، وجماله سحراً، فلا تدري أهو السحر قد خيل لك أنك في جنة الخلد، أم هو السكر قد جعلك تحس التخلص من هذا العالم، الغارق في الدم، الملتحف باللهب، وتشعر أنك تعيش في الأفق الأعلى عيشة اللذة الدائمة، والذهول الناعم الهنيء، وسط عوالم من النور تدرك ولا ترى.

لبنان الذي لا تدري أي شيء فيه هو أجل: أذراه التي تبرقت بيراقع

الثلج فلم تبصرها عين حي من يوم خلق الله العالم، فعز بالحجاب جمالها حين ذل بالسفور الجمال، أم سفوحه الحالية بالصنوبر، أم القرى المثورة على تلك السفوح، أم ينابيعه المتفجرة تفجر الحكمة على لسان نبي، أم أوديته الملتوية التواء الفكرة في رأس أديب لا يملك البيان عنها؟ وأيه هو أبهى: أصباح (بلودان) أم ظهيرة (الشاغور) أو (حمّانا) أم الأصيل الفاتن في ربي (صوفر) أم المساء الوداع في خليج (جونية) أم مناجاة الملائكة في قمة (جبل الشيخ) أم مسامرة الزمان عند (الأرز)، أو في (بعلبك)؟.

أم أنت تؤثر هذا كله، وتتمنى لو شملته بنظرة منك واحدة، ثم ضممته إليك، ثم شددت عليه، حتى أفنيته فيك، أوفيت أنت فيه؟.

تعالوا سائلوا سفوحه وذراه ووديانه ورباه، كم شهدت من فصول هذه القصة الخالدة، قصة الحب... وكم أريق على صخوره من الحيوانات والعواطف، يطل جوابكم لوملك الكلام... ولكنه أبكم لا ينطق والناس بكم لا يروون إلا تاريخ الوحشية المدمرة العاتية، يحفظونه أبناءهم ليكون لهم منه أظفار كأظفار الوحش، ومخالب كمخالب النسر، أما تاريخ الإنسانية العاشقة فإنهم يزدرونه ويترفعون عن حفظه، ويرون من الخطر على الأخلاق أن يدرس في المدارس!

وكذلك أرى أنا... وهل أنا إلا من غزيرة؟

وإلا فمن يروي لي قصة هذا القبر التائه، الذي نأى عن موطنه، وفارق إخوانه، وطوّف حتى استقر عند قدم صخرة هائلة من صخور (رأس بيروت)، يلطمه الموج صباح مساء، فيستغيث استغاثة غريق عاين الموت، ولا من مغيث!.

* * *

قبر منفرد ضائع بين الصخور ليس ما يدل عليه إلا حجر منحوت نحتاً غير متقن، عليه كتابة قد براها الماء فلم يبق منها إلا أنقاض هذه الأبيات:

الشمس تطلع تارة وتغيب والليل يجمع شمل
وأنا محب لم أجد ألا الشقا أحيي الليالي
فيجمع القبر الأحبة إن نمت ويكون

فمن (يا أهل بيروت) يعرف تلك القصة التي لم يبق منها إلا هذه الخاتمة الأليمة: قبر تائه، عليه شعر إن لم يحفل به علماء اللسان، كان حسبه أن يحفل به علماء القلوب؟

هل في هذا القبر عاشق من لبنان يوم لم يكن قد فسد لبنان ولا عاثت فيه يد (الحضارة)، عرف فتاته في طفولتها الحلوة المبرأة، تنهادى بين البيت السعيد، والحقل الخصيب، والمرعى الجميل، والكرم البهي، فكانا يلحقان الأفراخ (الصيصان) وهنّ بنات يوم واحد، قد خرجن من البيض كرات ذهبية من الريش الأصفر الناعم، تطير لحفتها مع النسيم، وتحلّ لحلاوتها في الفؤاد، فإذا رأتهما الدجاجة الأم، فأقبلت عليهما نافثة ريشها مستنصرة، خافا فارتدا إلى الجدي يلاعبانه، والجحش يركبانه. وكان عالمها صغيراً كله، والصغير من كل شيء فاتن محبوب. ومن منا لا يحب الصبي، والبنية، وفرخ الطائر، والهريرة، والكلب، وغصين الشجرة، وزر الورد، والكتيب، وكل لطيف من التحف والطرف^(١)، ودقيق من الأشياء؟ من لا تنجذب إلى ذلك نفسه، ويحنو عليه قلبه؟.

ثم كبرا، فكانا يصحبان القطيع إلى القمم القريبة وإلى الوادي. ثم أبعدا المرعى، فكانا يرافقان الشمس في غدوها ورواحها ويطوفان تطوافها. ثم اكتمل جهالها وتمت رجولته، وكذلك تؤتي الفضيلة أكلها إذا عاشت تحت عين الشمس، في الأعالي التي لا ترقى إليها جرائم الفساد، فصارا يقاسمان الكبار السمر على (المصطبة) في ليالي الصيف، وفي (العلية) في الشتاء. ومرت الأيام، فإذا هي فاتنة القرية وحسناؤها، وإذا هو بطل الديرة ورجلها،

(١) الطرف أو الطرائف هي ما يسمى في لسان التجارة وفي لغة العامة (نوفوته nou Veautés) والكلمتان في اللغتين بمعنى واحد (تقريباً).

ومقدم الشباب في المصارعة، وحمل الأثقال، والعدو، والسباحة، وتلك كانت
مفاخر الشباب الجبلي في تلك الأيام. وكان رقصهم الدبكة على (اليادل)أو(على
دلعونه) وكان هو شيخ الدبكة.

وكان الحب قد ولد في نفسيهما، فكانا يجلسان على قلعة على شفير
الوادي، يريان هذا الحب الوليد، ويدعان القطيع يرعى بنفسه، وكان لها
عنده مثل الذي له عندها، فما الذي فرق بينهما؟ أهو المال أم الدسائس أم قد
زوجوها من غيره. أم ماذا؟ من يحفظ قصتهما يا أهل بيروت؟.

وكيف عاشت من بعده، وكيف عاش من بعدها؟.

* * *

أم كان متكئاً في زورقه، يرقب الشمس وهي في موقف الوداع صفراء
شاحبة، لا يحفل بها أحد ممن كان في الميناء، لأن هموم العمل لم تدع في قلوبهم
مكاناً للشعر، فأيقظه من غفلة التأمل أسرة تريد أن تجول في البحر جولة في
الزورق... هنالك رآها، واستقر حبها في قلبه، ولم يكن بذي صاحبة ولا ولد
فهام بها هيماً، وقلب الأرض يفتش عنها علّه يحظى منها بنظرة فلم يلقها.
فعاش بقية عمره يتجرع غصص الألم المكتوم، حتى مات حيث لقيها، ودفن
حيث مات.

وهذا الحب هو النار التي تاكل القلب... وما قرأت مرة قصة القاضي
ابن خلكان إلا رحمته مما يقاسي. كان يبيت وحده في المدرسة العادلة الكبرى
(دار المجمع العلمي بدمشق) فإذا أراد أن ينام تمثلت له صورة المحبوب، فغلى
دمه في عروقه وفار، فأقبل يدور حول البركة ويقول:

أنا والله هالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي
حتى يؤذن الفجر، وكان يجب من ليس فوقه إلا السلطان^(١).

(١) وجدت بعد كتابة هذا الفصل أن ابن خلكان نفسه يروي هذه الأبيات في كتابه الوفيات
على أنها لغيره. والقصة التي رويتها هنا سمعتها من أسياننا ولم أرها في كتاب.

قلت: ومن هنا ما تجدون من الذوق في ترتيب كتابه (وفيات الأعيان)
وما يختار فيه من الشعر!.

* * *

أم أن هذا قبرها هي، يقوم على الشاطئ، على مسرح المأساة التي طالما
مثلت عليه وأعيدت.

هنا كانت تقوم ترقب عودته من المهجر من أمريكا، تذكر أبدأ كيف
ودعته بالدموع الغزار، وودعها بزفرة وعناق، ومناها الغنى والجاه والعودة
القرية، وانقضت الأيام وكرت الشهور ولا حس ولا خبر، والفتاة ترقب وتنظر
وقد عافت عشها، وجفت أهلها، واختصرت دنياها كلها، فكانت هذه الصخرة
الصلعاء التي شهدت مبدأ آلامها وتأمل أن تشهد نهايتها، تفكرها في حبها وتذكرها
أن السفينة لا تزال قريبة منها، وأن الحبيب يلوح بمبديله لا يزال، وبينها وبين
الحبيب بحار ولجج، وأيام وليال، والحبيب قد سلاها ونسيها وطمست صورتها
في نفسه أمواج الثروة واللذة والدنيا العظيمة في نيويورك حتى محتها.

فماتت شوقاً إليه، وأسفاً عليه:

أم هي لم تمت وإنما شهدت عودته، فإذا هو قد عاد رجلاً غير الذي ذهب
لم يبق فيه من ابن القرية إلا كما يبقى من ندى الصباح تحت شمس الهاجرة،
لا زيه زيه، ولا لسانه لسانه، فأعرض عنها وازدراها. ورأت إلى جانبه فتاة من
بنات (باي باي) فحولت وعادت إلى صخرتها تنتظر عودة من ليس يعود، حتى
وافاها الأجل، فدفنت مكانها؟

أم هو قبر عاشق ماتت حبيبته كما ماتت ليلي، فعاش بعدها كما يعيش كل
حبيب يائس.

أم كانت قصة هذا القبر شيئاً آخر، فمن يعرف هذا الشيء؟ من يهتم
بشهيد من شهداء الغرام؟ من يعنى بضحية من ضحايا العواطف؟ من يبكي
للمحب المجهول، ويقف على قبره وقوف الناس على قبر الجندي المجهول؟.

يا رحمتاً للعاشقين! حيهم بائس، وميتهم منسي، وحديثهم ضائع.
يا رحمتاً للعاشقين! لا يقام لشهيدهم قبر، وإن أقيم له لم يقف عليه أحد،
ولم يحفظ له تاريخ.

ويا ضيعة هذا الكثر الأدبي العظيم، هذه الدنيا من العواطف التي لم يبق
منها إلا ما أودع ديوان (العتابا). فمن يعنى بجمع هذا الديوان ونشره في
كتاب؟

ألم تعلموا بعد أن في هذه العتابا من الصور والمعاني ما لا يملك بعضه غزل
شعراء العرب كلهم مجتمعاً؟ فمن يهتم به؟ ومتى يأخذ الشعراء هذه الصور
والمعاني فيودعونها للشعر الفصيح؟

* * *

وبعد فيا أهل بيروت،

إذا جزتم بهذا القبر التائه، فقفوا عليه كما تقفون على قبر الجندي
المجهول؛ وقدسوا فيه المحبة كما تقدسون هنالك البغض، وكرموا فيه الحياة،
فالحياة حب والحب حياة، واجعلوه تمثال العاطفة، فالعاطفة فوق العقل،
والإنسان إنسان بالعواطف لا بالتفكير.

لا تحرقوا العاطفة، ولا تزدروا القلوب، فإن القلب منزل أقدس شيئين
في الوجود: الإيمان والحب. وحسب العقل جهوداً وعجزاً أنه لا يستطيع أن
يفهم الحب ولا يدرك الإيمان. وحسب العاطفة كرمًا ونبلًا، أن من ضرورها
حب الوطن والوفاء، والإحسان والرحمة، وذلك ما يميز الإنسان من سائر
الحيوان.

ونحن اليوم في حاجة إلى الإيمان بالعاطفة الخيرة، فلنجعل الحب
العفيف^(١) وسيلة إليها، ولنتخذ منه سلاحاً نحارب به الفسوق والدعارة،

(١) هذا كلامي سنة ١٩٤٠ وأنا في ذروة الشباب. وقد علمت الآن أن الحب الشريف،
كالليل الشمس شيء كالمستحيل.

والغلظة الوحشية، ولنستكمل به إنسانيتنا فمن لم يعرف الحب لم يكن له قلب.

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

* * *

نشرت سنة ١٩٤٣

انفضَّ السامرون، بعد ما صدَّعوا رأسي بأحاديث الانتخابات والنيابات،
والمطامع المكسوة بأثواب القناعة، والمنافع المتشحة بوشاح الإخلاص، وكان
هزيع من الليل فتنفَّست الصعداء، وخرجت إلى (المشرقة) أشرف على دمشق
— وإن دمشق وغطتها وسبع عشرة قرية من قراها لتبدو للناظر من شرفة دارني
في (المهاجرين) واضحة كأنها صفحة الكف، يأخذ منها فضاء عرضه خمسون
كيلاً بنظرة واحدة من علو مائتي متر— وكانت ليلة ساكنة، رحيَّة النسيم، قد
زائها بدر (شعبان)، فوقفت أمتع النفس بها وآنس بسكون الكون بعد ضجة
المجلس، ورُحِب الفضاء بعد ضيق الغرفة، وأرخيت العنان لأفكاري فانسابت
على مهل . . .

* * *

ولبثت ساهراً وحدي وقد نامت النجوم على فرش المزن الرقراق، ونامت
الجبال على أكتاف الأودية وحوافي السهول، ونامت الغوطة في أحضان قاسيون،
ونامت الأشجار في جنان الغوطة، حتى بردى فإنه يمشي نائماً ففعل الجند وهم
قافلون من سفر بعيد متعب، وقد ملَّ من طول السفر، وبعد الغاية التي لم يصل
إليها، وهو يمشي نحوها منذ ألف سنة، وكاد يخالطه اليأس من بلوغها،
ولم يبق ساهراً معي إلا هذه الأضواء الكليلة التي ترتجف من الوحدة والخوف،
وتنظر بعيونها (الزرقاء) خلال الظلام فلا تبصر الطريق .

وجعلت أفكر فأرى الطبيعة ظاهرها كباطنها، لا يضمّر الجبل نفاقاً،

ولا السهل يظن حقداً، ولا السحاب ينطوي على مكر، ثم أنظر إلى هذه السقوف، التي كانت تبدو بهية براقه، يقطر منها النور، بعدما اغتسلت بضياء القمر، فأفكر فيها... ماذا تحت هذه السقوف؟

كم تحتها من خبايا وعجائب، ومؤلف ومختلف. كم من معبد لمتهجد متنسك، إلى جنب مخدع لمستهتر متهتك؛ هذا خلا برّبه، وذاك بحبه، فتجاوزت منها الظلمة والنور. وكم من سرير لميت يحف به أهله ليكون، ومضجع لعروسين أحاط بهما الأقرباء يضحكون، ومن بيت يتبرم بالولد، ومن يتألم من العقم، وشاك من التخمه، وباك من الجوع، ومسرور يتمنى لو طال الليل، ومنكود موجه ينتظر النهار. وكادح للعيش ناصب لا يستريح نهاره ولا يكاد ينام ليله، همه المال يجمعه ويركّمه، قد حرم نفسه من أجله الطيبات ولو كشف له الغطاء لعلم أنه إنما سخره الله لآخر فهو يجمعه له، ويكدح من أجله، وذاك نائم لا يفكر فيه، ولا يباليه، حتى يجيء وقته فيأتيه...

وتلميذ ذكي قد أثقل جفنيه النعاس، وهذّ جسده التعب، وهو مقبل على كتبه ودفاتره، وآخر كسلان يغطّ غطيطة البكر، ولو اطلعاً على الآتي لرأيا أن هذه الدنيا سترفع الجاهل الحامل، وتخفض العالم العامل، تفيض على الأول المجد والمال، وتحرم الثاني، ولا يدري الحكمة في ذلك إلا الله.

وكم من زوجين باتا متنافرين، يتمنى كل لو كان عزرائيل ووكل بقبض روح صاحبه، ومائمه من سبب إلا أن الزوج راح إلى الدار متألماً من أمر أصابه، يبتغي الراحة عند زوجه إذ تقبل عليه مواسية مسلية، بوجه طلق وفم باسم، وأن الزوجة كانت تنتظره وقد أناخ عليها الملل، وترقب دخوله ضاحكاً مرحاً، فلما رأتها مُربدّ الوجه خاب أملها فتألمت وأعرضت، ولما رآها معرضة ضاع رجاؤه منها فزوى وجهه عنها، وأمل كل أن يبدأه الآخر بالصلح لأنه عند نفسه لا ذنب له، فلما طال الوقت وهما متنافران يتراميان بالنظرات شزراً كالمقطط في عراكها، استحكمت العقدة فلم يبق إلا الطلاق!

وكم من سجين يتقلب في السجن على مثل الإبر يذكر أهله الذين

لا عائل لهم سواء، وقد حبس في تهمة، وقاضيه في النادي يضارب على المائدة الخضراء بالمال الذي قبضه رشوة من خصمه ليحكم عليه.

وتأثبة تجول في الطرقات الخالية مع الكلاب، ولا تجد من يمن عليها بكسرة خبز إلا إن دفعت ثمنها من جسدها لأنها زانية ملعونة لا تقبل لها توبة، والذي أفسدها وأغواها يتصدر المجالس، لا يذكر الناس خطيئته التي استزله الشيطان إليها في شبابه لأنه تاب منها، ومن تاب تاب الله عليه.

وكم من أديب، أديب حقاً، قد طاعت له عَصِيَّات الكلم، وذلت له العوالي من قطوف البلاغة، قد انزوى في خُصّه لا يدري به أحد؛ ودعي جاهل، لص معانٍ، وصفاف كلمات، قد جُمع له المجد الأدبي من أطرافه فكان له الاسم السائر، والمال الوافر.

ومتمشيخ قد لبس مسوح الزهاد، وأتزر بإزار الصالحين، قد عرَّض لحيته، وكوّر عمامته، وأدلى عذبتة وطوّل سبحته، ودعا الناس إلى الزهد في الدنيا، ونبد الأموال، ورمي النقود في الطرقات لأنها وسخ الدنيا، فلما أطاعوه ورموها خالفهم إليها فالتقطها.

وكم من أزواج قد باتوا في الفراش مع نساء لا يفضلن زوجاتهم في جمال ولا كمال، ولكنه شرع إبليس لا لذة فيه إلا مع الحرام.

وكم من نساء تركن أزواجهن وارتمين في أحضان الملاحين من لصوص الأعراض.

* * *

كم تحت هذه السقوف من شاعر يعتقد الناس أنه خلق روحاً بلا جسم، وأنه يتغذى بالحب، ويأكل العواطف، قد أغلق عليه بابه، وطفق يعد نقوده التي يستوحيا الخيال، ويستلهمها الشعر، فلما رآها قليلة لا تزال، انصرف إلى نظم قصيدة جديدة يستدر بها المال.

ونصير للفضيلة، سخر صحيفته لها، ووقفها عليها، قد هرب من بيته

وانصرف في تلك الساعة إلى عشيقته ليقراً عليها مقالته الجديدة في ذم العشق وامتداح الوفاء الزوجي .

وفلاح عاكف على لبنه يخلطه بالماء، وكلما صب فيه شيئاً نظر إليه وذاقه، فلما اطمأن إلى أنه لم يعد يحتمل زيادة، جعل يفكر في أيمان جديدة يحلف بها غداً على أن اللبن خالص لم يمس ماء .

وباتت عشرون ألف فتاة ينتظرن الزواج، وبات عشرون ألف فتى ينتظرون الزواج، وما حال بين الطائفتين إلا غلاء المهور، وكثرة التكليف، وسخف الآباء الذين يحسبون بناتهم دواب تباع في سوق البقر، فهم يشتطون بأثمانها، والذين لا يمتثلون أوامر الشرع، فيروا البنت للحاطب الكفء، ويطلقونها في الطرقات متبرجات سافرات، فيراهن الفاسق والصالح، وكل ذي عينين حتى الحمار .

وباتت الخمارات مفتحة الأبواب، مزدحمة بالطلاب، وبات المسجد مغلقاً قد قام خطيبه بالواجب عليه، فخطب في ذم الخمر وألقى فيه درساً وانصرف لينام مطمئناً بعدما أنكر المنكر، وأمر بالمعروف .

وكان النواب لا يزالون مجتمعين يتباحثون، وقد ملّ البواب ونعس، ولكنه بقي قائماً يعلل النفس بأن البرلمان سيأتيه بقماش رخيص، وسيكسر رجل صاحب الدار إن جاء يصلب الأجرة، ويسقط ديونه كلها . وتحيل الديون ساقطة فأغمض عينيه مرتاحاً ونام .

وخلال ذلك عشرة آلاف شاب لا ينقصهم شيء من مال وصحة، ولكنهم لا يزالون يشكون الملل ولا يدرون ماذا يصنعون، فيقبلون على الملاهي أو يتحرون، ولو دققوا لعلموا أنهم إنما ينقصهم الإيمان .

وأربعمائة ألف نسوا همومهم وناموا كالقتلى .

* * *

وجعلت ألج بخيالي هذه البيوت، وأجول تحت السقوف، فأجد كل

خبيثة لا تعرفها أصناف الحيوان، وإن هي عرفتها ترفعت عنها وأبتها؛ أفهذا هو الإنسان سيد المخلوقات؟ وفيم هذه السيادة إن لم تكن بالإيمان والفضيلة والاستقامة والصدق والعلم؟ أليس الإنسان الذي يكفر بالذي خلقه، ويخون وطنه، ويسيء إلى أبيه الذي رباه، وأمه التي حملته، ويكذب وينافق، ويغش ويسرق، ويكون عبد شهواته، وأسير جهله - أليس هذا الإنسان شراً من الحمار؟

ويل لهذا الإنسان، أته آلاف الأنبياء، والحكماء، والمصلحين، وآلاف الآيات والنذر، ولا يزال معنأً في غوايته، مقبلاً على شهواته. إن امرأة واحدة عارية تهدم في ساعة واحدة ما يبنيه الأستاذ المرشد المصلح الهادي في عشرين سنة.

إن الصخر الأصم ليلين ويتفجر منه الماء، وقلب الإنسان لا يلين؛ وإن الجماد ليعي النذر ويعتبر، وهذا الإنسان لا يعي ولا يعتبر.

من فكر واعتبر بهذه البيوت وكم مر عليها من ساكنين، كم رأت من ذل بعد عز، وعز بعد ذل، ولم يبق من ذلك شيء... هنالك وراء الأموي كانت (الدار الخضراء) منزل الأخلاف من بني أمية، وكانت أمتع من النجم، وأبهى من الشمس، وكانت سُرَّة الأرض، من جبال الصين إلى (البيزنه) فأضت اليوم مصبغة صغيرة حقيرة، وسترجع المصبغة قصراً، ثم يصير القصر مقبرة.

هذه هي الدنيا، ولكننا غافلون عن حقيقتها، مطمئنون إليها، ظاننون أنها تدوم لنا...

ماذا بقي من بني أمية، ومن المماليك، إلا هذه الجدران القائمة وهذه القباب؟

وماذا بقي من بني عثمان إلا (السراي)... سلوا درج (السراي) كم رأى من صاعدين ونازلين، ما استقر منهم أحد... لا ربَّ القصر يخلد فيه، ولا ساكن السجن؛ كلهم عابر سبيل.

* * *

واستغرقت في أفكاري، فلم أنتبه إلا وصوت المؤذن يرن في هذا السكون
نقياً صافياً عذباً يقول: «الصلاة خير من النوم». فقلت: صدق والله، ومن
السهر، ومن المال، ومن المجد، لأنها هي التي تبقى، على حين تفتى الدنيا
بما فيها من مسرات وأحزان. وقمت إلى الصلاة.

إلى أخي النازح إلى باريز

نشرت سنة ١٩٣٧

يا أخي!

لَمَّا دَخَلْتُ (مَسَابِقَةَ الْبَعْثَةِ) أُمِلْتُ لَكَ الْفَوْزَ لِمَا عَوَّدَكَ اللَّهُ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالْمُعُونَةِ، وَخَفْتُ عَلَيْكَ الْخِيَةَ لِأَنَّ (الْوِزَارَةَ) لَا تَرِيدُ إِلَّا مَبْعُوثًا وَاحِدًا فِي (الْعُلُومِ الْرِیَاضِيَةِ) مِنْ سُورِيَةِ كُلِّهَا، وَأَنَّى لَكَ أَنْ تَكُونَ ذَاكَ الْوَاحِدَ؟

فَلَمَّا ظَهَرَتِ النَتِیْجَةُ، وَكُنْتُ أَنْتَ النَّاجِحُ فِي (فُرُوعِ الرِّیَاضَةِ)، وَكُنْتُ النَّاجِحُ فِي (الطَّبِیْعَةِ) أَيْضًا، حَمَدْتَ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْمُنَّةِ، وَذَهَبْتَ أَسْتَعِجِلْكَ بِالسَّفَرِ وَلَمَّا عَزِمْتَ أَعَدَدْتُ لَكَ مَا تَرِيدُ وَأَنَا فَرِحَ مُسْتَبْشِرٌ مُسْرُورٌ.

كُنْتَ مُسْرُورًا لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ ذَاهِبٌ تَطْلُبُ الْعِلْمَ، وَتَخْدُمُ الْوَطَنَ، وَتَقُومُ بِالْوَاجِبِ.

وَلَكِنْ لَمْ يَكْدُ يَتَحَقَّقُ الْأَمْرُ، وَيَزِفُ الرَّحِيلُ، وَأَرَى الْبَاخِرَةَ الْفَخْمَةَ (مَارِيَّتَ بَاشَا) رَابِضَةً حِيَالِ الْمَرْفَأِ (فِي بَيْرُوتٍ) تَسْطِيعُ أَنْوَارُهَا وَتَتَلَأَّلُ، وَالْقِي نَظَرِي عَلَى هَذَا الْبَحْرِ الْهَائِلِ الَّذِي يَمْتَدُّ فِي الْفَضَاءِ أَسْوَدَ مِثْلِ اللَّيْلِ، حَتَّى يَغِيبَ فِي السَّمَاءِ، أَوْ تَغِيبَ فِيهِ السَّمَاءُ... لَمْ أَكْدُ أَرَى ذَلِكَ حَتَّى أَدْرَكْتُ الْحَقِيقَةَ الْوَاقِعَةَ وَعَلِمْتُ أَنَّكَ مُودِعٌ نَازِحٌ، فَغَلَبَتْ عَلَيَّ الْعَاطِفَةُ، وَفَاضَتْ نَفْسِي رَقَّةً وَحَنَانًا.

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَوْدَعَكَ، وَلَمْ أَقَوْ عَلَى رُؤْيِكَ وَأَنْتَ فِي الْبَاخِرَةِ، مَآخِرَةٌ بِكَ عِبَابِ الْيَمِّ، تَنَآى بِكَ عَنِّي، حَتَّى تَصِيرَ نَقْطَةً صَغِيرَةً عَلَى شَاطِئِ الْأَفْقِ، ثُمَّ

تتحدر إليه، وتختفي وراءه، وتختفي أنت معها، وتصبح^(١) في نظري عدماً،
لأنني لا أحس لها وجوداً.

والوداع — يا أخي — جماع آلام الحياة وأساسها ومصدرها، وأشد ألوان
الوداع وآلمها وأمرها وداعاً في البحر، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب.

ودعتك وداعاً عادياً، ولبثت في مدرستي ألقى دروسي وأنا هاديء
الجوارح ساكن الطائر، ولكن في القلب مني زلزلة، وفي الأعصاب ناراً.

حتى إذا عاد أخوك ناجي^(٢) الذي صحبتك إلى الباخرة فخبري أنك سرت
(على اسم الله)، أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى، وأن
هذه النار قد تركت أعصابي رماداً منطفئاً فسقطت على كرسي لا أدري فيم
هذا الضعف، ولا أحبه من نفسي، ولكني أدري أنني أتخيلك الآن وحيداً فريداً
لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء
والماء، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً. وأتصورك في ذلك البلد
الغريب الذي لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها، وأنت الذي لم يفارق بلده قط،
ولم يغيب عن أهله ليلة، ولم يسافر وحده أبداً فلذلك ما أحزن، وفي ذلك أفكر.

* * *

ولكنها — يا أخي — خطيئة تربيته الاتكالية. ولو أن آباءنا عودونا، ولو أنا
عودناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة، وتركناك وأنت في الثانية عشرة تذهب
وحدك وتعود وحدك، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها
ضائعة في شخصياتنا، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة، لو فعلنا
ذلك وأنت في الثانية عشرة، لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في
طريق العشرين!

يا أخي!

(١) تصبح هي لا هو.

(٢) القاضي الشرعي. وهو الآن المستشار القانوني لوزارة الحج والأوقاف في السعودية.

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله)، الذاهب إليه لا يؤوب، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب... يتبدل دماغه الذي في رأسه، وقلبه الذي في صدره، ولسانه الذي في فيه؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك!

إي والله يا أخي، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك)، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا، ويعودون عداةً لنا، دعاةً لعدونا، جنداً لاستعمارنا... لا أعني استعمار البلاد، فهو هينٌ لين، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أوكدنا... وإنما أعني استعمار الرؤوس بالعلم الزائف، والقلوب بالفن الداعر، والألسنة باللغة الأخرى، وما يتبع ذلك من الارتسات والسينمات وتلك الطامات، من المخدرات والخمور، وهاتيك الشرور.

فانتبه لنفسك واستعن بالله، فإنك ستقدم على قوم لا يبالي أكثرهم العفاف، ولا يحفل العرض^(١). سترى النساء في الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة، قد أذلتهن مدينة الغرب وأفسدتهن، وهبطت بهن إلى الخضيض فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف، وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك المخدرات معصومات كالدر المكنون، شأن نساء الشرق المسلم، حيث المرأة عزيزة مكرمة، محجوبة مخدرة، ملكة في بيتها، ليست من تلك الحطة والمذلة في شيء... فإياك أن تفتنك امرأة منهم عن عفتك ودينك، أو يذهب بلبك جمال لها مزور، أو ظاهر خداع، هي والله الحية: ملمس ناعم، وجلد لامع، ونقش بارع، ولكن في أنيابها السم... إياك والسم!

إن الله قد وضع في الإنسان هذه الشهوة وهذا الميل، وجعل له من نفسه عدواً (لحكمة أرادها)، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه، فتحصن بحصن الدين، وجرد سلاح العقل توفى الأذى كله... واعلم أن الله جعل من الفضيلة مكافأته: صحة الجسم، وطيب الذكر

(١) والعجيب إنه ليس في لغاتهم كلمة بمعنى العرض، لأن ذلك شيء لا يعرفونه.

وراحة البال؛ ووضع في الرذيلة عقابها: ضعف الجسد، وسوء القالة وتعب الفكر، ومن وراء ذلك الجنة أوجههم.

فإن عرضت لك امرأة بزيبتها وزخرفتها فراقب الله، وحكّم العقل، واذكر الأسرة والجدود... لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القدرة، وماضيها الخبيث المتنن، أأأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب؟؟

يا أخي!

إن في باريز كل شيء: فيها الفسوق كله، ولكن فيها العلم. فإن أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون)، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى لا تفكر في غيرها. فعليك بها، استق من هذا المورد الذي لا تجد مثله كل يوم. راجع وابحث وألّف وانشر، وعش في هذه السماء العالية، ودغ من شاء يرتع في الأرض، ويغش على الجيف المعطرة.

غير أنك واجد في ثنايا هذه الكتب التي كتبها القوم المستشرقون عن العربية والإسلام، وفي غضون هذه المحاضرات التي يلقونها، عدواناً كثيراً على الحق، وتبديلاً للواقع، فانتبه له. واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك في رأسك، وإيمانك في صدرك. لا تأخذ كل ما يقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة، فالحق هو الذي لا يكون باطلاً، وليس الحق ما كان قائله أوروبياً فانظر أبدأ إلى ما قيل، ودع من قال!

* * *

ثم إنك ستري مدينة كبيرة، وشوارع وميادين، ومصانع وعمارات... فلا يهولك ما ترى، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من رؤاد باريس. واعلم أنها إن تكن عظيمة، وإن يكن أهلها متمدينين، فما أنت من أواسط أفريقية ولا بلدك من قرى التبت... وإنما أنت ابن المجد والحضارة ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً، ابن الأمة التي لو حذف اسمها من التاريخ لأض تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضاً لا شيء فيها،

إذ لم يكن في هذه القرون بشر يدون التاريخ تاريخه سواهم... فمن هؤلاء الذين ترى إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكن أمتك بنت الدهر، لما ولد الدهر كانت شابة، وستكون شابة حين يموت الدهر.

لا. لا أفخر بالعظام البالية، ولا أعتر بالأيام الخالية، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة، لأستصرخ في دمك قوى الأجداد التي قتلت وأحيت، وهدمت وبنيت وعلمت، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعاً... إن هذه القوى الكامنة في عروقتك، نائمة في دمك، فليفر هذا الدم وليثر ويضطرم لتظهر ثانية وتعمل عملها.

لا تقل: ما يصنع طالب مثلي ضعيف في أمة قوية، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لعصرها أقوى، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يصنعوا (هذه القوة) التي تعجب بها أنت، ويذوب فيها غيرك... إن الدهر يا أخي دولاب، والأيام دول. وإن في الشرق أدمغة؛ وفي الشرق سواعد، وفي الشرق مال، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك، وعودوا إلى الشرق شرقيين معترزين بشرقيتكم الخيرة العادلة، كما يعتز الغربيون بغربيتهنم الظالمة الطاغية. واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة... ولكن مهمتكم أمة تحيونها.

يا أخي!

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معاشهم وتجارتهم وصناعاتهم ومدارسهم، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدون الحسنة لتتعلّمها، والسيئة لتتجنبها. ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب، فلم يبصروا إلا المخازي والعيوب، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً.

وإياك وهذه الحماسة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون

بما لا يعرفون، ويقولون ما لا يعلمون، كهذا الأخرق الصفيق^(١) الذي عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية، ولا يعرف أي كتاب من كتب المسلمين بحث في الحج، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة؛ وكتب في نظام الري في الغوطة، وزعم أنه وفي البحث وأتمه، وهو لا يعرف منه إلا ما أخبره به ثلاثة فلاحين، لقيهم في قرية ذهب إليها، مع أن نظام الري في الغوطة لا يكاد يعرفه في دمشق إلا نفر قليل.. وذلك الذي كان معلماً أولاً في بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق، فمشى ينظر إلى جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك.. فوجد في الجبل أثراً للماء، فقال: من أين جاء هذا الماء؟ لا بد أن يكون جاء من بردى، إذ لا ماء في دمشق إلا من بردى. فماذا تكون نتيجة (البحث العلمي) في هذه المسألة؟ هي أن بردى كان يصل إلى هنا... إذن فقد كان عرض بردى في الماضي أربعمائة متر... وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة!

* * *

وبعد يا أخي، فاعلم أن أثنى نعمة أنعمها الله عليك هي نعمة الإيمان، فاعرف قدرها، واحمد الله عليها وكن مع الله تَرَّ الله معك وراقب الله دائماً، واذكر أنه مطلع عليك، يعصمك من الناس ويُعذك من الشيطان، ويوفقك إلى الخير^(٢).

وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك، وخلّ (السوربون) تنع من بناها... وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق.

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) المسيو تريس أحد الجهلة الذين جعلهم الانتداب أساتذة في مدارسنا.

(٢) وقد عصمه الله ووفقه، فعاد أفضل مما كان، ومن عليه فكان أول دكتور في الرياضيات في ديار الشام كلها، وهو عبد الغني الطنطاوي الأستاذ في كلية العلوم في جامعة دمشق سابقاً وفي جامعة الملك عبد العزيز في جدة الآن.

من أحاديث الإذاعة : اعرف نفسك

نشرت سنة ١٩٥٢

إنكم تسمعون كل يوم أحاديث في الجدل وفي الهزل، وفي الخير وفي الشر، أحاديث تدعو إلى الوطنية، وأحاديث تسمو بالخلق، وأحاديث فيها متعة وفيها تسلية؛ ولكن حديثي الليلة أهم من هذه الأحاديث كلها، لا لأنني أنا كاتبه، أعوذ بالله من رذيلة الغرور، بل لأنه أمس الموضوعات بكم، وأقربها إليكم، ولأنه دعوة لكم لتعرفوا أنفسكم.

لا تضحكوا يا سادة ولا تظنوا أنني أهزل، ولا تقولوا: ومن منا لا يعرف نفسه؟ فإنه كان مكتوباً على باب معبد أثينة كلمة سقراط: «أيها الإنسان اعرف نفسك» ومن يوم سقراط إلى هذه الأيام، لم يوجد في الناس (إلا الأقل منهم) من عرف نفسه!

ومتى تعرف نفسك يا أخي، وأنت من حين تصبح إلى حين تنام مشغول عنها بحديث أو عمل أو لهو أو كتاب؟.

ومتى تعرف نفسك وأنت لا تحاول أن تخلو بها ساعة كل يوم تفكر فيها، لا يشغلك عنها تجارة ولا علم ولا متاع؟.

ومتى.. وأنت أبداً تفكر في الناس كلهم إلا نفسك.. وتحدثهم جميعاً إلاها؟.

* * *

تقول «أنا» فهل خطر على بالك مرة واحدة أن تسأل: «من أنا؟ هل جسمي هو (أنا)؟ هل أنا هذه الجوارح والأعضاء؟».

إن الجسم قد ينقص بعاهة أو مرض، فتبتر رجل، أو تقطع يد، ولكن لا يصيبني بذلك نقصان!.

فما (أنا)؟

ولقد كنت يوماً طفلاً ثم صرت شاباً، وكنت شاباً وصرت كهلاً، فهل خطر على بالك أن تسأل: هل هذا الشاب هو ذلك الطفل؟ وكيف؟ وما جسمي بجسمه، ولا عقلي بعقله، ولا يدي هذه يده الصغيرة. فأين ذهبت تلك اليد؟ ومن أين جاءت هذه؟

وإذا كانا شخصين مختلفين فأيهما أنا؟ هل أنا ذلك الطفل الذي مات ولم يبق في من جسده ولا فكره بقية؟ أم أنا الكهل الذي يلقي هذا الحديث؟ أم أنا الشيخ الذي سيأتي على أثره بجسمه الواني وذنه الكليل؟ ما أنا؟.

وتقول: «حدثت نفسي، ونفسي حدثتني» فهل فكرت مرة، ما أنت؟ وما نفسك؟ وما الحد بينهما. وكيف تحدثك أو تحدثها؟.

وتسمع الصباح جرس الساعة يدعوك إلى القيام – فقد حان الموعد، فتحس من داخلك داعياً يدعوك إلى النهوض، فإذا ذهبت تنهض ناداك منك مناد أن تريث قليلاً واستمتع بدفء الفراش، ولذة المنام. ويتجاذبك الداعيان: داعي القيام وداعي المنام. فهل تساءلت ما هذا؟ وما ذاك؟ وما أنت بينهما؟ وما الذي يزين لك المعصية ومن يصور لك لذتها. ويجرّك إليها؟ وما الذي ينفرك منها، ويبعدك عنها؟ يقولون: إنها النفس وإنه العقل. فهل فكرت يوماً ما النفس الأمارة بالسوء، وما العقل الرادع عنه؟ وما أنت؟.

وتثور بك الشهوة، حتى ترى الدنيا كلها مخدع الحبيب، والحياة كلها متعة الجسد، وتتمنى أمانى لو أعطيتها شيطان لا يرتجف من فظاعتها الشيطان، ثم تهدأ شهوتك فلا ترى أقبح من هذه الأمانى، ولا أسخف من ذلك الوصول!

ويعصف بنفسك الغضب حتى ترى اللذة في الأذى، والمتعة في الانتقام.
وتغدو كأن سباً حل فيك، فصارت إنسانيتك وحشية... ثم يسكت عنك
الغضب، فتجد الألم فيما كنت تراه لذة، والندم على ما كنت تتمناه.

وتقرأ كتاباً في السيرة، أو تتلو قصة، أو تنشئ قصيدة، فتحس كأن قد
سكن قلبك ملك فطرت بغير جناح إلى عالم كله خير وجمال، ثم تدع الكتاب،
فلا تجد في نفسك ولا في الوجود أثارة من ذلك العالم.

فهل تساءلت مرة ما أنا من هؤلاء؟ هل أنا ذلك الإنسان الشهوان الذي
يستبيح في لذته كل محرم ويأتي كل قبيح؟ أم ذلك الإنسان البطّاش الذي
يشرب دم أخيه الإنسان، ويتغذى بعذابه ويسعد بشقائه؟ أم ذلك الإنسان
السامي الذي يخلق في سماء الطهر بلا جناح؟ أسبع أنا أم شيطان أم ملك؟.

* * *

أتحسب أنك واحد وأنت معروف، وأنت جماعة في واحد، وأنت عالم
مجهول؟ كشفت مجاهل البلاد، وعرفت أطباق الجو، ولا تزال أنت مخفياً،
لم يظهر على أسرارك أحد. فهل حاولت مرة أن تدخل إلى نفسك فتكشف
مجاهلها؟.

نفسك عالم عجيب، يتبدل كل لحظة ويتغير، ولا يستقر على حال: تحب
المرء فتراه ملكاً، ثم تكرهه فتبصره شيطاناً، وما ملكاً كان قط ولا شيطاناً،
وما تبدل، ولكن تبدلت حالة نفسك. وتكون في مسرة فترى الدنيا ضاحكة،
حتى أنك لو كنت مصوراً لمألت صورتها على لوحك بزاهي الألوان، ثم تراها
وأنت في كدر، باكية قد غرقت في سواد الحداد. وما ضحكت الدنيا قط
ولا بكّت، ولكن كنت أنت الضاحك الباكي.

فما هذا التحول فيك؟ وأي أحكامك على الدنيا أصدق، وأي نظريك
أصح؟ وإذا أصابك إمساك فمالك منه صداع، ساءت عندك الحياة، وامحى
جمال الرياض، وطمس بهاء الشمس، واسود بياض القمر، وملأت الدنيا
فلسفة شؤم إن كنت فيلسوفاً، وحشوت الأسماع شعر بؤس إن كنت شاعراً،
فإذا زال ما بك بقدر من زيت الخروج، ذهب التشاؤم في الفلسفة، والبؤس في

الشعر. فما فلسفتك يا أيها الإنسان وما شعرك إن كان مصدرهما فقد قدح من زيت الخروج.

وتكون وانياً، واهي الجسم، لا تستطيع حراكاً، فإذا حاق بك خطر، أو هبط عليك فرح، وثبت كأن قد نشطت من عقال، وعدوت عدو الغزال، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك؟ هل خطر على بالك أن تبحث عن هذه القوة فتحسن استغلالها؟ هل تساءلت مرة عندما تغضب أو تفرح فتفعل الأفاعيل - كيف استطعت أن تفعلها؟.

إن النفس يا أخي كالنهر الجاري؛ لا تثبت قطرة منه في مكانها، ولا تبقى لحظة على حالها، تذهب ويحيى غيرها، تدفعها التي هي وراءها، وتدفع هي التي أمامها. في كل لحظة يموت واحد ويولد واحد، وأنت الكل؛ أنت الذي مات وأنت الذي ولد، فابتغ لنفسك الكمال أبداً، واصعد بها إلى الأعالي، واستولدها دائماً مولوداً أصلياً وأحسن، ولا تقل لشيء (لا أستطيعه) فإنك لا تزال كالغصن الطري، لأن النفس لا تيسر أبداً، ولا تجمد على حال، ولو تباعدت النقلة، وتباينت الأحوال.. إنك تتعود السهر حتى ما تتصور إمكان تعجيل المنام، فما هي إلا أن تبكر المنام ليالي حتى تتعوده فتعجب كيف كنت تستطيع السهر! وتدمن الخمر حتى ما تظن أنك تصبر عنها، فما هي إلا أن تدعها حتى تألف تركها، وتعجب كيف كنت تشربها. وتحب المرأة حتى ما ترى لك حياة إلا بها، فما هي إلا أن تسلوها حتى تعجب كيف كنت تحبها. فلا تقل لحالة أنت فيها، لا أستطيع تركها، فإنك في سفر دائم، وكل حالة لك محطة على الطريق، لا تنزل فيها حتى ترحل عنها.

فيا أخي. اعرف نفسك، واخُلْ بها، وغمُصْ على أسرارها. وتساءل أبداً: ما النفس؟ وما العقل؟ وما الحياة؟ وما العمر؟ وإلى أين المسير؟. ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه، وعرف الحياة، وعرف اللذة الحق التي لا تعدلها لذة. وأن أكبر عقاب عاقب به الله من نسوا الله أنه أنساهم أنفسهم!

نشرت سنة ١٩٤٦

إذا رأيتم رجلاً يمشي في الطريق منفوش الشعر، شارد النظر، قد لبس معطفه على القفا، ومشى على غير هدى... قلتم إنه (مجنون)... وقد يكون (مجنوناً)، ولكنه قد يكون فيلسوفاً... أو شاعراً... أو رياضياً...!

وإذا سمعتم أن رجلاً لا يفرق بين السراويل والقميص، ولا بين الجمعة والخميس، قلتم إنه (مجنون)... ولكن (أناطول فرانس)، والعهددة على الراوي (جان جاك روسو) دعي إلى وليمة يوم الأحد، فذهب يوم السبت ولبث ينتظر متعجباً من تأخر الغداء، ولبث ربة الدار تنظر متعجبة من هذه الزيارة المفاجئة، ثم لم يرض أن يصدق أنه يوم السبت... فهل كان (أناطول) نابغة قومه في البلاغة وبقاعة العصر مجنوناً؟!

وإذا شاهدتم رجلاً يعتزل في كوخ، أو يتفرد في غار، ولا يقبل على الدنيا، ولا يكلم الناس قلتم إنه (مجنون)، ولكن «الغزالي» عاف الدنيا وقد اجتمعت له، والمجد وقد أقبل عليه، والرياسة وقد أتته متقادة تسعى إليه، وحبس نفسه في أصل منارة الجامع الأموي في دمشق، فهل كان (الغزالي) حجة الإسلام وعلم الأعلام مجنوناً؟!

وإذا بلغكم أن إنساناً نسي اسمه قلتم إنه (مجنون)، ولكن (الجاحظ) نسي كنيته وطفق يسأل عنها حتى جاءه ابن حلال بالبشارة بلقياها، فقال له: أنت أبو عثمان! فهل كان (الجاحظ) عبقري الأدب، ولسان العرب مجنوناً؟

* * *

ونيوتن... وقد كانت في داره قطعة، كلما أغلق عليه بابه، وقعد إلى كتبه ومباحثه، أقبلت تُحرمش الباب وتُحشش بأظفارها فتشغله عن عمله حتى يقوم فيفتح لها، فلما طال عليه الأمر كدَّ ذهنه، وأطال بحثه، فاهتدى إلى المخلص... ففتح في أسفل الباب فتحة تمرّ منها فاستراح بذلك من شرها... ثم ولد لها ثلاث قُطِيطات ففتح لكل واحدة منها فتحة... لم يستطع هذا العقل الكبير الذي وسع قانون الجاذبية أن يتسع لحقيقة صغيرة: هي أن الفتحة تكفي القطعة الأم وأولادها!.

وأمبر... وقد كانت تعرض له مسائل في الطريق، فلا يجد قلماً لها وورقاً، فحمل معه حواراً^(١)، فكلما عرضت له مسألة، ورأى جداراً أسود، وقف فخط عليه، فرأى مرة عربية سوداء واقفة، فجعل يكتب عليها أرقامه ورموزه، واستغرق فيها، حتى سارت العربية، فجعل يعدو خلفها وحواره بيده، وهولا يدري ما يصنع!

وهنري بوانكاريه... وقد دعا قوماً إلى وليمة في داره، وضرب لها الساعة السابعة موعداً، فلما حل الموعد وجاء القوم، كان مشغولاً... فدعوه فلم يسمع، وألحوا عليه فلم ينتبه، وكانوا يعرفون شذوذه، فأكلوا وانصرفوا... وقام بعد ساعتين فأَمَّ غرفة المائدة، فرأى الصحن الفارغة والملاعق المستعملة وبقايا الطعام، فجعل يفكر: هل أكل أم هو لم يأكل؟ ثم غلب على ظنه أنه قد أكل، فعاد إلى عمله!

وأمر الله أفندي... العالم التركي المشهور صاحب المعلّمة التركية^(٢)، وقد كان يركب البحر كل يوم ما بين داره في (اسكدار) وعمله في (اسطامبول)، فركب يوماً وكان إلى جنبه موظف كبير في السفارة البريطانية، وكان في جيبه فستق حلبي، وكان (أمر الله أفندي) مشغول الفكر، فجال بيده وهولا يشعر، فسقطت في جيب البريطاني ووقعت على الفستق فأخرج منه

(١) الحوار: (الطباشير) لا بأس بعربيتها لأن التحوير هو التبييض.

(٢) أي دائرة المعارف، ويا ليتهم سموها (معلماً) على وزن (معجم).

فأكل، وظنَّ الرجل أنه مزاح، فسكت، ولكن الشيخ عاد وأوغل في الأكل حتى كاد يستنفد الفستق كله، وكان الفُلكُ مزدهماً ما فيه مفر للبريطاني من هذه الورطة، فأحبَّ أن يتلطف بالشيخ حتى يكف، فسأله: كيف وجدت الفستق؟ قال: «عال!» وعاد إلى تفكيره وأكله؛ فقال له: ولكن ليس في جوار الدار مثله اشتريه للأولاد، وإذا دخلت عليهم من غير فستق بكوا... قال الشيخ؛ «عجيب!» وعاد إلى الأكل والتفكير، فقال له: أفلا تتكرم بإبقاء شيء لهم؟ قال: «بلى، بكل امتنان»، وأخرج طائفة من الفستق فدفعها إلى الانكليزي وأكل الباقي!.

وقد وُلِّيَ وزارة المعارف وأُعطيَ عربة، فكان كلما بلغت به العربة المنزل، وفتح له السائق الباب، أخرج كيسه وسأله: كم تريد؟ فيقول له: يا سيدي هذه العربة لمعاليك، فيتذكر ويقول: طيب.

وقد سألته امرأة مرة، وكان يمشي أمام داره: أين دار وزير المعارف يا سيدي؟ فقال لها: ومن هو وزير المعارف الآن؟

وصديقنا اللغوي العراقي عبد المسيح وزير^(١)... وقد دخل مرة غرفة غير غرفته في وزارة الدفاع، وكان (طاب ذكره) من كبار موظفيها، فرأى أثاثها على خلاف ما كان يعهد، فغضب ودعا الفرّاش، وقال له: حوّل هذه المنضدة انقل هذا الهاتف^(٢)، اعمل كذا، افعل ذاك... فلما استوت له كما يريد، نظر فقال: أهذه غرفتي؟! قال: لا يا سيدي. فانتقل إلى غرفته!

وكنا نزوره أنا وأنور العطار، فدعا لنا مرة بشاي وتدفق بالحديث، وهو يشرب كأسه، فلما فرغت، وضعها وتناول كأس الأستاذ العطار فشربها، ثم ثلث بكاسي، فلما جاء الفرّاش يأخذ الكؤوس، قال: سألتكم بالله، هل تريدون كأساً أخرى؟!

(١) وخبرت أنه وضع كتاباً في ذهول العلماء ولم أره، وأشكر أحد تلاميذي في العراق إذا تكرم فأهداه إلي.

(٢) لا يعرف التلفون في الشام إلا بالهاتف.

وشيوخ الشام ومربي الجيل الشيخ الطاهر الجزائري، وقد حدثني الشيخ قاسم القاسمي أنهم احتالوا عليه حتى اشتروا له جبة جديدة وألبسوه إياها، وذهبوا به إلى دمر فجلسوا حول البركة العظيمة في منزل الأمير عمر، وكان في المجلس الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي، وجلة العلماء، فما كان من الشيخ طاهر إلا أن قام فنزع الجبة وجعل يغمسها في البركة، ثم يدللكها بالتراب، ثم يغمسها، ثم علقها على غصن حتى جفت وتكرّشت فلبسها وقال: الآن استرحت، إن الجبة الجديدة تشغل فكر صاحبها، فأما العتيقة فإنه لا يبالي بها فينصرف إلى تفكيره...

وصديقنا الكبير سامي بك العظم مفتش العدلية العام^(١)، وقد حدثني من فمه أنه دعا (فلاناً) وكان رئيساً للوزارة إلى الغداء في داره في أقصى المهاجرين، فلما كان اليوم الموعد جاء الرئيس بسيارته إلى باب المنزل، فنزل منها وصرف السائق لثلا يطول عليه الانتظار، واجتاز الحديقة الممتدة، وصعد الدرج العالي، وقرع الباب، فلم يرد أحد عليه، فعاد إلى البلد ماشياً في شمس الهاجرة من آب^(٢) أما سامي بك، فقد نسي الموعد، ولم يكن في الدار أحد، لأن أسرته في القاهرة فذهب فتغدى في المطعم!

وصديقنا الأديب العالم الراوية عز الدين التنوخي، وقد دعا للبحث في إعداد مهرجان المتنبي من سنين جمهرة من أدباء البلد إلى المجمع العلمي يوم كان أمين سره، فلما جاءوا وجدوا المجمع مغلق الباب، فذهب بعضهم إلى دار الأستاذ يسأل عنه خشية أن يكون به مرض، وإذا هويشتغل بتحقيق كتاب أبي الطيب اللغوي، وإذا هويحدثهم عن الكتاب، أما حكاية الدعوة، فقد نسيها من أساسها.

* * *

أفكان هؤلاء، وفيهم كل عبقرى علم، وكل نابغة إمام...

(١) يوم نشر هذا الفصل.

(٢) أغسطس.

أكانوا كلهم مجانين؟

أما في رأي العامة، فنعم!

ذلك لأن القافلة تمشي، فمن سايرها عدّه أهلها عاقلاً، ومن تقدم عنها يسلك طريقاً جديداً قد يكون أقرب وآمن، عدّوه مجنوناً، كمن تأخر عنها لبيته في مجاهل الصحراء!

لكن ذاك جنون العبقرية، وهذا جنون المارستان!

إن العبقرى شغل بالعلم فكره كله، فلم يبق منه شيء لفهم الحياة، فصار عند أهلها مجنوناً!

وبين جنون العبقرية وجنون المارستان نوع ثالث، ألا وهو جنون الغرام:

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

والهوى... يا ويح الهوى، ما أكثر شعابه، وما أضلّ أوديته!

الهوى... ومنذا الذي لم يته في وادٍ من أوديته، ولم يسلك شعباً من

شعابه؟

إن من لم يهو الغيد الحسان، هوى الرياض والجنان، أو الأصفر الرنان، ومن لم تفتنه العيون التي في طرفها حور، فتنته الشهرة واستهواه الجاه... كل الناس مجنون، ولكن أخطر المجانين: مجانين الغرام!

* * *

وهل في الدنيا أشدّ جنوناً ممن ينكر الحياة ويعرض عنها، لا يريد أن يبصر وجهها، ويراهها سوداء في عينيه لا تنيرها الشمس ولا يضيئها القمر، كل ذلك لأن (امرأة) لم تمنحه قبلة... يا حفيظ! اللهم إنا نسألك السلامة!

أما عرفتم مجنون «ليلي»؟ هذا الذي زهد في المجد والجاه والعلم والمال والجنة... واجتنب حياة البشر، وهام مع الوحش في البرية، وملاً أيامه حسة وكآبة وغماً، لأن... لأن الله خلق عيني ليلي سوداوين فتانتين، وجعل أنفها

رقيقاً دقيقاً، وبراً فمها أحمر كالوردة، حلواً كالسكر، صغيراً لا يعرف إلا لغة القبل...

نعم، إنه جُنَّ لأن الله لم يخلق ليلي هذه قبيحة شوهاء!

لقد كان يعيش قبل أن يعرف ليلي كما كان يعيش سائر أبناء آدم، وكانت حياته كاملة سعيدة من غير ليلي، فاشتبه يوماً أن يدنو من امرأة كما يشتهي كل رجل، فقادته المصادفة إلى ليلي، فأرادها... فلم يصل إليها فُجُنَّ... ولو كان عاقلاً لرأى في كل امرأة في الدنيا غناء عن ليلي... إن مثله مثل رجل أراد أن يدخل بيتاً له مئة باب، فطرق باباً منها وعالجه، فلم يفتح له، فوقف يبكي ويتحب، شوقاً إلى الدخول، ويضرب الجدار برأسه، والأبواب التسعة والتسعون مفتحة أمامه!

وإن لكل رجل (ليلي):

كل يغني على ليله متخذاً ليلي من الناس أوليلي من الخشب

فإن فاتته ليلي الناس أجزأت عنها ليلي الخشب، فما بال قيس؟ أو لم يخلق الله في النساء جميلةً إلا ليله؟ أوليست المصادفة هي التي ألقته بين يديه، ولو كان رأى سعدى أو سلمى، لكان مجنون سلمى أو سعدى؟

* * *

وهذا مجنون آخر هو ستيفن مجنون ماجدولين:

ولقد عرفته منذ نقله إلى الشرق إمام الكاثين المنفلوطي رحمة الله على روحه، ثم رأيت وجهه الفرنسي الأصيل في يوم كنت فيه أنا أيضاً مجنوناً يفكر بأعصابه لا بدماغه، ويرى الدنيا كلها خلوة من خلوات الحب، والحياة قصة من قصص الغرام، والوجود كله وجه فتاة فتانة... وقاتل الله الصبا وحقائق الصبا... عرفته يومئذ فرأيت (بجنوني) بطلاً من أبطال الحب، وشهيداً من شهداء العاطفة، ولكنني عدت إليه اليوم، وقد عقلت، أوكدت، فإذا هو... أعوذ بالله!

يقول المجانين: إن الحب يظهر النفوس ويزكيها، ويوسع آفاقها وينميها، ويسمو بها ويعليها، فتعالوا اسمعوا حديث هذا المحب الفرنسي ماذا صنع به الغرام:

هجر أباه وتبرأ منه، وأنكر حق أبوته... ثم ذهب أخوه إلى المعركة وخاف أن يسقط عن سرجه، فبعث إليه يسأله ثمن سرج جديد، فلم يرد عليه، لأنه يحتاج إلى المال لينفقه فيها هو أهم، يريد أن يستأجر به مقعداً في المرقص يرى منه وجه ليلاه، أي ماجدولينته، فسقط أخوه من سرجه، ومات في المعركة... ثم فارق أباه وبقي في العراء، فأحسن إليه واحد من أقربائه، وأعطاه ما ينبغي من المال، فكانت مكافأته إياه على إحسانه أن سرق ماله، ودفع خنجرأ في صدره، فعمل موته...

فعل ذلك كله من أجل امرأة، أضاع كل شيء ليجدها، ولكنها أعرضت عنه، ومالت إلى غيره... إلى صديقه الذي قاسمه خبزه، وشاركه فراشه، صديقه الذي سلبه سريره من تحته، فباعه لينفق ثمنه على مآربه وهواه، وهذا المجنون المغفل لا يحس ولا يدري، لأن الحب أعماه وأصمه. وهل رأيت محباً له بصراً؟ أعرضت عنه، ولها الحق في الإعراض... هل تتزوج مجنوناً؟ إن الزواج إذا بني على هذا الجنون الذي يسميه أصحابه «حبا» صار البيت من بعده مستشفى مجاذيب، ومارستاناً من المارستانات!!

تزوجت بغيره، فذهب ينتزعها من زوجها الشرعي، ويرى أنه أحق بها، لأن اسمه واسمها منقوشان على شجرة زيزفون...

ما شاء الله كان! إنك تستطيع أن تأخذ المرأة من بين ذراعي زوجها، لأنك حفرت اسمها مع اسمك على شجرة! اسمعوا يا عقلاء (وأين العقلاء) شريعة المجانين... اسمعوا منطق الحب!

هذا هو الحب الفرنسي: تفريط بحق الأسرة، واستهانة بواجبات الشرف والدين، واستئثار قاتل يحو من الحياة أسمى فضائلها، لهذه اللذة التي ينالها، ويفقر النفس العامة بالإيمان والفضيلة والمجد، ولا يبقى فيها إلا صورة

الحبيب، يراه العاشق في الأفق إذا نظر إليه والشمس واقفة للوداع، وفي السماء إذا تأمل فيها ونجومها تتوقد في هدأة الليل، وفي صفحة الماء وفي الروض البهيج، وفي كل كتاب يقرؤه، ومشهد يراه:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل

فيا رحمتا هؤلاء المجانين! إنهم عُمي لا يبصرون من الدنيا إلا وجه امرأة واحدة... صُم لا يسمعون إلا صوتها... بُله لا يشتغلون إلا بها... مجرمون لا يبالون بكل رذيلة إذا أوصلتهم إليها... أذلاء لأنهم فقدوا الرجولة والكرامة، وغدا المثل الأعلى لهم أن يطيعوا هذه الرعناء الطائشة... لأن لها عيناً بلون السماء وزرقة البحر...

هذا هو الحب يا أيها الشباب الصغار!

* * *

كل عاشق هو (ستيفن)، ولوتنات الديار، وتباعدت الأزمان، فافقروا سيرة ستيفن تقرأوا سيرة كل عاشق...

لقد ارتضى أن يخسر كل شيء ليربح ماجدولين، فلما خسرهما لم يبق له شيء... لقد غدا مجنوناً... وهل يمكن أن يكون محب عاقلاً؟ ها هوذا يحرق الورقة المالية التي لا يملك غيرها... ليقرأ على ضيائها رسالة الشيطانة... أعني الحبيبة، ويبقى من بعدها طاوياً يتضور جوعاً، لا يدري أن أحلام الحب وحاقاته لا تملأ المعدة الفارغة، وأن الرغبة الواحد أثنى عند الجائع من كل ما في الأرض من لُيَلَيَات وماجدولينات... لقد غدا تائهاً يدور في السبل والطرق وينام حيث يدركه المنام... لقد صيره الحب موجوداً كالمعدوم... صار عضواً من الأمة أشل لا ينفع ولا يضر، بل إنه يضر ولا ينفع!!

لقد سدّ في وجهه طرق المجد، وحجب عن باصريه نور الشمس، فلم يبق فيه فائدة لنفسه ولا للناس، بل لقد صار هُزأة وغدا مَسْحَرَة... وكذلك يكون العاشقون!

وينال هذا المجنون خمسة عشر ألفاً يستطيع أن يصنع بها الجلائل، ويرفع بها لنفسه ولأمته مجداً... فماذا صنع بها؟ دفعها إلى عابر سبيل لا يعرفه... فما أكرم هؤلاء العشاق الذين يمنحون ثروتهم كلها إلى من لا يعرفون، ويضنّ الواحد منهم على أخيه بثمان سرج لفرسه، ويتركه يموت في المعركة...!

ثم يأتيه المال الوفير، فينفقه في أتفه الأمور وأحط الرذائل، يستأجر مقاصير المسرح كلها، ويرى الرواية وحده... لماذا؟ ليغيط المرأة التي أحبها فتزوجت بغيره، لأنها تريد أن يكون زوجها رجلاً مثل الرجال، لا امرأة لها شاربان ولحية ولا عقل لها، ثم يترقى ستيفن في فضائل الحب، فينتهي إلى الغصب والنهب من حانة... ويعلن جنونه ليهدم به الحياة البشرية، فيزعم أن الحب أقدم الواجبات، والزواج شر الرذائل، ثم تختتم هذه الحياة النبيلة... السامية... بجريمة القتل!

هذا هو مجنون ماجدولين، وذاك مجنون ليلي... أما سائر المجانين، فهم بقية العاشقين!

* * *

فإذا كان في الدنيا جنون عبقرية، وجنون مارستان، فإن جنون الهوى هو جنون الإجرام، لا سيما إذا كان هوى على الطريقة الفرنسية...
فيا أيها الشباب الصغار! إذا لم يكن بدّ من الجنون، فلنجنّ بالمعالي والمكارم والعلم والفن، أولنسكن المارستان...

أما المرأة، فصدقوني إذا قلت لكم: إنها لا تستحق أن يُجنّ بها أحد!
ورجائي من القراء، ألا يخبروا بهذا أحداً من النساء!!

* * *

نشرت في مستهل عام ١٩٣٧

نظرت من النافذة فإذا كل شيء أراه نائم، هذه النخلة التي تقوم حيال
شباكي، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال، ودجلة التي
تجري صامتة مهيبة، والقمر الذي يغسل ماءها بشعاعه ..

وإذا على الطريق شيخ يسير منهوكاً!

* * *

على الطريق الذي يمتد في سهل ولا وعر، ولا يسير على سفح جبل،
ولا شاطئ بحر، ولا يسلك الصحراء، ولا يخترق البساتين... ولكنه يلف
السهل والوعر، والجبل والبحر، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه، ومن
يكون فيها...

على الطريق الطويل الذي يلوح كخط أبيض، يغيب أوله في ظلام
الأزل، ويختفي آخره في ضباب الأبد...

رأيت شبحاً يسير على... طريق «الزمان»!

* * *

وسمعت صائحاً بالدنيا النائمة: تيقظي إن العام يرحل الآن!
ففتحت النخلة عينيها ونظرت، فلما رآته قالت: قد رأيت عشرات مثله
تأتي وتذهب، فلم تبدل شيئاً... الفأس لا تزال باقية، وهذا الوحش البشري

لا يزال ينتظر ثمرى ليسلبنيه، ثم إذا قنط منى كافأني بلذع النار... فما لي وللعام الراحل؟

وأغمضت عينيها فنامت، ولم تكثرث!

ونظرت القبة، فلما أبصرته قالت: قد رأيت مئآت مثله نجىء وتروح ولم تبدل شيئاً فهذا النخيل قائم حولي كما كان، والشمس تطلع على كل يوم وتغيب، والنجوم تسطع فوقى كل ليلة، والأرض تنتظرني، تريد أن أهرم فتجذب أحجارى إليها وتأكلنى... وكل شيء على حاله، لم يتبدل إلا الإنسان: كان الخليفة يمشى تحتى، ويخطر بين أساطينى فى حلل المجد وأردية الجلال، إن أمر أطاعت الدنيا وإن نادى لبسى الدهر، وإن مال مالت الأرض، وكان الناس يطيفون بى أجلة أمجاداً، عباداً أذلاء لله، وملوكاً أعزة على الناس... فأصبحت وحيدة بعزلة، لا أرى إلا هذه الفئآت من العامة المساكين الذين تعرفوا من كل جاه إلا جاه العبادة، ومجد إلا مجد الآخرة... فما لى وللعام الراحل؟ وأغمضت عينيها، وعادت تحلم، ولم تكثرث!

وتنبهت دجلة ونظرت، فلما رآته قالت: قد رأيت الوفأ مثله تمر فى هذا الطريق فلم تعمل فى الكون شيئاً ولم تغبر إلا الإنسان، كانت تقوم على شاطئى القصور الفخمة، تتوج هامها العظمة، ويحل أرجاءها الجلال، ويمثل فى أبهائها المجد، ويقف على بابها التاريخ، يصدر عنها ويكتب حديثها، وتنشق منها أشعة الحضارة والفن، وتسطع منها أنوار العلم والأدب، وتومض فى شرفاتها وأروقها العمائم التى كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم... فلم يبق من هذا كله إلا أطلال، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها ويغطوا عليها بقبة... ولكن ذلك لن يدوم، إن طريق الزمن لا يزال مسلوكة... ثم صمتت وعادت تجرى كما كانت تجرى ولم تكثرث!

وأنصت القمر وأطلَّ ينظر، فلما رأى العام الراحل قال: لقد رأيت ملايين مثله وقد مللت مرَّ السنين وكر العصور، فما لى وله؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكثرث!

وبقيت وحدي!

* * *

بقيت وحيداً... فنظرت في نفسي:

لقد صحبت تسعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان... فهل اقتربت من آمالي؟ هل دنوت من الغاية التي أسعى إليها في سفري؟

ثم سألت نفسي: ما هي الغاية التي تسعين إليها؟ أتسيرين إلى غير ما نهاية؟ كلما مرَّ عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك إلى وادي الموت؟ ألا تعلمين أين المسير؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال، فاضطربت اضطراباً شديداً، وكثرت فيها الآراء، واشتد بين أعضائها الخلاف، ثم انشقت انشقاقاً، وانقسمت أحزاباً، وانتشرت نفوساً.

* * *

قالت النفس الأولى: الغاية يا صاحبي واضحة، إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذي نحمله، نحيا لسد حاجاته، وإجابة رغباته، وإمتاعه بملذاته.

قالت الثانية: خست أيتها «النفس الفاجرة» إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبي، إن الجسم ليس منا.

قالت الأولى: أفهو إذن من غيرنا؟ وقهقهت ضاحكة!

قالت: اسخري من نفسك، إنه لو كان منا، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده، إنه ثوب نلبسه ونخلعه، أفيكون الثوب جزءاً من اللابس؟

قالت الأولى: إنني لم أفهم فلسفتك، أترعمين أن يدي ورجلي ليستا مني؟

قالت: نعم، إن المرء لو قطعت يده أو رجله، أو ذهب سمعه أو بصره، فلن تنقص نفسه شيئاً بل لقد يكون الأعمى الأصم أكمل نفساً وأقوى عقلاً وأسمى روحاً، من السميع البصير، وإنك لتعلمين هذا ولكنك «نفس سوء» تريدن الاستمتاع بشهواتك، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات!

قالت الأولى: فلم إذن نحيا يا أيتها «النفس المفكرة»؟

قالت: نحيا لنكشف خبايا الوجود، لنستطلع طلع الكائنات، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة... من أجل هذا نحيا.

* * *

فانبرت لها نفسي الثالثة... فقالت:

— كنت أظنك عاقلة تفهمين، وتعرفين، فإذا أنت جاهلة. ويحك! ما نحن والوجود؟ مالنا وللطبيعة؟ وماذا يعيننا أكانت المجرة نهراً في السماء، أم كانت مجموعة من الكواكب وماذا ينفعنا أن يكون في المريخ ناس، أو يكون مقفراً لا ناس فيه وما لنا ولهذا الفضول؟

قالت الثانية: إنك «نفس شاعرة» تنكرين قيمة العلم.

قالت: إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء! إنك كنت ترين في الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف، فلما علمت أنه حادث طبيعي: كوكب يقوم بحذاء كوكب، ضاع معناه، وانتفت أسرارته، ولم يعد يثير فيك عاطفة أو يهيج فيك حساً.

قالت الثانية: وما قيمة العاطفة؟ أتريدن أن ندع العلم من أجل العاطفة؟

قالت الثالثة: بل لا، تعلّمي، ولكن تعلّمي ما تحتاجين إليه؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة، ولكن الشعور غذاء لا، يستغنى عنه، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ونتذوقه في الطبيعة وفي الإنسان وفي الفن... من أجل هذا نحيا.

* * *

فوثبت النفس الرابعة «النفس المؤمنة المطمئنة» فقالت: يا للسخف!

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت: أي سخف ترين من فضلك؟ إذا كنا لا نرى الجمال فلم نحيا؟

قالت الرابعة متهمكة: كأنك تحين الآن! إنك يا سيدتي سجينه فاسعي
لتخلصي من قيود السجن، ثم انطلق في فضاء الحرية، فعيشي في الحياة
الأخرى: حياة الانطلاق.

ورأيت أن المناقشة قد طالت وغدت مملة، وتشعبت فيها الآراء فأسكتهن
ورجعت أفكر وحدي.

* * *

قلت: إنني لا أدري لماذا أحياء! ولا أعرف ما هي صليتي بالكون!

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب، وأشرف عليها من نافذة المدرسة،
فأراها صغيرة كقبضة الكف. فحسبت أني إذا خرجت من المدرسة وحزت
الشهادة قبضت عليها بيدي.

وعشت بهذا الأمل، لم أعرف حقيقة الحياة، ولم أعد لها العدة، ولم أجد
من يخبرني خبرها إلا هؤلاء الأساتذة. وهم قوم مخادعون، لا يبصرون التلميذ
بالدنيا كما هي في ذاتها، بل كما يريدون هم أن تكون...

وخرجت من المدرسة وهبطت من سماء الخيال إلى أرض الحقيقة، فإذا
الطريق مزروع بالشوك، فانطلقت أمشي وأجاهد بهمة الشاب القوي الطموح،
فما قطعت من الطريق إلا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفليات البشرية) تتعلق
بكتفي وتستمسك بي، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه
وثبت فسبقتني إليه، فسرت أجاهد وأتقدم، أؤم منزلاً آخر، حتى هدني التعب
ونال مني النصب ولم أصل إلى شيء.

ولاح لي فجأة قصر عظيم على الطريق، تلمع قبابه المغشاة بالذهب،
وتشرق جدرانها المغطاة بالفضة، وتضيء نقوشه وزخارفه في شعاع الشمس،
ويقرأ على بابه بأحرف من النور، «هذا قصر اليأس» فراعني مظهره، وهممت أن
أحيد عن الطريق فأدخله ولكنني نظرت إليه أولاً، فإذا هو موحش مظلم في
وسطه قبر مفتوح مملوء بالأسود والأفاعي... وإذا هو خال من البشر، ليس فيه

إلا جماعة الشعراء البائسين، يعدُّون قصائدهم لتدفن معهم في هذا القبر الأسود فلا يدري بها أحد.

فوليت هارباً، وآثرت العودة إلى مقارعة الشوك، وجهاد الحياة. عدت فقارعت وجاهدت، فلم أصل إلى شيء... فسألت نفسي: هل أياس؟

* * *

سألتها وحدثتها، ولكنني جهرت بالحديث فأيقظت النائمين...

أطلت عليَّ النخلة فقالت: إلام تجاهد وتناضل؟ ماذا تريد أيها الرجل؟ ألا تقنع مثلي بأن تقف في مكانك حتى يأتيك الموت؟

قلت: لا، إن لي غاية واحدة، هي أن أبقى دائماً أجاهد وأناضل!

فضحكت وقهقهت أوراقها وعادت إلى منامها.

ومدَّت القبة رأسها فقالت: ألا تنام مثلي أيها الفتى وتحلم؟ لماذا تعدو في طريق القبر؟ قلت: إني أحب أن أصل إلى القبر لأنني سأخرج منه إلى الفضاء الواسع، سأخلع فيه ثوبي الجثماني ثم أنطلق صعداً.

فذهبت وهي تحدث نفسها: ينطلق صعداً؟ أنا هنا منذ ألف ومائة سنة ولم أنطلق صعداً، ثم رجعت إلى النوم.

وقالت دجلة وقد صفَّق لي ماؤها سروراً:

امض أيها الغلام امض؛ إن طريقك طويل ولكنك قوي، إنك لا تمشي إلى القبر لتفنى ولكن تدخل من باب القبر إلى عالم الخلود، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف سنة ولكنك قد ولدت بعقلك قبلي، وستعيش بروحك من بعد أن تموت الجبال، وتغرق البحار، ويختنق الهواء... وتدفن الصحراء!

وأمن القمر على كلامها، وأطلَّ عليَّ من النافذة فصافحني بشعاعه وقال:

لقد صدقت! إنك تعيش الآن لتعدَّ العدة للحياة... حين تنطلق من قيود الجسم.

ثم صمت... وصمت!

* * *

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة... فصحت به:

أنا الذي يهتم بك أيها العام... أنا الذي يودعك ويستقبل غيرك،
لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر... تلك للفناء وأنا للبقاء... تلك
تنتظر الموت وأنا أنتظر الحياة... أنا أمشي على هام السنين إلى الحياة الأخرى!

* * *

نشرت سنة ١٩٤٦

كلفتني محطة الشرق الأدنى أن أكتب قصة لتذاع عني أول يوم من عيد الأضحى، وهذا هو العيد قد حلَّ حلَّت عليكم فيه البركات والخيرات، ولكن القصة لم تكتب... إن لها قصة يا سادة فاسمعوا قصتها...

* * *

أنا رجلٌ من طبعه التأجيل والتسويق، أؤخر الأمر مادام في الأجل فسحة أرجئه إلى آخر لحظة منه، ثم أقوم كالمجنون أنطاً^(١) قافزاً مثل الأرنب الذي زعم (أخونا...) لافونتين أنه نام حتى سبقتة السلحفاة، وإن لم أكن قد رأيت في عمري سلحفاة تسبق أرنباً...

فلما ورد عليّ كتاب المحطة نظرت فإذا بيبي وبين موعد الاذاعة أمد طويل فاطمأننت وغمّت، حتى إذا كانت ليلة العيد، ولم يبق أمامي إلا ساعات معدودة أكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوي، أخذت قلمي وصحيفتي لأكتب فسدت عليّ أبواب القول ومنافذه وكواه... وعدت مرتجاً عليّ محبوساً لساني كأني ما مارست الكتابة قط، وكذلك نفس الأديب يا سادة تتفتح تفتح الينبوع الدفاق، ثم تشعُّ تشعُّ الصخرة الصماء ما تبض بقطرة ماء، ولكن الناس لا يصدقون ذلك: إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه، ولا يدرون أن هذا الكلام يجيء أحياناً حتى لا يقدر الأديب

(١) نط في الأرض: ذهب. وهي من العامي الفصيح.

على رُده، ويعزب حيناً حتى لا يلقاه، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر، وما عجزت الليلة عيًّا ولا فهاهة، فأنا أكتب في الصحف من عشرين سنة، ولكن الكتابة بالأجرة بيع وشراء، ولكل مبيع ثمن، وأنا أحب أن أنتصف وأنصف الناس من نفسي، لذلك رأيتني كلما سقطت على موضوع وزنته فوجدته لا يساوي الثمن الذي تدفعه لي المحطة فتركته وفتشت عن أعلى، وكلما خطرت لي فكرة طمحت إلى أعلى، حتى كاد يمضي الوقت ولم أصنع شيئاً، ونزل بي ما نزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفيلم وجعلوا له جعلاً ضخماً، فحصر فيه فكره، وحشد له قواه، وفرّ لأجله من داره. ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار.

عند ذلك أيست ولبست ثيابي، وهربت إلى الأسواق.

* * *

جلت في الأسواق، وأسواق دمشق ليلة العيد كأنها المحشر، قد أوقدت فيها المصابيح، وفتحت المخازن، وانتشر الباعة، وتدفق عليها أهل البلد والفلاحون، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات، وكل بائع ينادي برفع صوته، وكل مشتر يصيح، وكل مجتاز يتكلم، والبضائع معروضات من كل مأكول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم، وكل يريد أن يعدّ الليلة عدته للعيد فيشتري فيها طعامه ولباسه...

وكنت أسير في هذا الزحام شارد الذهن، نازح الفكر، أعمل عقلي في هذه القصة... التي وعدت بها المحطة، فأعلنت عنها وبشرت بها، ثم لم أستطع أن أكتبها، حتى وصلت إلى (باب المصل^(١))؛ فإذا أنا بحشد عظيم من الناس قد احتشد حيال دكان، فدفعني الفضول إلى معرفة الخبر، فأقبلت أدفع الناس بكتفي، وأشق طريقي بيديّ كليهما وأطأ أعقاب الناس

(١) حي في أول (ميدان) الحصى في دمشق، كان فيه مصل العيد، لما كان الناس يعرفون السنة فيصلون العيدين فيه لا في المساجد.

وأقدامهم، وأصغي إلى هذا الفيض العجيب من... النثر الفني... الذي
جادت به قرائحهم، فتدفق عليّ من ألسنتهم، حتى بلغت المشهد ونظرت...

* * *

نظرت، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان، أما أحدهما فكان مسكيناً قميئاً
أعزل عاجزاً، وأما الآخر فكان ضخماً طوالاً كالبحر، مفتول العضل،
وسخ الثوب، قد حمل سكيناً في يده طويلة النصل، حديدية الشفرة، وهجم
بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت
تلفت المذعور، يطلب الغوث ولا يغيثه أحد، ويبغى المهرب فيسد عليه الناس
طريق الهرب...

وإني لأفكر ماذا أصنع... وإذا بالخبيث العاتي يذبحه والله أمامنا ذبحاً
ويتركه يتخبط بدمه، ويوليه ظهره ويمضي إلى دكانه متمهلاً، فيعالج فيها شأنه
على عادته، كأنه لم يرتكب جرماً ولم يأت الأمر النكر جهاراً!

وكدت أهجم عليه، وأسلمه إلى الشرط. ثم ذكرت أن الشجاعة في مثل
هذا الموطن تهوّر وحاقة، وأن المجرم بيده السكين. لا يمنعه شيء أن يجأ بها من
يريده بشر، وطمعت أن يتحرك أحد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه وأشد أزره،
فلا والله ما تحرك أحد منهم، ولا جرواً على ذلك؛ بل لقد تكلم واحد منهم،
فلما رفع القاتل رأسه ونظر إليه رأيتُه يجرع منه ويفزع، ويقول له بصوت
مضطرب متلجلج: «الله يسلم يديك»!

وحررت ماذا أعمل: أأبلغ الشرطة، أو أدعهم وأمضي إلى داري لا عليّ
ولا لي؟ ثم رأيت أن خير ما أفعل أن أكتب وصف ما رأيت، وأبعث به ليزاع
ويعرفه الناس.

* * *

وهأنذا أتهم هذا الرجل بالقتل، وأدعو الحكومة إلى القبض عليه حتى
يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر. ولا يحسن أحد أنه فرّ، أو أن القصة متخيلة
أو مكذوبة، أو أنها من أساطير الأولين، أو من أخبار العصور الخوالي، فالقاتل

موجود في دكانه، يغدو إليها ويروح إلى بيته، والقصة صحيحة رأيتها بعيني رأسي وأنا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه، متيقظ غير نائم ولا حالم، صاح غير مخدّر ولا سكران، ثم إني رأيتها الليلة البارحة!

* * *

هذه هي الحادثة الفظيعة التي كتب الله أن تكون هي موضوع قصتي التي فكرت فيها وأطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها؟ أفسدت الأخلاق، وضاعت المروءات حتى لا ننكر الأمر النكر، أم خارت العزائم، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم؟ وهل نامت الحكومة في الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدري بالدم يسيل في شارع من أكبر شوارع دمشق؟

لقد سكنت الجميع، حتى أن أنسباء القتيل قد ناموا عن دمه، وقعدوا عن الثأر له، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم، وماضيه حافل بمثل هذه الجرائم.

فما سر هذا السكوت؟

لقد علمت السرّ بعدُ يا سادة . . .

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية، وأن القاتل كان جزّار الحارة، وأن الناس شاركوه في جرمه، فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً وأكلت معهم، ونسيت من طيب اللحم هذا المشهد.

هذه هي سنة الحياة، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة. فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً، واشربوا مريئاً، واشتغلوا بالأكل عن مطالبي بالقصة. وكل عام وأنتم بخير!

* * *

نشرت سنة ١٩٣٥

صحبنا في رحلتنا إلى الحجاز، دليل شيخ من أعراب نجد يقال له صلبى ما رأيت أعرابياً مثله قوة جنان، وفصاحة لسان، وشدة بيان ولولا مكان النبرة البدوية من لسانه لحسبته قد انصرف الساعة من سوق عكاظ، لبيان لهجته، وقوة عارضته، وكثرة ما يدور على لسانه من فصيح الكلام. وكان أبى النفس، أشم المعطس، كريم الطباع، لكن فيه لوثة وجفاء من جفاء الأعراب، رافقنا أياماً طويلة، فما شئنا خلة من خلال الخير إلا وجدناها فيه، فكان يواسينا إذا أصبنا، ويؤثرنا إذا أضقنا، ويدفع عنا إذا هوجنا، ويفدينا إذا تألمنا، على شجاعة نادرة، ونكتة حاضرة، وخفة روح، وسرعة جواب، قلنا له مرة:

— إن (صلبة) في عرب اليوم، كباهلة في عرب الأمس، قبيلة لثيمة يأنف الكرام من الانتساب إليها، وأنت فيما علمنا سيد كريم من سادة كرام، وليس لك في هذه القبيلة نسب؟ فما لك تدعى صلبى. فضحك وقال:

— صدقتم والله، ما أنا من صلبة، ولا صلبة مني، وإني لكريم العم والخال ولكن لهذا الاسم نكتة أنا مخبركم بها.

قلنا: هات. قال:

— كان أبواي لا يعيش لهما ولد، فلما ولدت خشيا على الموت فسمياني صلبى. قلنا: اثن سميائك صلبى عشت؟ قال:

إن عزرائيل أكرم من أن يقبض روح صلبى.

وسألناه مرة: هل أنت متزوج يا صُلبى؟ قال:

— لقد كنت متزوجاً بشراً امرأة تزوجها رجل، فما زلت أحسن إليها ونسيء إليّ، حتى ضقت باحتمالها ذرعاً فطلقتها ثلاثاً وثلاثين.

قلنا: إنها تبين منك بثلاث، فعلام الثلاثون؟

فقال على الفور: صدقة مني على الأزواج المساكين!

وطال بنا الطريق إلى تبوك، وملّ القوم، فجعلوا يسألونه عن تبوك، ويكثرون عليه، يتذمرون من بعدها، حتى إذا كثروا قال لهم:

ما لكم تلمونني على بعدها؟ والله لم أكن أنا الذي وضعها هناك. ولم يكن صُلبى يعرف المدن، ولم يفارق الصحراء قط إلا إلى حاضرتة تبوك (وتبوك لا تزيد عن خمسين بيتاً...) فلما بلغنا مشارف الشام أغربناه بالإبلاد^(١) ودخول المدينة، وجعلنا نصف له الشام، ونشوّقه فيتأبى، وكنت صفيه من القوم وخليله ونجيه فجعلت أحاوله وأداوره، وبذلت في ذلك الجهد فلم أصنع معه شيئاً لما استقر في نفسه من كراهية المدن وإساءة الظن بأهلها، وكان عربياً حراً، ومسلماً موحداً، لا يطيق أن يعيش يوماً تحت حكم «الروم» أو يرى مرة مظاهر الشرك...

فودعناه وتركناه...

* * *

وعدت إلى دمشق، فانغمست في الحياة، وغصت في حماتها أكذ للعيش، وأسعى للكسب، فنسيت صُلبى وصُحبته، وكدت أنسى الصحراء وأيامها، ومرّت على ذلك شهور... وكان أمس فإذا بي ألح في باب الجابية وسط الزحمة الهائلة، وجهاً أعرفه فلحقته به أتبيّنه فإذا هو وجه صُلبى، فصحت به:

— صُلبى! قال: — لا صُلبى ولا مُلبى.

(١) أبعد دخل البلد، كأنجد وأبحر وأصحر، ومثلها أصبح وأمسى وأظهر.

قلت: ولم يحك؟ قال: أنا في طلبك منذ ثلاث ثم لا تأتي إلي ولا تلقاني؟
فقلت له ضاحكاً: - وأي ثلاث وأي أربع؟ أتحبها تبوك فيها أربعمئة
نسمة؟ إنها دمشق يا صلبّي، فيها أربعمئة ألف إنسان، فأين تلقاني بين
أربعمئة ألف؟

قال: - صدقت والله.

قلت: هلم معي. فاستخرجته من هذه الزحمة الهائلة، وملت به إلى قهوة
خالية، فجلسنا فيها ودعوت له بالقهوة المرة والشاهي، فسرّ، وانطلق يحدثني
قال:

- لما فارقتكم ورجعت وحيداً، أسير بجملتي في هذه البادية الواسعة،
جعلت نفسي تحدثني أن لو أجبت القوم ورأيت المدينة... فلما كان رمضان مرّ
بنا بعض الحضريين فدعوني إلى صحبتهم لأرشدكم الطريق، ثم أغروني كما
أغريتموني، وحاوروني كما حاورتموني حتى غلبوني على أمري ودخلوا بي
دمشق، فما راعني والله يا ابن أخي إلا سيارة كبيرة كسيارتكم هذه، لكنها أهول
وأضخم، لها نوافذ وفيها غرف، وقد خطوا لها خطين من حديد فهي تمشي
عليها، فأدخلوني إليها، فخشيت والله وأبيت، فأقسموا لي وطمانوني، فدخلت
ويدي على خنجري إن رأيت من أحد ما أكره وجأته به، وعيني على النافذة إن
رأيت من السيارة أمر ففزت إلى الطريق، وجلست، فما راعنا إلا رجل بثياب عجيبة قد
انشق إزاره شقاً منكراً، ثم التف على فخذه فبدا كأنما هو بسراويل من غير
إزار، وعمد إلى رداءه فصف في صدره مرايا صغيرة من النحاس، مارأيت
أعجب منها، فعلمت أنه مجنون وخفت أن يؤذينا، فوضعت كفي على قبضة
الخنجر، فابتسم صاحبي وقال: هو الجابي. قلت: جابي ماذا، جبّ الله
(...)

قال: اسكت، إنه جابي (الترام) أعني هذه السيارة.

ثم مَدَّ يده إليه بقرشين اثنين، أعطاه بهما فتاة ورق، فما رأيت والله صفقة
أخسر منها، وعجبت من بلاهة هذا الرجل إذ يشتري بقرشين ورقتين لا تنفعان

وجلس لا أنيس، فلم تكن إلا هُنيّة حتى جاء رجل كالأول له هيئة فزّدية إلا أنه أجمل ثياباً، وأحسن بزة، فأخذ هذه الأوراق فمزقها، فنارت نائرتي، قلت: هذا والله الذل، فقبح الله من يقيم على الذل والخسيفة، وقمت إليه فلبّيته وقلت له:

— يا ابن الصانعة، أتعمد إلى شيء اشتريناه بأموالنا، ودفعنا فيه قروشنا فتمزّقه، لأمزّقن عمرك.

وحسبت صاحبي سيدركه من الغضب لكرامته، والدفاع عن حقه مثل ما أدركني فإذا هو يضحك، ويضحك الناس ويعجبون من فعلي، لأن عمل هذا الرجل — فيما زعموا — تمزيق أوراق الناس التي اشتروها بأموالهم...

ولما نزلنا من هذه الآفة، قال لي صاحبي: هلمّ إلى الحمام. قلت: وما الحمام يا ابن أخي؟

قال: تغتسل وتلقي عنك وعشاء السفر.

قلت: إن كان هذا هو الحمام، فما لي فيه من مأرب، حسبي هذا النهر أغطس فيه فأغتسل وأتنظف.

قال: هيهات... إن الحمام لا يعدله شيء، أو ما سمعت أن الحمام نعيم الدنيا؟

قلت: لا والله ما سمعت. قال: إذن فاسمع ورّة.

وأخذني فأدخلني داراً قوراء في وسطها بركة عليها نوافير يتدفق منها الماء، فيذهب صعوداً كأنه عمود من البلور ثم يتثنى ويتكسر ويهبط كأنه الألباس، له بريق يخطف الأبصار، صنعة ما حسبت أن يكون مثلها إلا في الجنان، وعلى أطراف الدار دكك كثيرة، مفروشة بالأسرة والمتكات والزرابيّ كأنها خباء الأمير، فلم نكد نتوسطها حتى وثب إلينا أهلها وثبة رجل واحد، يصيحون علينا صياحاً غريباً، فأدركت أنها مكيدة مدبرة، وأنهم يريدون اغتيالاً، فانتضيت خنجري وقلت: والله لا يدنو مني أحد إلا قطعت رقبته، فأحجموا

وعجبوا ورعبوا، وغضب صاحبي وظنني أمزح، ومال عليّ يعاتبني عتاباً شديداً. فقلت له: ويحك أو ما تراهم قد أحاطوا بنا؟ قال:

إنهم يرحبون بنا ويسلمون علينا. فسكت ودخلت. وعادوا إلى حركتهم يضحكون من هذا المزاح، ويدورون حولنا بقباقيبهم العالية، ويجيئون ويذهبون، وأنا لا أدري ما هم صانعون حتى قادونا إلى دكة من هذه الدكك، وجاءوا ينزعون ثيابنا فتحققت أنها المكيدة، وأنهم سيسلبونني خنجري حتى يهون عليهم قتلي، فقد عجزوا أن يقاتلوني وييدي الخنجر، فأبيت وهمت بالخروج ولكن صاحبي ألح عليّ وأقسم لي، فأجبت واستسلمت وإن روحي لتهرق حزناً على أني ذلت هذا الذل حتى أسلمتهم سلبى يسلبوني وأنا حي. ولو كنت في البداية لأريتهم كيف يكون القتال... حتى إذا تم أمر الله ولم يبق عليّ شيء، قلت: أما من مسلم؟ أما من عربي؟ أتكشف العورات في هذا البلد فلا يغار أحد، ولا يغضب إنسان؟

فهذا صاحبي من ثوري وقال: أفتغتسل وأنت متزّر؟ قلت: فكيف أتكشف بعد هذه الشبهة وتذهب عني في العرب فتكون فضيحتي إلى الأبد؟

قال: من أنباك أنك ستتكشف؟ هلاً انتظرت!

فانتظرت وسكت فإذا غلام من أغلمة الحمام، يأخذ بيده إزاراً فيحجبني به حتى أنزع أزراري وأتزرّ به، فحمدت الله على النجاة، وكان صاحبي قد تعرّى فأخذ بيدي وأدخلني إلى باطن الحمام، فإذا غرف وسطها غرف، وساحات تفضي إلى ساحات، ومداخل ومخارج ملتفة ملتوية، يضلّ فيها الحريّة وهي مظلمة كأنها قبر قد انعقدت فوقها قباب وعقود، فيها قوارير من زجاج تضيء كأنها النجوم اللوامع، في السماء الداجية، وفي باطن الحمام أناس عري جالسون إلى قدور من الصخر فيها ماء، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت هذه والله دار الشياطين وجعلت الشمس آية الكرسي فلا أذكر منها شيئاً، فأيقنت أنها ستركبني الشياطين لما نسيت من آية الكرسي، وجعلت أبكي على شيعتي أن يختم لها هذه الخاتمة السيئة، وإني لكذلك، وإذا بالخبيث يعود إليّ يريد أن ينزع هذا الإزار الذي كسانيه، فصحت به: يا رجل، اتق

الله، سلبتني ثيابي وسلاحي، وعدت تجردني وتعريني، الرحمة يا مسلمون، الشفقة أيها الناس! فوثب إليّ الناس، وأحدقوا بي، وجعلوا يضحكون، فقال صاحبي:

— ما هذا يا ضلبي، لا تُضحك الناس علينا، اعطه الإزار. قلت: وأبقى عرياناً؟ قال: لا، ستأخذ غيره، هذا كساء يفسد إذا مسّه الماء، وإن للماء كساء آخر.

ونظرت فإذا عليه هيئة الناصح، وإذا هو يدفع إليّ إزاراً آخر، فاستبدلته به مكرهاً وتبعت صاحبي إلى مقصورة من هذه المقاصير، فجلسنا إلى قدر من هذه القدور... وأنا أستجير بالله لا أدري ماذا يجري عليّ، فبينما أنا كذلك وإذا برجل عار، كأنه قفص عظام، له لحية كثة، وشكل مخيف وقد تأبط ليفاً غليظاً يا شرّ ما تأبط، وحمل ماعوناً كبيراً، يفور فوراناً، فاسترجعت وعلمت أنه السمّ وأنه سيتناثر منه لحمي، فقصص إليّ، فجعلت أفرّ منه وأتوثب من جانب إلى جانب وهو يلحقني ويعجب من فعلي، ويظن أنني أداعبه، وصاحبي يضحك ويقسم لي أنه الصابون، وأنه لا ينظف شيء مثله.

قلت: ألا شيء من سدر! ألا قليل من أشنان؟

قال: والله ما أغشك، فجرب هذا إنه خير منه.

فاستجيت واستكنت، وأقبل الرجل يدلكني ذلكاً شديداً وأنا أنظر هل تساقط لحمي، هل تنثر جلدي، فلا أجد إلا خيراً فأزمت شكره لولا أنني وجدته يتغفلني فيمد يده من تحت الإزار إلى فخذي، فيدلكه ويقرصه، فقلت هذا ما جن خبيث، ولوترك من شره أحد لتركني، ولصرفته عني شيبتي، وهممت بهشم أنفه وهشم أسنانه، ولحظ ذلك صاحبي فهمس في أذني أنه ينظفك وكذلك يصنع مع الناس كلهم، فلما انتهى وصب عليّ الماء، شعرت والله كأنما نشطت من عقال، وأحسست الزهو والخفة، فصحت فأنكرت صوتي فقلت: ما هذا، أينطق على لساني مغني من الجن؟ وأعدت الصيحة فازددت لصوتي إنكاراً. واستخفني الطرب، فجعلت أغني وأحدو، فقال صاحبي: لعلك استطبت صوتك؟

قلت: إي والله. قال: أفأدلك على باب القاضي؟

قلت: وما أصنع في باب القاضي؟ قال: ألا تعرف قصة جحا؟

قلت: لا والله، ما أعرف جحا ولا قصته.

قال: كان جحا عالماً نحريراً، وأستاذاً كبيراً، لكن كان فيه فضائل نادرة، وكان خفيف الروح، فدخل الحمام مرة فغنى فأعجبه صوته - وكان أقبح رجل صوتاً - وراقه حسنه، فخرج من فوره إلى القاضي، فسأله أن ينصبه مؤذناً وزعم أن له صوتاً لا يدخل أذنًا إلا حمل صاحبها حملاً فوضعه في المسجد... فقال القاضي: اصعد المنارة فأذنْ نسمع.

فلما صعد فأذن، لم يبق في المسجد رجل إلا فرَّ هارباً. فقال له القاضي: أي صوت هذا، هذا هو الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب:

قال: أصلح الله القاضي، ما يمنعك أن تبني لي فوق المئذنة حماماً؟!..

* * *

ولمح الأعرابي صديقاً له من أعراب نجد، قد مرَّ من أمام القهوة، فقطع عليَّ الحديث وخرج مهرولاً يلحق به.

* * *

نشرت سنة ١٩٤٠

وطالت غيبة «ضَلَبى»، فنسيته وطرحت همه عن عاتقي، وعدت أدور مع الحياة كما تدور الساقية، مغمض العينين، أطوف في مفحص قطة، فلا غاية أبلغ ولا راحة أجد، أغدو إلى كدّ العقل وعذاب النفس، وجفاف الريق وانقطاع النفس، وأروح، وما بقي في بقية لعمل، ولا طاقة على كتابة، فألقي بنفسي على كرسي أو سرير، أنتظر عذاب اليوم الجديد...

وإني لغادٍ إلى المدرسة ذات يوم، وإذا أنا بأعرابي في شملته يشير إلي... وهو يسير بين تلك المواخير: تريانون وليدو ولوازيس - حائراً يتلفت... فقلت: لعله ضالّ أحب أن يستهديني ووقفت له، فلما دنا وتبينته، لم أملك من الفرح فمي... فصحت في السوق وسط الناس. وما لي لا أصبح وقد وجدت «ضَلَبى» بعد طول الغياب... وحييته وحياني تحية ذاكر للصحبة، حافظ للود، وطفق يتحدثني حديثه...

قال: أتذكر يا شيخ ما ابتلاني به الله من أمر الحمام؟ لقد وقعت في داهية أدهى... ولقد والله كرهت الحضر، وعفت المدن، وأصبحت أخشى فيها على نفسي، فما أدري ماذا سيكون من أمري بعد الذي كان؟..

... قدمت الشام قدمة أخرى، فكان أول ما صنعت أن قصدت صاحبي، وكنت قد عرفت داره في (الميدان)... فأكرمني وأحسن استقبالي، أحسن الله إليه، وذبح لي خروفاً، ولم يكتف بذلك من إكرامي بل أزمع أن

ياخذني إلى سمنة... قلت: ولكني لا أعرف سمنة هذا، ولا أدري من هو، فكيف تأخذني إليه؟ قال: لا بد من ذلك. فاستحييت منه وكرهت أن أخالفه بعد الذي قد صنع في إكرامي... وقلت في نفسي: لولا أن سمنة هذا صديق له، عزيز عليه، ماسار بي إليه. ولقد قال المشايخ من قبيلتنا: صديق صديقك صديقك... فرضيت وقلت له: على اسم الله!

* * *

ولكن الرجل لم يسر بل أدركه لؤم الخضر فصاح بابنه أن هات الجرائد حتى نرى الرواية، فتوجّست خيفة الشر، وقلت: إن الرجل قد جنّ، وإلا فما بال الجرائد؟ وهل تراه يضربني بها؟ إذن والله لأريته عز الرجال ولضربته ضرباً يبلغ مستقر اللؤم في نفسه... وخشيت أن أترث أو أتلوم فأخيب وأفشل وذكرت حكمة حمّذين علوي: «الغلبة لمن بدأ» فشدد ذلك من عزمي وصرخت: «يا هو...» ووثبت وثبة أطبقت بها على عنقه، وقلت: سترى لمن الجرائد والسياط، الابن المدينة الخوار الفرار، أم لابن البر الحر؟

فارتاع وأبيك وجعل يصيح من جبهته: أدركوني، أنقذوني! النجدة، العون، يا فلان (لابنه) أقبل... ويملك يا ضلّبي... يا مجنون، كفّ عني، ويملك ماذا اعتراك؟

فأخذتني به رافة فكففت عنه، وقعدت محاذراً أرقب أهل المنزل، وقد اجتمعوا ينظرون إلي بعيون من يهم بفري جلدني. فقال لي: ما أردت بهذا ويملك؟ وبم أسأت إليك حتى استحققت منك هذا الصنيع؟ قلت: بالجرائد... أمثلي يضرب بالجرائد، لا أم لك؟

فضحك والله وجعل يكركر حتى لقد شبهت بطنه بقربة جوفاء أدخلتها الماء. وضحك كل من كان حاضراً من أهله وبنيه ضحكاً ما شككت معه أن القوم قد أصابهم طائف من الجنّ، فقلت: قبحكم الله من قوم، وقبحني إذ أنزل بمثلكم وهممت بالانصراف. فصاح بي وعزم عليّ إلّا ما رجعت، فبررت بيمينه وقفلت راجعاً فقال لي:

وأنت جسبت الجرائد مما يضرب به؟ ألم تبصر جريدة قط؟ قلت: ويحك فكيف إذن؟ أنا من بلاد النخيل، تبوك حاضرتي، قال: وتحسبها جرائد نخيل؟ قلت: إذن فجرائد ماذا؟ قال: خذ؛ هذه هي الجرائد.

وألقى إلي صحفاً سوداء بها من دقيق الكلم مثل ديبب النمل، فعجبت منها وسألته أن يقرأ علي ما فيها فاستفيد علماً ينفعني في آخرتي، فإن الرجل لا يزال عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. ولقد سمعت أنه جاء في الأثر «كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك».

فضحك وقال: هل تظنها كتب علم؟ قلت: فماذا فيها مما ينفع الناس؟ قال: فيها أخبار البشر، من سافر منهم أو حضر، أو تزوج أو ولد له ولد، فما يصنع أحد من شيء إلا دون فيها، ولا ينبغ من عالم أو أديب أو يقدم مغرر أو تحييء قينة أو تأمر الحكومة أو تنهى إلا ذكر ذلك فيها، حتى إن فيها صفة الخمر والإعلان عن الميسر، وأخبار دور الدعارة، والدعوة إلى الروايات الخلية...

فلما سمعت ذلك طار عقلي وأخذت هذه الجرائد فمزقتها شراً ممزق، وعلمت أن الله مهلك هذه القرية، وعزمت على مفارقتها ونويت ألا أعود إليها بعد الذي سمعت من خبر جرائدها... وما ظننت أن مثل ذلك يكون، ولم يجتزئ صاحبني بما أعلمني من علمها حتى وصف لي أخرى تكون في أيدي الصبيان والبنات فيها صور قوم عراة تبدو عوراتهم، ونساء ما يسترهن من شيء إلا شيء ليس بساتر، قلت: فهل يرضى الحضري بها؟ قال: نعم، فسقط والله من عيني وقلت، هذا القرنان الذي لا تأخذه على أهله غيره، وما كنت أحسب أن رجلاً يؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ذلك.

* * *

ولست مطيلاً عليك الحديث...

... وذهبتا نزور سمة فسرنا حتى بلغنا قصرًا عظيمًا على بابه خلق كثير، وله دهليز تسطع فيه الأضواء، فقلت، هذا قصر أمير البلد، هذا الذي يدعونه

رئيس الجماهير... وألهاني ما رأيت وشغلني ففقدت صاحبي وسط الزحمة... ولكني لم أبال، وأقبلت أصعد الدرج فمعني أغلمة بثياب ضيقة حمر ما رأيت مثلها، وعلى رؤوسهم كُمَمٌ لها رواق من فوق عيونهم كالذي يوضع على عيني بغل العجلة... وأفخاذهم مكشوفة فعل أهل الفسوق والتهتك، فهممت أن آخذ ثلاثة منهم فأكربهم على الدرج فأزحلق مَعْدَهم عن مواضعها، ثم قلت، ترفق يا ضَلْبِي لا تحن، فما أنت في البادية، أنت في قصر الأمير وهؤلاء عماليكه وإنك إن مستتهم لم تجد أمامك إلا ضرب العنق... ووضعت يدي على عنقي انحسها فعلمت أني لا أزال أحتاج إليها.

ولو أنني في السوق أبتاع مثلها وجدك ما باليت أن أتقدما

وسألت الغلمان الكاشفي الأفخاذ ماذا يريدون مني أن أصنع، فأشاروا إلى كوة ازدحم عليها الناس، فعلمت أن الدخول من هناك، وأقبلت أزاحم وأدافع وهم يردوني حتى بلغت الكوة. فإذا هي غرفة ضيقة كأنها القفص وإذا فيها رجل محبوس والناس يتصدقون عليه، فقلت في نفسي: هذا رجل ضرب عماليك الأمير فحبسه هنا لتضرب عنقه في غداة الغد، وحمدت الله على السلامة، وتوجهت بوجهي إلى رجل توسمته أسأله: متى تضرب عنق السجين؟ فنظر إلي ولم يجب، ثم ولاني قفاه وانصرف، فعلمت أن الأمير يمنع الناس من الكلام في هذا، ولولا ذلك لأجابني. ودنوت من كوة السجين فأعطيته قروشاً كانت معي وقلت له: هذه لأولادك من بعدك، لهم الله فلا تحزن، فلم يقبضها حتى عدها فرأها كثيرة فردّ إلي بعضها وقبل بعضاً، فلم أحلف عليه وأخذتها منه وأخذت معها ورقة صفراء أعطانها لم أدر ما هي، ولكني لم أشأ كسر قلبه بردها، ووضعت ذلك كله في كمي وعمدت إلى الكوة لأدخل منها فوجدتها عالية، فوثبت فأصبت بقدمي وجه رجل ممن كان هناك، فما باليته وقلت سأعتذر إليه وقد رأيت أهل المدن يؤذون إيذاء العدو، ثم يعتذرون اعتذار الصديق. وأدخلت رأسي في الكوة، فصاح السجين صياحاً أرعبني والله، شبهته بصراخ كلب ديس على ذنبه، وأجلب الناس، وطفقوا يشدون برجلي وثيابي، وأنا أرفس بقدمي رفساً لا أبالي موقعه من أجساد الناس، والسجين اللئيم الذي

أحسنه إليه يدفع برأسي ويشد بشعري، ولم يكن عضو من أعضائي إلا وهو مشغول، فيداي أتمسك بهما، ورجلاي أذود بهما عن نفسي، ولم أجد ما أدفع به أذاه عني إلا أن بصقت في وجهه، فأقبل بضربني فعضضت يده، ثم دنوت من وجهه فعضضت أنفه... وكان أنفاً ذليلاً لا يزال خبث طعمه على لساني...

ثم أخرجوني قسراً وجبراً، وجاء ممالك السلطان فحجزوا بيني وبينهم، وأخذوا الورقة الصفراء، وأدخلوني من باب كان هناك إلى بهو واسع صح معه ما كنت قدرت من أن سنمة هذا سلطان البلد، ورأيت الناس قد صفوا كراسيهم كصف الصلاة، وإذا بعضهم يولي بعضاً دبره، فقلت: ما ألام أهل المدن، والله ما كنت مولياً مسلماً ظهري إلا في الصلاة. وعمدت إلى الكرسي لأديره فإذا هو مثبت بمسامير من حديد، فتركته واستدرت أنا، فجلست على قفاه، وجعلوا يضحكون مني، فما ألقى لهم بالاً، حتى جاءت امرأة، فجلست قبالي، فقلت: يا أمة الله استتري. فأقبلوا يزبروني، وإذا هي «فيما قالوا» شاب وليس امرأة، فجعلت أعجب...

ولبت أنتظر خروج السلطان فإذا بالممالك يديروني فيجلسوني من حيث يجلس الناس، فلم أملك إلا الطاعة، وقعدت أنتظر فلم أنشب أن جاء مملوك آخر، فقدم إليّ صفحة من خشب قد صف عليها فراي وشطائر^(١) وقال: تريد؟ قلت أريد والله... وهل يأبى الكرامة إلا اللثيم؟ وأقبلت آكل فأجد طعاماً هشاً تحت الأسنان، حلواً في الحلق، خفيفاً على البطن، فقلت: هذه هي البقلاوة التي وصفوها لنا، وجعلت آكل فلا أشبع، وهو يقدم إليّ متعجباً حتى استنفدت ما كان معه، فمسحت شفتي بيدي وقلت: الحمد لله، جزاك الله خيراً.

فظل واقفاً ولم يمض، فقلت: الحمد لله، لقد شبع. قال: يدك على

(١) الفرنجة الكاتو وجمعها فراي. والشطيرة والشطائر الساندوتش.

الفيلسوف؟ قلت: ويحك ماذا تريد؟ قال: أكلت ثلاثين قطعة كل قطعة منها بسبعة قروش فهذه مائتان وعشرة^(١)...

قلت: قبحك الله من عبد لئيم! تأخذ من ضيوف السلطان ثمن القري؟ وكان ما أكلت قد شدّ ظهري فوثبت إليه ووثب إليّ، وقام الناس، وزلزل البهو بأهله، وكادوا والله يطردوني لولا أن ظهر صاحبي فانفرد بالمملوك فأرضاه عني، وجاء فقعد معي.

* * *

وإنا لذلك يا شيخ، وإذا بالأنوار تنطفئ، وإذا بالخليل تهجم علينا مسرعة حتى كادت والله تحالطنا. فقلت: لك الويل يا صلبى، ثكلتك أمك، إنه الغزو فما قعودك؟ وقفزت قفزاتي في البادية، وصرخت وهجمت أدوس على أجساد الناس وهم يضجّون ويصخبون، فلما كدت أبلغ الخيل اشتعلت الأنوار وفرّ العدو من خوف بطشي هارباً، وجاء عبيد السلطان ليخرجوني فردّهم عني صاحبي وكلمهم...

فقلت: هذا والله العجز والذل، فقبح الله من يقيم عليهما. ترون العدو قد خالطكم وتلبثون قعوداً؟ ما أكرهكم إليّ يا أهل المدن، ما ظننت والله إلا أنكم ستحملون إليّ صلة السلطان على أن رددت عدوكم وهزمته...

فضحك اللثام، وجعل صاحبي يحذّرني العودة إلى مثلها؛ ولم ألبث حتى أطفئت الأنوار كربة أخرى؛ ففزعت ونظرت فما أحسست إلا امرأة قد قبض عليها رجل خبيث يحاول أن ينال منها على مرأى منا وسمع؛ وهي تستغيث وأنا أسمع صياحها ولا من مغيث؛ فثارت الحمية في رأسي وسللت الخنجر وأقبلت أريده، فاختمني والله حتى كأن لم يكن هنالك من أحد. وعادت الأضواء، ورجع الصخب؛ فقلت: والله ما أقيم، وجعلت أصيح: أخرجوني ويلكم... أخرجوني...

* * *

(١) أما ثمنها اليوم فسيمئة وخمسون قرشاً.

قال ضَلَبَى: فخرجت وقد علمت أن جرائدكم يا أهل المدن تنشر
الفجور وتهتك ستر الله عن الناس وتفضحهم، وأن شبابكم بنات، وأن أمراءكم
سحرة يسحرون أعين الناس حتى يروهم ما لا يُرى... ثم إنكم لا تغارون على
أعراضكم ولا تبالون كشف عورات أبنائكم وبناتكم. لا والله ما أحبكم...
وذهب مولياً عني مسرعاً يمشي بين تلك المواخير القذرة: تريانون وليدو
وأوليميا... . . . تلقاء سوق الحميدية والأموي حيث المدينة الطاهرة
الفاضلة... . . . حيث دمشق التي سماها شوقي «ظئر الإسلام»!

نشرت سنة ١٩٣٩

أتاني منذ يومين (صَلَبِي)، فقال لي:

هل أنت من المَعْنِيِّين بالشعر والأدب؟

قلت: نعم، فماذا عندك؟

قال: نعمة ساقها الله إليك، إن أنت أضعتها يوشك ألا تلقى مثلها أبَدَ الدهر.

قلت: فاذكر لي ما هي، فإني أرجو ألا أضيعها.

قال: أتعرف (السوالم)؟

قلت: نعم، جمع تكسير...

قال: لا والله ما هم بجمع تكسير، إنهم أكرم من ذاك، هم والله جمع مبارك.

قلت: إنما أردت الكلمة...

قال: كلمة ماذا؟ إنها قبيلة كانت متوارية في رملة من رمال (عالج) لا يدري بها أحد ولم يكشفها إلا حكم الإمام عبد العزيز أطال الله عمره، فعرفها العرب وعرفوا فيها العربية المبرأة من العجمة، والبلاغة التي ما وراءها بلاغة، والنبرة الصافية التي إن سمعتها فإنما سمعت كلام سحبان، أو خالد بن صفوان...

قلت: ولكن ما أبعدك يا رملة عالج!
قال: بل ما أدناك يا شارع الحلبوني، ألا تعرف دار الباشا؟
قلت: القنصلية السعودية؟

قال: بارك الله فيك. إن شيخ السوالم نازل فيها وقد هبط دمشق ليلة أمس، وهو أول (سالمي) يهبطها بعد إذ فارقتها قبيلته.

قلت: متى فارقوها؟

قال: صبيحة الفتنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد، الملك المظلوم الذي عبث خصومه بتاريخه، فقولوه ما لم يقل، ونسبوا إليه ما لم يفعل، وروى هذا العبث مؤرخون هواهم عليه وميلهم مع أعدائه... وأدباء محاضرون لا يبالون ما يروون^(١).

قلت: إنك لتذكر تاريخاً قديماً!

قال: هو ما قلت لك. غير أن الشيخ لا يحب أن يلقي أحداً. وقد حذّروه قوماً يقال لهم أهل الصحف، يفضحون الناس: ينشرون من أسرارهم ما يظنون، ويعلنون من أخبارهم ما يسرون، ليسلّوا بذلك من يشتري منهم هذه الصحف، فاحتلّ للقاءه بحيلة...

ولقيت (الشيخ) فإذا هو فوق ما وصف لنا، وإذا لسان مبين ولغة معربة وحديث كأنك تقرأ في البيان والتبيين أو في عيون الأخبار. ولقد خضنا معه كل بحر، وعرجنا على كل منزل، فسألته عن الشعر واستطلعت رأيه في جديده، وسأله بعض من حضر عن مسائل من اللغة والنحو، وعرض عليه أشياء من تمحلات النحاة وغلاظاتهم، فأجاب بأسدّ جواب وأحكمه، فما كان أعجب من سؤال السائل إلا جوابه هو، وما تقول فيهما إلا الأصمعي يشافه بلغاء الأعراب من أهل زمانه.

(١) كصاحب الأغاني، و(الأغاني) من الكتب التي أفسدت الدين والخلق، وإن صانت الأدب والشعر والأخبار.

وإني أروي هنا طرفاً من حديثه في الشعر، بكلامي أنا، لا ببيانه هو، فما استطعت حفظ ما قال بحروفه.

* * *

قلت له : كيف أنت والشعر؟

قال : أما ما قالت العرب فإني أرويه كله لا أخرم منه شيئاً، وأما ما قال المحدثون بعد إذ فشا اللحن في الأمصار وعمت فيها بلغنا العجمة فلا أعرفه، ولا أَرْضَى لنفسي روايته، لأن أصحابه أفسدوا على العرب ديوانهم، وجاؤوهم بما ينكرون من القول.

قلت : ولكنك رجل عادل حصيف، أفلا تسمع قول هؤلاء المحدثين قبل أن تحكم عليهم؟

قال : بلى والله إني سامع فأنشدني.

ف نظرت فكان الله محاً الشعر كله من قلبي إلا أبياتاً لأبي تمام في وصف الربيع نروّيها التلاميذ. فأنشدته إياها وفي ظني أنه لا يَرْضَى عنها، لأنها ليست بما ألف ولو أنشدته لغير أبي تمام أو أنشدته لأبي تمام غيرها، لكان ذلك أدنى إلى رضاه، ولكن ماذا أصنع وقد نسيت كل ما جاوزها من الشعر؟ قلت :

مطر يذوب الصحو منه ويَعْدُه صحو يكاد من الغضارة يَمْطُرُ
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمَرُ

فرايته قد طرب لها طرباً لم يخْفِه وصفق يداً بيد من الإعجاب وتمايل فقلت وقد قويت نفسي : كيف سمعت؟

قال لقد أحسن وجاء بما لم يسبقه إليه سابق، وما أحسبه يلحقه فيه فيدرك شأوه لاحق. لقد عرف الناس ثلجاً يذوب، فأذاب لهم الصحو حتى سال ماء، ثم عاد فجعل الصحو من طراوته كأنه يَمْطُر، فلم يَجْلُهم في المطر من صحو ذائب، ولا في الصحو من مطر. ثم أَصْل وفرَّع، فجعل من الغيث ظاهراً

ومضمرأ، وما يكون مضمر إلا وثمة ضمير ولا ضمير إلا في حيّ، أفلا تراه قد أسبغ الحياة على الجماد؟

قلت: هذا مذهب في الشعر يعرفه أهل زمانه ويحسبون أنهم ابتكروه... يعطيك صورة جميلة ولكنها ليست بينة الحدود ولا واضحة المعالم، فأنت تستمتع فيها بكشف المجهول، وهول عمري أصل الآداب، وأقوى الغرائز، ثم غلاً فراغها بعواطفك وتجعل حدودها من أفكارك، فتكون كأنك صغتها لنفسك، وتفهم منها ما لا يفهم سواك.

قال: هذا شيء ما أعرفه ولكني لا أعيبه، ولقد طربت لما سمعت... قلت: أفلا أسمعك من شعر أهل زماننا؟

قال متعجباً: وإن لأهل زمانكم لشعراً؟

قلت: ولم لا يكون؟ اسمع مقطوعة من حديث الشعر لشاعر اسمه فياض، قالها على لسان المتنبي أكبر شعراء العرب كأنه يعلمه بها كيف يكون القول.

قال: هذا لعمري النبوغ، فماذا قال؟ قلت: قال:

جسدي النازل من شهوته سلم العار وروحي السامية

يا لعمر مشيا فيه معاً

فوثب كمن داس على جمره، أولسعتة عقرب، فأمسك بفمي فسكتُ
فزعاً وقلت: ما لك؟

قال: ما هذا؟ قلت: شعر جديد!

قال: أعوذ بالله (جسدي النازل من شهوته)؟ وهل كانت شهوته جبلاً عالي الذرى، أو قصرأ شامخ الدعائم حتى ينزل منها؟ وإلى أين ينزل؟ وهل بعد الشهوة من منحدر، أو دونها منزل (وسلم العار) هذا؟ هل هو جسده؟ فكيف صار سلباً؟

قلت: لعله أراد أن جسده ينزل على سلم العار، أي ينحط في درك العار بسبب شهوته التي ركبت فيه، فما استقام له طريق القول؟

قال: برئت من العربية إن كان هذا يفهم من كلامه، إننا نعرف (ينزل فلان) إذا كان عالياً وهبط، (وينزل البلد) إذا سكنه، و (ينزل بالقوم وعليهم) إذا حل فيهم، و (ينزل من الجبل) إذا كان قد صعد فيه، و (ينزل إلى الوادي) و (ينزل على الدرج) ولا نعرف (نزل السلم) إلا إذا قام فيه، كما يقيم المرء في المدينة، ثم إن السلم يصعد عليه من يكون على الأرض، فأين كان هذا حتى نزل على السلم؟ هل ولدته أمه على المنارة فنشأ فيها، ثم بدا له فنُصب له (سَلَم العار) لينزل عليه؟

قلت: أو لا تسمع سائر المقطوعة؟ قال... لا والله.

قلت: ولكنه ألقاها على ملأ من الأدباء والشعراء في سوق من أسواق الأدب في دمشق، كان أقامها أديب من أدباء تنوخ اسمه عز الدين بن علم الدين، فسمعوها وارتضوها وما رأينا فيهم من أنكرها عليه، ولكن أبا قيس لم يرضها.

قال الشيخ: ومن أبو قيس؟

قلت: هو التنوخي الذي حدثتك عنه، وهذه كلها أسماؤه وله غيرها.
قال: ما أكثر ما له من أسماء!

قلت: وما أكثر ما له من فضائل وحسنات، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى.

قال: هذا صحيح! قلت: أتحب أن أقرأ لك من شعر شوقي؟

قال: أسمع اسماً منكراً.

قلت: نعم، ولكن له شعراً معروفاً. إنه الذي يقول في الأزهر:

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهر	وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة	طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجَل من الملوك جلالة	وأعز سلطاناً وأفخم مظهرها

فاستوى جالساً، وقال لا جرم أنه شعر معروف، هذا هو الشعر. لقد
 انطق أعظم ناطق وهو الدنيا، وأسمع أجل سامع وهو الزمان، وجعل مدح
 الأزهر جوهرأً وهذا لعمر الحق أكبر مما صنع امرؤ القيس حين وقف واستوقف،
 وبكى واستبكى... ثم وصف أئمة بخير ما يوصف به علماء، سمو كالنجم
 ونور كالنجم، وهدى كهدي النجم، وعلم كالبحر وهم بكثرتهم كهاء البحر،
 ولو شئت لكشفت عن خمسين معنى مستتراً وراء قوله: (طلعوا به زهراً وماجوا
 أبجراً) زدني من قوله...

فمضيت في القصيدة حتى بلغت قوله: (يا معهداً أفنى القرون جداره)
 فترنح طرباً، وأعجبت به صورة هذا الجدار، وهو قائم في وجه القرون ترتد عنه
 كليلة عاجزة، ثم تفنى وتضيع كما ترتد الأمواج عن الصخرة ثم تذهب
 وتضمحل والصخرة راسية ما ذهبت ولا اضمحلت.

واستزادني من شعره فأنشدته قوله وهو لم يبلغ العشرين:

صوني جمالك عنا إنا بشرٌ من التراب وهذا الحسن روحاني
 أو فابتغي فلكاً تأوينه ملكاً لم يتخذ شركاً للعالم الفاني

فهزه الطرب هزاً وقال: إن الشعراء يقولون ولكن مثل هذا ما يقولون.
 إنهم وصفوا حسن المرأة وجمالها، ولكن لم يستطيعوا أن يرفعوها فوق الناس وأن
 يجعلوها من طينة غير طينتهم، وأن يبرئوها من مادة التراب حتى تخلص لصفاء
 الروح ثم يجعلوها ملكاً يسكن السماء. إني لأعجب لكم!... عندكم هذا
 الشاعر ولا تفاخرون به شعراء الأرض؟

* * *

ثم قرأت عليه من شعر حافظ فأعجبه ولكنه قال:

هذا من عيار وذاك من عيار، ولست أسوي بينهما. إن الأول عبقرى
 إمام، وهذا مقلد ذو بصيرة، وسباق ذو وثبات.

قلت: إن الناس كانوا يسوون بينهما أو يقاربون يوم كانا حيّين، وللأحياء

مقاييس من صداقة أو عداوة، ولهم صفات يحبون من أجلها أو يبغضون: كخفة الروح وبسطة الكف وحسن المجالسة. فلما ماتا ولم يبق إلا موازين الأدب بدأ الناس يدركون أن بينهما بوناً شاسعاً وأمداً بعيداً.

ثم أسمعته لكثير من الأحياء والأموات، فأعجبه غزل (رامي) وأنس بجزالة شعر (البارودي) وحسن ابتكار (صبري). وقرأت عليه من أشعار الشاميين، فقدم (الزركلي) واستقل شعره وعجب من سكوته الآن، لأن الشاعر عنده من ينظم أبداً لا ينقطع حتى ينقطع عن نفسه سيل العواطف ويحف منها معين الحس. ومن يقول مثل شعر الزركلي الوطني الذي يسيل منه الدمع، دمع القلب لا يمكن أن ينضب ينبوعه. وقد كره قصيدته (العذراء) ورأى فيها ضعفاً في التأليف بيتاً. وأعجبه جزالة شعر (محمد البزم) ولكنه رأى ألفاظه أجزل من معانيه ومفرداته أمتن من جملة، وأخذ عليه قوله:

إذا كان من أسدى لك الشر هيناً

فقل لي أبيت اللعن من أين تشار

وقال إن العرب تقول أسدى إليه يداً ولا تنطق بها في الشر، أما قوله: (أبيت اللعن) فإقحام لا معنى له، لأنها كلمة كان يخاطب بها ملوك الجاهلية وقد بطلت، فأى ملك من ملوك الجاهلية يخاطب؟ وأخذ على (مردم) قوله في نشيده:

سماء لعمرك أو كالسماء

ورآه سبكاً مقلوباً، وكان ينبغي أن يقول هم كالسماء بل هم سماء.

وأثنى على أنور العطار وطرب لأسلوبه، وشهد لقصيدته (لبنان) أنها من أبلغ ما قال شاعر في وصف الطبيعة. وراقته فحولة بدوي الجبل وشاعرية بشارة وأبي ريشة. أما (الشعر الجديد) كشعر الرمزيين، والمهاجرين، فلم يفهم منه إلا بعض مفردات من ألفاظه ولم يعدده شعراً ولا كلاماً عربياً!

وقد استمر المجلس ساعات طويلة، ومال الحديث فيه على من يتلقى

العربية اليوم على أبناء باريز، من أمثال الإمام اللغوي أبي جَرِيْجَة الشيخ
مارسيه أصمعي العصر... وكان مجلساً نادراً ما قمنا منه إلا ونحن كارهون.
نتمنى لو أنه يمتد بنا أسبوعاً... وخرجنا وقد امتلأ وطينا علماً وفوائد، هذا
طرف منها وإنه (طبق الأصل).

* * *

نشرت سنة ١٩٣٥

[كنت أمس عند قريب لي يمارس صناعة
الطب. فخرج لبعض حاجته، حتى أطال
الغياب، وتسرب إلي الملل، فقممت إلى خزانة
كانت حيالي، فقلت: لعل فيها كتاباً أقرؤه،
فما راعني حين فتحتها إلا هيكـل عظمي معلق
بسقف الخزانة... وإلى جانبه هيكـل
ثان...].

... من أنت أيها الإنسان الذي انتهى به الأمر إلى أن يجبس في خزانة،
ويلبث الدهر معلقاً بسلكة، ويعد متاعاً من المتاع؟ أنت رجل أم امرأة؟ أغني
أم فقير؟ أملك أنت أم صعلوك؟

هل كان في هاتين الحفرتين البشتين عيون ساحرات الطرف، يفتن
ذا اللب حتى لا حراك به، ويفعلن بالألباب ما تفعل الخمر؟ وهل كان على هذا
الشجر المخيف شفاه تُعس، تأخذ دنيا البخيل بضمة على شفته، ويبدل حياته
الجبان في قبلة منها؟ وهل كان على هذا القفص العظمي صدر بلوري، يضيع
بين نهديه عقل العالم، ويذهب فيه لب الحليم، وينسى امرؤ أسند إليه رأسه
الدنيا وما فيها؟ هل كانت هذه العظام المستطيلة المربعة سواعد بضّة، وأفخاذاً
رجرجاة، طالما أثارت من هوى، وأذكت من خيال، وطالما أنطقت بالشعر
الشعراء؟ أكنت أيها الإنسان امرأة فاتنة جميلة؟

وهذا الإنسان الآخر؟ هل كان عشيقك أيها الفتاة اعترفي فلا بأس عليك
اليوم هل كان يهيم بك حباً، ويحيي الليالي بحوم حول منزلك، أو يرقب

شرفتك فإذا رأى إشارة منك أو أبصر على الشرفة ظلك أو لمح طرف ثوبك الأبيض أو الأصفر أو . . . أو «الأرجواني» انصرف وهو أسعد الناس حالاً، وراح يجبر فيك «المقالات»^(١)، وطفق يرى صورتك التي نسجها من خيوط حبه، لا صورتك التي هي لك: طفق يراها في السماء التي يرنو إليها ويعدّ نجومها، وفي صفحة الكتاب الذي يفتحه وينظر فيه، وبين أغصان الأشجار التي تمتد إلى شرفته وحيثما تلفت أو نظر «تلوح له ليلي بكل سبيل»؟

أم كان هذا الإنسان شاباً غض الشباب طريّ العود، ينظر بعيون الغيد ويشئى كأنه قضيب بان، ويتكلم بصوت لين المكاسر، كأن ألفاظه ورناته عادة أخرى تميل وتندلل، ولم يكن يحبك أو يفكر فيك، لأنه يفتش هو الآخر على من يحبه ويفكر فيه؟ . . .

* * *

أم كنت أيها الإنسان ملكاً يضيء على مفرقه التاج المحلى بالدرّ، ويلمع تحته السرير المصنوع من الذهب، إذا أمر تقاطلوا على السبق إلى طاعته، وإذا اشتهى شيئاً أسرعوا إلى تحقيق شهوته، وإذا مرض لم يكن للناس حديث إلا حديث مرضه، وإذا أبلّ لم يكن سرور إلا ببشرى إبلاله وإذا قام أو قعد أو قدم أو ذهب، طهجت الألسن بقيامه وقعوده، واشتغلت الصحف بذهابه وقدمه، وإذا مشى في الطريق لم يمش على رجله كما كان يمشي أبونا آدم عليه السلام، وكما تمشي ذريته من بعده، ولكنه كان يمشي على رؤوس الناس الذين يحسّون (لفرط الإجلال أو لفرط السخط) بأنه يمشي على رؤوسهم جميعاً؟ .

أم كنت أيها الإنسان صعلوكاً حقيراً عاش على هامش الحياة، ودفن في حاشية المقبرة، فلم يحسّ أحد بحياته، ولم يدر أحد بمماته، ولعل حياته أشرف حياة لأنها حافلة بالفضائل، مترعة بالشرف، فكان يكدح طول نهاره ليحصل خبزه وخبز عياله، فيأكله مادوماً بعرق جبينه، لا يؤذي أحداً، ولا يسرق مال

(١) إشارة إلى مقالات (ذات الثوب الأرجواني) التي كان ينشرها المازني رحمه الله في تلك الأيام.

الدولة، ولا يتخذ وظيفته جسراً إلى تحقيق شهواته، وتحصيل لذاته، ولعل موته أشرف موت، لأنه مات مجاهداً وسط المعمل، أوسقط وفي يمينه المعول.

انظر يا صديقي! التفت إلى يمينك. إن الملك الذي طالما خفته وأكبرته وأعظمت زينته وبزته، وشارته وحليته، فملت عن طريقه ولم تجرؤ على رفع نظرك إلى طلعه الكريمة. إنه معك في هذه الخزانة قد نزع عنه ثوب الملك والبهاء وعاد مثلك: لا الملك دام له ولا دام الغنى!

* * *

هل كنت أيها الإنسان رجلاً عفيفاً مستقيماً، أم كنت لصاً خبيثاً؟ اعترف إنه لن يضررك اليوم اعتراف، هل كنت لص أعراض تلبس ثوب التاجر، أو ترتدي حلة الموظف أو تتيه ببرد الغنى؟ كم من الأعراض سطوت عليه باسم الوظيفة أو بصلة الصداقة، أو ولجت إليه من باب «السفور والاختلاط»؟

أم كنت لصاً رسمياً لا سبيل للقانون عليه، يسرق من الناس ويسكتون، لأنهم يريدون أن تمشي أعمالهم، ويسرق من الخزينة بأسناد مصدقة!

أم كنت لص أدب، تسرق فكرة الفيلسوف وصورة الشاعر وموضوع الكاتب فتلبسها ثوباً من أثوابك الخسيسة الممزقة، ثم تخرج بها على الناس على أنها بنت خيالك ووليدة عقلك!

أم كنت مظلوماً لم تكن لصاً ولم تحترف السرقة، ولكن رأيت صبية مشرفين على الموت من الجوع، وأسرة كادت تودي من أجل رغي، ورأيت حقك في بيت مال الأمة، قد سرقه السادة الأكابر فغطيت وجهك حياء، وأخذت رغيماً ليس لك، فثار بك المجتمع، وقامت عليك الصحف، وتعلق بك القانون، حتى استأقك إلى السجن، فمت فيه مفجوعاً بشرفك وأولادك!

اقترب أيها المجرم. ادن أيها الشهيد، تعال انتقم، هذا هو القاضي الذي حكم عليك، لأنك سرت رغيماً تعيش به أسرة، ثم خرج بخرق الصفوف، صفوف الشعب الذي اجتمع ليشهد انتصار الحق، وظفر العدالة فلما رآه حيّاه وهتف له حتى بحّ صوته، وصفق حتى احمرت كفاه، فلما ابتعد ولم يعد يراه

أحد مد يده التي حمل بها (مطرقة العدل) فأخذ ثمن وجدانه الذي باعه، أخذ الرشوة... تعال انتقم.. إن القاضي والمجرم قد التقيا وزالت من بينهما الفروق!

* * *

أم أنت أيها الإنسان جندي صاحبوا به: الإنسانية في خطر!

الحضارة مهددة بالزوال! لقد أوشك أن يموت الحق وتذهب الفضيلة! فاشتعلت الحمية في رأسك، والتهب الدم في عروقك، وقدحت عينك بالشرر، فتركت أمك المسكينة ليس لها بعدك إلا الله وأسلمتها إلى الحزن الطويل، والشكل القاتل، وأولادك الذين تعلقوا بك يصيحون: بابا.. بابا.. أسلمتهم إلى اليتيم والفقر والبؤس، وذهبت تلبي نداء الإنسانية، وتخلص الحضارة، فنمت على الجثث، وتجلبت باللهب، وتوسدت القنابل، حتى إذا أدركك أجلك سقطت صريعاً، وأقبل رفاقك يدوسون على جثتك، لا يجدون وقتاً لإزاحتها ودفنها، لأنهم يخافون إذا أبطأوا ألا يدركهم الموت في سبيل الإنسانية... فلما ماتوا جميعاً ربحت الإنسانية وساماً زين صدر القائد، وصفحة في تاريخ العدوان، وثبت كرسي طاغية من الطغاة، أو استقرت مكانة حزب من الأحزاب، أما الأطفال الأيتام والعجائز الثكالات، فحسبهم عوضاً من آباءهم وحسبهن بدلاً من أبنائهن، التمتع برؤية موكب القائد الظافر...

أم أنت أيها الإنسان القائد نفسه، قد جرّد صدره من الأوسمة والشارات، وجسمه من الحلة المزدانة بالقصب، ووجهه من الأنف والعينين، وعاد قفصاً من العظام، لا يمتاز عن أصغر جندي وأحقر صعلوك، فلم يعد لك تانك العينان اللتان تبرقان، فترتجف لبريقهما أفسى القلوب، وذاتك الشاربان القائمان كساريتي مركب، وذلك الصوت القوي، الذي كان يصيح بالجنود: إلى الأمام أي إلى الموت... إلى الشكل... إلى اليتيم... إلى الحرب^(١). «جحيم الحياة الدنيا»!

(١) والحرب ما لم تكن لإعلاء كلمة الله، أولدفع المعتدين، وثبتت الدين، ورد المستعمرين الغاصبين، فهي بلاء شامل وشر مبین.

وأنت أيها الآخر. أنت ذلك الجندي، مالك تقف جامداً؟ هذا فائدك؟
 ألا تضم شفتيك، وتثبت بصرك، وتزوي ما بين عينيك، وتأخذ هيئة الجد
 لتؤدي التحية العسكرية، ويحك! أما أنت جندي، هل أنت امرأة؟ أنت عشيقة
 القائد العظيم، رآك منصرفاً من المعركة التي طوح فيها بالآلاف من شباب أمته
 في سبيل العدوان على بقعة ليست له، أو إعطائها إلى غير أصحابها ومنحها
 لبعض الطارئين من الشعوب الذليلة المسكينة^(١)، فماتوا كلهم ولم يقدرُوا على
 شيء، لأن للحق قوة كقوة النار والحديد؟ أنت التي اخترقت سهام لحظها هذا
 القلب الذي طالما هزىء بالقنابل والمدمرات، فجاء يصب جبروته على قدميك،
 وأصبح هذا الذي يصرف عشرات الألوف من الكماة المستلثمين تصرفينه
 وتجربينه من زمامه، حتى صار يفكر فيك وهو في ساحة الحرب، يزلزل الأرض
 تحت أقدام أهلها، ويتأمل صورتك والعدو على أبواب معسكره لا يخاف عليه أن
 يحتله الأعداء، ما يخاف عليك أن يمحى لماك غير شفتيه، أو تضم جسمك غير
 ذراعيه...

* * *

أم أنتما رجلان؟ أعدوان أنتما أم صديقان؟ أكان بينكما مسافة على الأرض
 ومسافة في الزمان، أم أنتما رفيقان متلازمان؟ هل التقيتما في معمل،
 أو عملتما في منجم، أو اشتغلتما في ديوان، أو اصطحبتما إلى الحرب، أو تجاورتما
 في السوق؟

أم كنتما مضطجعين في قصركما المتقابلين، قد مللتما من التسلية، وشبعتما
 من الحب فأنتما تدفعان العمر دفعاً، لا تتنازلان أن تنظرا من النافذة إلى هؤلاء
 البؤساء الذين يشتغلون دائماً وأبداً، كأنهم آلات تدور، تحت الشمس في
 الصيف، وتحت المطر في الشتاء، وفي الحرّ وفي الزمهرير، وفي الصحة وفي
 المرض، ليأخذ بعد ذلك الواحد وتأخذوا أنتم التسعة والتسعين مكافأة لكم على
 غصبكم حريتهم وعسفكم إياهم، وزرايتكم عليهم، فتنفقوها على الموائد

(١) كاليهود الصهيونيين.

الخضر، وفي كؤوس الخمر، وعلى الشُّقر والسُّمر... ثم إذا خرجتم تمسحوا
بأذيالكم، وقبلوا الشياطين التي تلهبون بها ظهورهم!

* * *

من أنتم أيها الإنسانان؟ وما شأنكما؟ هل كان بينكما حاجز عرضه ثلاثمئة سنة
فلم تلتقيا في الحياة، وجمع بينكما الموت، الذي تختصر فيه المسافات، وتلتقي فيه
الآزمنة والأوقات؟ أنتم هنا لتقولوا: إن الملك والغنى، والمجد والجاه، والفتنة
والجمال، كل أولئك أثواب تليس وتخلع ولا يبقى للإنسان من دنياه إلا ما قدم
من عمل، ينال به النعيم الخالد، أو يصل به النار الباقية؟ ألا ليت الناس
يذكرون أبداً هذا المصير!

* * *

نشرت سنة ١٩٤٧

يا سادتي ويا سيداتي . كنت راكباً أمس في الترام، أفكر في موضوع أتحدث به إليكم، فأسليكم وأفيدكم، فلا يكون الحديث لذيذاً بلا نفع، ولا نافعاً بلا لذة، فكان يطير الموضوعات من رأسي هواء بارد يلفح الوجوه، فيبلغ منها مثل ما تبلغ الشياطين، فقممت إلى الباب لأغلقه فاستعصى عليّ، فشددته فتأبى، فجربت فيه الوسائل فما أجدت، فتركته وقعدت . وصعد شاب مفتول العضل، عريض المنكبين، بادي القوة، فجذبه فما استطاع فأمسكه بكلتا يديه، ووضع قوته كلها في ساعديه، حتى احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، والباب على حاله، فأغضى بصره حياء منا أن ينظر في وجوهنا وقعد . وركب بعده شيخ وكهل وامرأتان، لم يكن فيهم إلا من جرب مثلاً جربنا، وخاب كما خبنا . . .

فلما رأيت ذلك، قلت مقالة أرخيدس في أول الدهر: «أوريكا»، وجدت الموضوع . إني سأجعل موضوع حديثي (في الترام)، فالترام يأسدة معرض الناس ومراة الأمة، وهو مسلاة لمن نشد تسلية، ومدرسة لمن أراد استفادة، وهو سينما أبطلها أناس صادقون، لا (يمثلون) رواية وضعها كاتب، ولكن يعرضون فطرهم التي فطرهم الله عليها، وأخلاقهم وطباعهم وكل صغيرة (في الترام) تمثل كبيرة في الحياة: هذا الباب المغلق مثلاً عنوان فصل كبير من فصول حياتنا، ونقص بين في تربيتنا، إذ ربما كان دفاع الباب أقل من قوة اثنين منا، ولكننا أتينا متفرقين كما نفعل في كل أمر نرومه، وإصلاح نطلبه، نعمد له فرادى، ونقصده أشتاتاً، فلا نصل إلى مقصد، ولا نبلغ غاية، قد استقرت (الفردية) في

سلائقنا، فترى الواحد منا يعمل ما لا تعمله الجماعة، فإذا اجتمعنا أضعف بعضنا بعضاً، أو استبد بعضنا ببعض، وإذا نحن أردنا التخلص من هذا، قفزنا من أول الخط إلى آخره، فجاوزنا حد الاعتدال، وتعدّينا نطاق الممكن، وأردنا أن نبنى الدار قبل أن نعدّ الحجارة، ونصلح الأمة قبل أن نصلح الأفراد، كأن الأمة مخلوق مستقل، له طول وعرض وعمق وارتفاع. لا يأسده، ما الأمة إلا أنا وأنتم وهم وهنّ، فإذا لم يصلح كل منا نفسه لم يكن للأمة صلاح.

هذا عيب كبير فينا دل عليه الحادث الصغير، وما أكثر ما تدل الصغائر!

ركبت الترام مرة، وكان مزدحماً يغصُّ براكييه، فلا تبصر لون أرضه، ولا تعرف من الازدحام طوله من عرضه، وكان على المقعد إلى جنبي شيخ مسنّ أحسبه قد دخل في الثمانين، وكان معه لبن سائل في صحن ضحل لا غطاء له ولا قعر، فكلما اهتز الترام أو تحرك الناس، طار رشاشه على ثوبي الذي كنت أتجمل به أيام الحرب، ولا أجد وأنا موظف السبيل إلى غيره، فكنت أضم ثيابي إليّ، وأحاول أن ابتعد عنه، ليدرك أذاه لي فيدفعه عني، فلا يدرك ولا يبالي، فقلت له: «يا عم، قد آذيتنا... ولوثتنا بالحليب...» فما كان منه إلا أن صرّخ تصريحاً جمع عليّ أهل الترام، وقال:

— «اتق الله ما هذا الكفر؟ ما هذا الجحود؟ ألا تعرف قدر النعم؟ إنه حليب طاهر، هل هو نجاسة؟ حرام عليك».

فتركته ودخلت بين الناس، ووقفت مع الواقفين، وقد كادت تتلامس الوجوه، وتتلاقى الأنفاس، وكدت أخنق، وإذا بشاب على آخر طراز، في فمه سيكار أسود ضخّم كأنه ذنب العَصْرُفُوط^(١)، يخرج منه دخان كأن رائحته ضراط الخنافس، فوقف أمامي، حتى أوشك أن يحرق بناره أنفي، فقلت له: «انته يا أخي»، فصاح: «وأي الحرية الشخصية؟ وبأي حق تكلمني؟» وأمثال هذا الهذيان...

فرايت في ذلك عيباً آخر من عيوبنا، إننا نأخذ المسائل مقلوبة، ونفهمها

(١) من نوع الحرياء والجردون.

على أضدادها، فلا الشيخ فقه الدين وعرف الحلال من الحرام، قبل أن يعظ ويفتي، ولا الشاب عرف المدنية، وأدرك أحوال أهلها، قبل أن يهذي ويتفلسف، الدين يحرم إيذاء الناس، والمدنية تمنع التدخين في الترام، ولكننا نأخذ ما لا نعرف، ونخوض فيما لا نعلم، فكان في حياتنا الشيء وضده، اجتمعت فيها المتناقضات واثلفت المختلفات، كما يكون في عصور الانتقال كلها...

وصعدت الترام مرة عجوز متصابية متبرجة، كأن وجهها خريطة حربية، من كثرة الخطوط المرسومة عليه والألوان، ففوق عينيها خطان أسودان مقوسان، وعلى خديها بقعتان حمراوان، وشفتاها كأنها قد غمستا بالماء المغلي فاحترقتا ثم نزلتا، فاجتمع عليهما الدم متجمداً فظيعاً، فلم تعودا شفتين ولكن صارتا والعياذ بالله، آفتين مشوهتين، وأظافر يديها كأظافر ذئبة افترست حملاً، فهي طويلة محمرة مخيفة، فوقفت في غرفة الرجال وهي مملوءة بالناس، وإلى جنبها غرفة النساء فارغة مفتوحاً بابها، فنظر الناس إليها متعجبين، ثم ردوا أبصارهم عنها منكرين، فقالت: «ما فيكم واحد مؤدب، يقوم للست، يا عيب الشوم». فقال أحد الحاضرين: «تفضلي، هذه غرفة النساء خالية» فنفضت يدها في وجوهنا، وقالت:

— أنتم (متأخرين) كثيراً، (متوحشين) ما تعلمتم التمدن.

ورأيت مرة شاوين دخلا على غرفة الترام، يلبسان أردية بلا أردان، وسراويل تشف عن السيقان، فألقى أحدهما بنفسه على المقعد فاضطجع اضطجاع العروس على سريرها، ورفع الثاني رجلاً فوق رجل فعل الراقصة على مسرحها، ثم تحدثا حديثاً مخلوطاً فيه العامية بالفرنسية بالانكليزية، بالضحكات الخليعة، والإشارات المختلة، تحدثا في الأدب فكان من رأيها أن الزيات والعقاد والمازني تحتاج كتاباتهم إلى ترجمان، لصعوبتها وأنها لا تفهم بلا قاموس، ثم ذكرا الامتحان والدروس، مع الحب والغرام، وأماكن اللهو والتسلية... حتى أني لم أعد أطيق الصبر فتزلت وركبت تراماً آخر.

هذان مثالان لطبقة من نساتنا ورجالنا، ييديها الترام إن أخفتها البيوت،

طبقة هي في الأمة كالديناميت في البناء، والسّم في الجسم، والقذى في العين، وهي وإن تكن نادرة فينا، ولم تكن تخلو أمة من مثلها — لا ينبغي للمصلحين منا أن يغفلوا عنها، ويهملوا إصلاحها لأننا أمة تستعيد اليوم حريتها، وتبدأ جهادها، وتسمى لتصل ما انقطع من أمجادها، ولا ينال المجد إلا بشباب أولي خلق وعلم، ونساء أولات عقل وعفاف.

ولكنّ في الترام، في مقابل هذه الصور التي تؤلم وتسوء صوراً تسرّ وتفرح، لقيت فيه أمس فلاحاً من فلاحي مصر بجلبابه و(طاقيته) وزيّه، وكان معي صديق يتكلم في الجلاء عن مصر، وفي جامعة الدول العربية، فاندفع والله هذا الفلاح في حديث عن السياسة والتّزاع بين الدول الكبرى، وموقف هذا الشرق الأدنى، وما يتوقع له، وفصل القول في حالة مصر والشام والعراق والمغرب والحجاز واليمن، فكانت محاضرة مرتجلة أكثر من نصف ساعة، مشى فيها الترام من الفسّطاط إلى شبرا، لو أن سياسياً دعا الناس إلى أفخم ناد من النوادي، فالقى عليهم مثلها لخرجوا معجبين.

ولقيت في الترام فلاحاً آخر، مرّ به جابي الترام فناده، «يا أفندي» فقال له: «ما فيش أفندية دي الوقت، الفلاحين هم أسياد البلد!» يقظة عجيبة وكلام عظيم وسيكون أعظم يوم يصير الفلاحون أسياد البلد حقاً، يوم لا يبقى في مصر شركة أجنبية، ولا مصرف أجنبي، يوم لا يبقى في مصر (شحاد) مصري، يوم يكون المصريون أعلم من الأجانب وأنظف منهم وأحرص على الصحة وأفهم للحياة وأسبق إلى المغامرة، وسيجيء هذا اليوم قريباً بحول الله. أيها السادة والسيدات.

إن الترام يكشف أخلاق الناس، وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه، والحسن فيتعلمه ويستمتع بالملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشري المعروض عليه.

هذا فصل من الرواية: رفيقان يدعان الأمكنة الخالية، ويجلسان حولك هذا عن يمينك وهذا عن شمالك، ويتحدثان في أمورهما الخاصة بهما، من فوق

رأسك، لا يحفلان بك ولا يباليانك، كأنما أنت كرسي أو متكأ أو كان أذنك شباك يتكلمان منه .

وهذا فصل آخر: رجل طويل عريض لا يطيب له أكل (بذر البطيخ) إلا في الترام، فلا يزال يقضمه بأسنانه، ويقذف قشره بأسنانه، فإن لم يصب به الناس، آذاهم بقبح منظره، وسوء أدبه .

وهذا رجل يأتيك من خلفك وأنت واقف في زاوية الترام، يرجوك أن تفسح له ليمر، فإذا انزحت له أخذ مكانك وتركك حائراً لا تدري أين تقف!

وهذا عامل بشيابه الملوثة بالزيت المعدني، أو المملوطة بالطين. يحتك بك وأنت بشيابك البيض فلا يدعك حتى ينقل إليك زيتته وطينه، فإن تكلمت قال: «ليه؟ هو احنا مش بني آدم!» .

وهذه امرأة ضخمة عريضة القفا، تصعد ومعها ولد على ظهرها، وولد في بطنها، وولد تسحبه بيدها، وسلّة كبيرة فيها سمك وبصل وكراث، فتقعد على الأرض فتشغل مكاناً كان يقف فيه عشرة رجال، ثم لا تزال تسبّ هذا لأنه داس على ثوبها، وتشتتم ذاك لأنه مسّ ولدها .

وهذا عجوز ثرثار، لا يفتأ الطريق كله، يذم هذا الشعب لأنه لم يتعلم أن النزول من مقدم الترام، والركوب من آخره ويعجب من جهله وقلة تربيته، ولا يزال كذلك حتى يصل إلى محطته فينسى محاضراته الطويلة، وينزل من خلف لا من قدام .

وهذا رجل متنفخ كأنه الديك الرومي، مزهو كالطاووس يقعد أمامك فلا يرضيه ألا يمتد ويبرز بطنه ويؤخر رأسه ويرفع رجله في وجهك، حتى يقابلك نعلها ويكاد يمسك طرفها. . . ثم إذا لمح الجلابي أسرع بالنزول ولم يدفع ثمن التذكرة!

وهذا شيخ له عمامة وعذبة، لا يحب أن يذكر الله إلا على سبحة طويلة يرفعها بيده حتى يراها الناس كلهم، ولا يتمسك بسنة السواك إلا في الترام،

فيخرجه من جيبه طويلاً ثخيناً، فيستاك به على أشبع هيئة، ثم يعصره بأصابعه ويصق على الأرض وإذا انتقده أحد، نادى: يا ضيعة الدين ويا بوار الأخلاق.

وهذا فصل آخر (يمثله) السائق، يقف في المحطة يشتري طبق الفول ورغيف الخبز، ويتباطأ بعدها في سيره ليأكله، حتى إذا وجد أنه تأخر وفاته الموعد، أسرع إسراع المجنون، ولم يمهل المرأة لتركب ولدها وتركب بعده، فيبقى الولد في الترام خائفاً يصيح ويبكي يكاد يلقي بنفسه، وأمه تعدو وراء الترام، والناس يصرخون من كل جانب.

وفي الترام دليل على طباع كل قطر، ونموذج من حياته، ففي الشام عراك على النزول والصعود، وتسابق فظيع إلى المقاعد لأن فيه شعباً حديث عهد بالجهاد والنضال، ولأن الترام له أول وله آخر، فالناس يركبون معاً وينزلون معاً. وفي مصر تدور أكثر الترامات، دوران السواني^(١)، وتكرّر الأيام، لا أول لها ولا آخر، والناس ينزلون ويصعدون في كل مكان، وفي مصر شعب وادع أنيس فإذا فرغ مقعد في الدرجة الأولى رأيت كلاً يدعو الآخر إليه. والفرق في الشام وبيروت بين ركاب الدرجة الأولى والثانية قليل لا يكاد يظهر في زي ولا حديث وهو في مصر ظاهر بين، لأن شعار مصر التفاوت في كل شيء، فليس في الشام ساحله وداخله، أغنياء من الوزن الثقيل ولكن ليس فيه أيضاً إلا القليل من الفقراء المدقعين وليس فيه علماء كبار جداً، ولكن ليس فيه أيضاً أمة طاغية، وجهالة منتشرة. أما مصر ففيها أشد الغنى وأشد الفقر، وفيها العلم والجهل، والقصور والأكوخ، بل إن فيها شارعاً واحداً، في أوله الملاهي والمسارح فكأنك منه في باريز وفي أوسطه البنوك والمصارف، فكأنه من نيويورك، وآخره شارع من شوارع الرقة أو الميادين. والترام في الشام هدف كل مظاهرة، وغاية كل إضراب، فإن كان للطلاب مطلب من المعارف أحرقوا الترام، وإن شكا الناس من سوء الخبز، أو كثرة الضرائب حطموا الترام، لأنه رمز السيادة

(١) جمع سانية، يدور فيها البغل ليستخرج بها الماء من البئر.

الاقتصادية الأجنبية^(١)، وأهل الشام لا يحتملون لأجنبي سيادة لا في الحكم ولا في المال.

إن حديث الترام طويل، ووقت الحديث قصير، وقد استنفدته كله وزدت عليه، وأنا أرجو أن أملتكم عفوكم، وأشكر لكم على سماعه صبركم، والسلام عليكم.

* * *

(١) كذا كان، والترام اليوم، ككل شيء في الشام، هو بحمد الله ملك لنا، لنا وحدنا.

من الأدب الانكليزي : موتية فراي

نشرت سنة ١٩٣٥

[تعد هذه المراثية من أبلغ المراثي في
الشعر الانكليزي، قراها علي صديقي الأستاذ
حيدر الركابي فنقلتها إلى العربية كما فهمتها].

قرع الناقوس ينعي النهار الأفل، وراح القطيع يزحف ببطء يتسلق
الهضبة راجعاً إلى القرية؛ وعاد الفلاح إلى البيت يجر رجله تعباً... وبقي العالم
لي وللظلام!

* * *

تدثر الكون بالسواد، وتوارى عن الأنظار، وسكنت الدنيا سكواً مهيباً،
ولم يبق في الجو نامة تسمع، إلا هذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية
البعيدة، والشعاب النائية، وإلا طنين حشرة تطير، ونعيق بومٍ على تلك
الدوحة، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الأمن.

* * *

هنالك... عند تيك الشجيرات القديمة، تحت تلك الرّجام التي
يزدحم عليها العشب ويتكّوم الكلاء^(١)... كان «أجداد القرية» ينامون إلى الأبد
في حفرهم الضيقة، وأجدادهم العميقة.

* * *

(١) كوم الكومة وتكومت: من العامي الفصيح.

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج، ولا تغريد البلبل الطرب، ولا زُقاء
الديك المزهو، ولا زمارة الراعي السعيد... كل ذلك لم يعد يوقظهم
من رقدتهم.

* * *

لا. ولن توقد من أجلهم نيران المدافئ، ولن تقوم في خدمتهم ربات
المنازل ولن يهتف أطفالهم اللثغ فرحين بمقدمهم، ولن يتسلقوا ركبهم يستبقون
إلى أحلى تمنيّة لهم: قبلة آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهلهم.

* * *

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم، وكم كانت الأرض الصلدة
تشقق تحت معاولهم، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم.

* * *

كان عملهم مفيداً، وحياتهم مجدية، فلا يسخر الطموح من مسراتهم
الهيّنة، وحياتهم المجهولة، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر، وقصته
الساذجة القصيرة.

* * *

فإن فخر القواد، وعظمة الأقوياء، وكل ما تمنحه الثروة ويأتي به
الجمال... كل ذلك ينتظر الساعة التي لا مفر منها، والغاية التي لا محيد عنها،
لا فرق في ذلك بين عظيم وحقير، لأن طريق المجد لا ينتهي إلا إلى القبر.

* * *

فيا أيها المغترّون، لا تلوموا هؤلاء المساكين أن خلت قبورهم من نصب
المجد، وتماثيل الجلال، على حين تتصاعد ألحان الشناء وأغاني المديح، من بين
جدران المدافن الفخمة، تحت أقبيتها المزخرفة.

* * *

لأن البخور المحروق، والتمثال المنحوت، لا يرد الروح على الميت
الراقد، وهتاف الناس، وعجيج الجماهير، لا ينفخ الحياة في التراب الجامد،
وقصائد المديح وآيات الشناء، لا تبلغ سمع الموت البارد!

* * *

ومن يدري؟ فلعل في بطن هذه البقعة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض
منه النور السماوي، وبدأً كان يمكن أن تدبر دفة المركب السياسي، وأصابع
كان يمكن أن تمشي على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئ النغم السحري...
لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان.

* * *

أخذ النسيان جذوة أرواحهم النبيلة، وأجد نهر حياتهم الجارية، وطفاً
عليهم لج الزمان... ولكن، كم في جوف البحر من جواهر مخبوءة، ولآلىء
مجهولة، وكم في عرض البادية، من وردة تفتحت واحمرت، فلم يرها أحد،
فضاع أريجها العطر في رياح الصحراء.

* * *

ومن يدري! فلعل هنا بطلاً (كهامبتن) كان حاكماً في حقوله مطلقاً، وكان
جباراً شجاعاً، ولعل هنا (ملتون) آخر، ولكنه صامت مغمو، ولعل هنا
(كرومول)، ولكن كرمول بريء من دم أبناء الوطن!

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير، وتصفيق البرلمان، ومنعهم
من المغامرة، وركوب الأهوال، وازدراء المصاعب، واحتقار العقبات، ومنعهم
من نثر الخيرات على بلادهم، وقراءة تاريخهم في عيون الشعب.

* * *

ولكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم، بل منعهم رذائلهم
أيضاً وجرائمهم... فلم يرتقوا العرش على الجماجم، ولم يسدوا أبواب الرحمة
على البشر ولم يخفوا حرمة العار والخجل، ولم يخفوا صوت الضمير، ولم يعطروا
معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذي تحرقه شياطين الشر.

لقد اتبعوا طريقهم السوي في وادي الحياة المنعزل البارد، وساروا فيه
صامتين لم تتعلم أمانهم القريبة، وشهواتهم البريئة، الخروج بهم عن صفوف
الشعب المناضل على الحياة، المزاحم على البقاء.

* * *

ولكنهم مع ذلك لم تخل قبورهم، من أثر للذكرى ضئيل : شعر مكسور،
ونقش محطوم، يستجدي المارة آمة العطف، وهمسة التقدير، ويحفظ عظامهم
من أن تهان.

* * *

إن هذا الشعر، شعر الأمية الساذجة، الذي نطق بأسمائهم وأعمارهم،
يقوم مقام التعظيم والتبجيل والثناء، وينشر بين القبور نصوصاً مقدسة، تعلم
المربين والمعلمين كيف يصمتون ويتعلمون.

* * *

وأي امرئٍ مهما، بلغ من خمول الذكر، والهوان على الناس، يترك
الدفء والنور والسعادة، من غير أن يلتفت إلى الوراء فيودع العالم بنظرة... إن
الروح الراحلة تريد أن تتكئ قبل رحيلها على صدر محب، والعين المغمضة
تحتاج قبل إغماضها إلى دموع الإخلاص، بل إن صراخ الحياة لينبعث من
صميم القبر، فيضرم نارها في رمادنا البارد.

* * *

وبعد، فيا أيها الشاعر الذي يقوم في المقابر، ويندب الموقى المنسين، إني
لألتفت الآن إليك، فأرى رجلاً مثلك، شاعراً هائماً، قد جاء يبحث عما حل
بك، وانتهى إليه مطافك، فوجد فلاحاً هراماً فسأله عنك، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من
ذروة التل.

وطالما لحناه في الظهيرة ممتدداً بجسمه المنهوك على أقدام تلك الشجرة
الهرمة، وفوق جذورها الباردة العجيبة، يرقب الجدول الذي ينساب إلى جانبه،
ويتأمل مياهه الهادرة المتكسرة، وطالما أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه
الغابة، باسماً أنا كأنه ساخر من كل شيء، وأنا عابساً كثيباً كأنه مضني هدته
الآلام، أو مريض قتله الحب اليائس.

* * *

وفي ذات صباح، نظرنا إلى الهضبة فلم نجد، فبحثنا عنه في الذروة،
وعند الشجرة، وإلى جانب الجدول، وبالقرب من الغابة، فلم نقع له على أثر،
ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه.

ثم رأينا بعدُ نعشه محمولاً إلى المقبرة، ترتل من حوله أناشيد الموت.
وها هو ذا قبره، قائم تحت تلك الشجرة التي كان يجلس إليها، فتعال
اقترب... اقرأ ما عليه:

«هنا... في حضن الأرض، يرقد شاب تجهله الثروة، ولا يدري به
المجد، ولا يعرفه إلا الحزن الذي اصطفاه خليلاً وهو في المهد، كان كريماً
مخلصاً، فكانت مكافأته عظيمة، منح البائسين كل ما يملك: هو ودمعه! ومنحه
الله كل ما يطلب: وهو صديق. لم يجب أن يفيض في ذكر مزاياه أكثر مما أفاض،
ولم يشأ أن يهتك السر عن نقائصه، لأنه استودعها كلها الله الذي لا تضيع
عنده الودائع».

من أحاديث الإذاعة : بين البهائم والوحوش

نشرت سنة ١٩٤٧

أيها المستمعون الكرام . أنتقل بكم هذه العشية إلى بقعة في مصر، جمعت فيها عجائب البلدان، وغرائب الحيوان، فوضع فيها البحر بحيتانه وتماسيحه، وأفراسه وسباعه، والبرُّ بصحاراه وغاباته، وأسوده وفهوده، ووعله وغزلانه ونقلت إليها الذرى المخضرة من لبنان تتفجر منها البنايع وتتحدّر السواقي، وتغنيّ عليها البلابل والشحارير، ومدت فيها القفار الجرداء من الجزيرة تسعى فيها المها وتتسابق العير، والأحراج الملتفة من الهند تمشي فيها الفيلة، والثلوج المسبوطة من القطب تخطو عليها الدببة . وعاشت فيها الحيات والثعابين إلى جنب الحمام والعصافير، وصحبت فيها المعزى الذئباب، والثعالب الدجاج، والسباع البشر . وفيها (الجبلاية) هذا الجبل المسحور، تدخل منه إلى مسارب منحوتة في الصخر ولا صخر، وكهوف تتسلل فيها العيون ولا عيون، وقاعات في باطن الأرض كأنما هي قد أعدت لتكون مخادع للحب أو محاريب للتأمل، وكأنما هي أحلام شاعر قد تحققت، وأمنية حالم قد تجسّمت، وطرق ظاهرة وخفية، تنقلك في خطوات من حر الصيف إلى برد الشتاء، ومن جلوات الطبيعة في أعراس الربيع، إلى خلوات النفس في نشوات الرؤى تلك هي (حديقة الحيوانات).

وهي بعد هذا كله معرض للإنسان، ترى فيه طباعه وأزياءه، وخلائقه ولغاته، تسمع فيه أشتات الملاحظات، وعجائب التعليقات، تمشي مع الناس فتجد فيهم من يسير على هدى فيرى كل شيء ويقف عليه، ويخرج وما فاته

مشهد، ولا ناله تعب، ومن يدع اللوحات الدالة على الطرق، والحراس المرشدين إلى المسالك؛ ويسير على غير الطريق، فيدور دوران السانية، فيتعب نفسه، ولا يبصر شيئاً، ولا يخرج بفائدة، فكأنه الرجل الضالّ الذي يترك هذّي الأنبياء، وحكمة الحكماء، ويتبع عقله الأعوج وهواه، فلا يسعد في دنياه، ولا يسلم في آخره، وتمرّ على حراس الحيوانات فتجدهم قد فرقت بينهم الحظوظ إذ ساوت بينهم الوظيفة، فحارس القرد والفيل والدب الأسمر، يلعب حيوانه فيقف عنده الناس، وتلقى إليه القروش، فيتسلى ويتغنى^(١)، وحارس الخنزير لا يلتفت إليه أحد.

زرت الحديقة، ومشيت مع الناس أنظر كما ينظرون إلى أنواع الحيوان، وأرى فيهم أمثالها، ولكنها قد تلففت بالثياب، ففيهم أسد له بطشته وإن لم تكن له لبدته وفيهم ثعلب له حيلته وإن لم تكن له فروته، ودب له غلظته، وحمار له غفلته، وطاووس له خيلته^(٢) وذئب له عدوته، حتى وقفت على الأسد وهو يدور في قفصه متألماً في صمت، صابراً في استكبار، كأنه النابغة من الناس جسوه في (قفص) من وظيفة صغيرة، أو إفلاس شامل، أوقرية منقطعة. يلحظ الناس بطرف عينه يقول: آه، لو كنت طليقاً في البادية يا أيها الـ... بشراً ورأيت الحارس يخرج به إلى متنزهه: إلى القفص الضيق، بعد القفر الواسع، والفضاء الرحيب، يذله بعصاه، ويستطيل عليه بسوطه، كما يستطيل الفرنسي اللثيم على المغربي الكريم، ويذله بسيف العدوان وقوة السلطان، وسمعته يزأر مقيداً، كما يصيح المصلح في أمة أفسدها التقليد، فلا يفزع من زئيره إلا الصبية الصغار، ولوزأر عند العرين لخلع هذي القلوب وزلزلها حتى قفزت من حناجر أصحابها.

ووقفت على الفيل وقد تواضع، حتى غرّ الناس منه لينه فسوا شدته، وهان على أحدهم حتى أركبه صبيته، وصرفه الفيال واتخذ له لبعته، كما يطيع الرجل امرأته، فيضيع رجولته، ويفقد منزلته.

(١) أي يستغنى ومنه (ليس منا من لم يتغن بالقرآن).

(٢) الخيلة: الخيلاء والكبر.

ووقفت على دَينٍ متجاورين، أبيض كبير، قد اتخذوا له في قفصه من
الجلس كهيئة الجليد، ووجهوا مسكنه إلى الشمال حتى يظل بارداً، لا تدخله
الشمس، فيظنه موطنه، وموطنه هناك على حدود القطب الشمالي... ولكنهم
لم يخدعوه، إنه ينظر فيرى قوماً لا يشبهون قومه، إذ لم تستعبدهم فئة قليلة منهم
ولم تظلمهم باسم العدل، ولم تخرسهم باسم حرية الكلام، ولم تملك دونهم كل
شيء وتستمع بكل متعة، بشريعة ماركس ودين ديموس^(١).

ودب أسمر صغير...

يدور الأبيض النهار كله، غضبان أسفاً لا يهدأ ولا يستريح فلا يصل إلى
شيء، ويلعب الأسمر بكرة من الحديد، ويراوغ الحارس، ويضحك النظارة،
كلاهما سجين ولكن هذا ينسى سجنه، وذاك يذكره أبداً، كالناس منهم من
يذكر المصيبة، ويدنيها من خياله، فيراها أبداً أمامه، ومنهم من (يخادع نفسه في
الحقائق) فتصفوا له الحياة.

والأبيض على جمال شكله ونعومة جلده، ثقل سمج، والأسمر على
قبحه لطيف خفيف، لأن الجمال جمال الروح، لا جمال الجسد، فرب حسناء
تنبو عنها القلوب، وغير ذات حسن تهواها الأفئدة، وتعلق بها العيون.

ووقفت على القردة، وهي تعيش العمر كله مجلس هو ولعب تقلد كما
يقلد (قردة) البشر، ولكنها تقلد فيما ينفعها وهؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم، وعلى
البيغاء وهي تردد ما يقال بلا فهم، كهؤلاء الذين يعيدون علينا كل ما يقول
الغريبون، وعلى الحيات وهنّ ناعمات اللمس، ناقعات السم، كالصديق
المخادع، يُخَالِكُ ليخانتك، ويسقيك من قوله العسل، وفيه من قبح مقصده
الحنظل.

ومررت على فئات الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها، ومطاعمها
ومشاربها، من كل سائر أو سابع أوطائر، مما يحارب بمخلبه ونابه، كالشجاع

(١) ديموس باليونانية الشعب ومنه اشتق اسم الديمقراطية.

الأبي، وما يدافع بسّمه كالنّمام المفسد، وما يقاتل بثقل جسمه كثقال الروح من الناس، والقنفذ وسلاحه وشوكة كسليط اللسان، بذيء المنطق. والسلحفاة وسلاحها درعها كالمنطوي على نفسه، المعتصم بصمته. والطاووس هو كالمرأة سلاحه جماله وحسن منظره... والذي يعيش فيه الماء نظيفاً مطهراً كالسمك، والذي يغتسل في اليوم عشر مرات كالذب، والذي لا يطيب له العيش إلا في الأوساخ والقاذورات كالخنزير، يبلغ فيها كما يبلغ المغتاب في أعراض الناس، وينغمس انغماس الفاسق في حمأة الفجور. وسبع البحر وهو أعلاها صوتاً، وأضخمها زئيراً، وأقلها غناء، وأضعفها قوة، كالجبان الفخور، والجاهل المدعي وما ينحطّ على فريسته من عل كالنسر، وما يأخذها قوة واقتداراً في وضح النهار كالأسد، وما يسلك إليها المسالك المظلمة، ويتسلل صامتاً خلال الحجارة وفي أصول الجدران كالحيات. وعلى الغزلان والعصافير وهي أبهى الحيوان فلا يقف عليها أحد لكثرتها ويقفون على حيوان قبيح لأنه نادر، لأن قيمة الشيء بندرته لا بمنفعته، ولولا ذلك لما كان الهواء أرخص شيء، والألماس^(١) أغلاء.

... حتى مررت على طائفة من الحمير محشورة في زريبة، طائفة من حمير الشارع تأكل وتمز أذناها، تتلفت ترقب العصا تنهال عليها كما يرقب الذليل المهانة، ويعجب إن افتقدها، فلما لم ترها وعرفت أنها في أمان منها بطرت بطر حديث النعمة، وترفعت ترفع اللثيم يسود في غفلة من الدهر، ونسيت ما كانت فيه كما ينسى غنيّ الحرب عهد الفقر، ويأنف من السيارة الفورد وكان لا يجد عربة الكارو، ويدخل أولاده المدارس الأجنبية وكان لا يعرف طريق الكتاب.

يستخشن الخرز حين يلبسه وكان يُسدي بظفره القلم

وفكرت هذه الحمير وقدّرت، فانتهى بها التفكير إلى أنها لم تعد حميراً وإنما صارت بشراً، أليس في البشر (حمير)، فلماذا لا يكون في الحمير بشر؟

(١) لأن أصله ألماس واللام فيه أصلية على الأصح.

ومرّ حمار مسكين، يجر عربة مثقلة بالحشيش لطعام حيوانات الحديقة فنظر إليها فلما رآها... أجفل وارتدّ...

ما هذا؟ حمير مثله؟ إنه يفهم أن يكون في الحديقة نسور وصقور، وفهود وغور، وزرافات ونعام، وأن يكون فيها حمير الوحش لأنها غريبة المنظر، بعيدة الموطن، نادرة الوجود، أما أن يكون فيها حمير مثله، تسمّن وتخدم ولا تعمل، فهذا ما لا يفهمه أبداً.

ووقف ونهق لها يحميها، فترفعت عنه وتألّت من تطاوله عليها، ومدّت شفاهها الرقيقة، وضمت آذانها القصيرة، ولوحت بأذنانها استنكاراً واستكباراً ونسيت أصلها وتجاهلت أخاها كما يفعل الموظف الصغير الذي يعيش بمال الأمة إذا وقف عليه أحد أبناء الأمة يسأل حاجة، إنه يظنه يسأل صدقة، أو يطلب إحساناً، أو الشرطي حين يلقي البائع السيّار من أهل بلده، وترجمان المستشار حين كان يقابل واحداً من بني قومه...

فلما رأى ذلك منها، بصق ومشى يلعن الحظ الذي جعل (الحمير...) سادة، وأقام (الناس) لهم خدماً وخولاً! ويكفى على خلّاتق الجنس (الحماري) لقد ضاعت تلك الخلّاتق، وهبطنا حتى صرنا مثل بني آدم، لا نعرف أقدار أنفسنا ولا أقدار إخواننا.

* * *

وجعلت أعاود الحديقة، وأكرر زيارتها، فأرى هذه الحمير محشورة في الزريبة، تأكل وتشرب، وتتعجب لماذا لا يقف عليها أحد! إنها لا تلعب لعب القردة، ولا تغني غناء البلابل، ولا تملك هيئة السبع، ولا ضخامة الفيل، ولكن لها فنّها وجمالها، وما الفرق بينها وبين غيرها، ألا يقرأ الناس لأدعياء الرمزية، ولصقّاء الأدب، ولصوص البيان، كما يقرأون لأئمة البلاغة، وملوك الكلام؟ ولكن هذه (الفلسفة) لم تقنع أحداً فظل الناس معرضين عنها، لا يحفلون بها. وماذا يبتغون بها. وماذا يبتغون منها؟ وهل قلّت الحمير حتى ماتشاهد إلا بقرش صاغ؟ إن الحمار يبقى حماراً ولو وضعت في القصور، وأركبته السيارات، وكسوته الحرير، وأطعمته الفستق المقشر...

حتى كان أمس فرأيت القائمين على الحديقة، قد عزموا على إخراج هذه الحمير منها، كي يوفروا على أنفسهم ثمن طعامها، ويتفخوا بجهدا وعملها، ويحْمَلوا الحديقة بإبعادها عنها. . .

فعلمت أن هذه آخرة كل (حمار) يتجاوز قدره، وينسى أصله، فليعتبر سائر (الحمير)!

* * *

يا سيدات ويا سادة. العفو إذا لم أجد ما أحدثكم به إلا حديث الوحوش والحمير، فالحديث عنها، أكثر فائدة، وأسلم عاقبة من أحاديث الناس. والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

نشرت سنة ١٩٤٦

«ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً - وكان الإنسان كفوراً - وكان الإنسان قَتوراً - وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً - وخلق الإنسان ضعيفاً - قُتل الإنسان ما أكفره - يا أيها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم - وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه - وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرِّ مسِّه - وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمةً فرح بها وإن تُصِبهُم سيئةٌ بما قدَّمت أيديهم فإنَّ الإنسان كفور - إن الإنسان خلق هُلوعاً، إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً، وإذا مسَّه الخيرُ منوعاً إلا المصلين الذي هم على صلاتهم دائمون. - إن الإنسان لكتودٌ - كلا، إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى».

(١) كتب الأستاذ عبد المنعم خلاف في شرح دعوته إلى الإيمان بالإنسان كتاباً كبيراً قيماً، ناظرناه أنا والأستاذ محمود شاكراً فيها ساعات طويلاً السنة الماضية في داره ودار الأستاذ الزيات ودار الأستاذ شاكراً وتكلمنا فيها في دار الدكتور عزام، وليس عندي جديد لم أقله يومئذ فأقوله اليوم، وما أظن أن عند الأستاذ جديداً فيها لم يكتبه في كتابه، فلست أجد اليوم هذه المناظرة ولكن أذكر الأستاذ بما لم ينس من حكم الإسلام في هذه المسألة وأبين له لم لا أؤمن (أنا) بالإنسان. والأستاذ خلاف صديقي ورفيقي في (دار العلوم) سنة ١٩٢٩. وقد كان رفيقي في الدار «سيد قطب» رحمه الله وكنا في سنة واحدة ولم أكمل الدراسة فيها.

كلام مَنْ هذا يا أخي يا عبد المنعم؟ أبعيد قول الله مقال لقائل؟ وإذا كان الله الذي خلق الإنسان على أحسن تقويم، وكرّمه وعلمه البيان يقول إنه ضعيف هلوع، جزوع من الشر، منوع للخير، منكر للنعمة، كفور قنور كنود عجول جدل، يطغى إذا استغنى، وإن هذا كله في طبيعته وتركيبه — تريد أن تؤمن به؟ وبِمَ تؤمن؟ إن ها هنا محذوفاً لا بد من تقديره، فالإيمان هو التصديق، ونحن إذ نؤمن بالله نصدّق بوجوده واتصافه بكل صفة خير، وننزّهه عن كل صفة شر، فماذا تريدني أن أصدّق حين أؤمن بالإنسان؟ أبكماله النسبي وسموه وأنه مخلوق خيّر؟

إذا كان هذا هو المراد فأنا أؤمن... ولكن بالإنسان الذي أصلح إنسانيته بالإيمان والعمل الصالح. فإذا لم يفعل عادت هذه الإنسانية خسراً لصاحبها ووبالاً عليه، وكانت (حمارية) الحمار و(كلبية) الكلب، خيراً من هذه (الإنسانية) في الدنيا، وأنجى منها من العذاب في الآخرة. ولست أنا الذي يقول هذا الكلام، وليس هذا رأياً أراه، ولكنه قول ربك الذي أقسم عليه ورب هذا الإنسان: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

فإذا كنت تؤمن بالإنسان الذي أدرك ما خلق له فسعى إليه، وعرف الله فأطاعه، فأنا معك، وإذا كنت تؤمن بالإنسان من حيث كان إنساناً، فلا يا أخي، إني لم أجد دواعي هذا الإيمان. وهذا تاريخ الإنسانية كله، نحّ منه الأنبياء ومن ساروا على هديهم، وأصلحوا فساد إنسانيتهم بشرائعهم، ثم انظر ماذا بقي، وقل لي أين الإنسان الذي تؤمن به؟ الإنسان الذي قتل أخاه وتركه في العراء حتى علّمه غراب أسود كيف يوارى سواة أخيه؟ أم الإنسان الذي ارتقى حتى صار يقتل بالقبلة الذرية الآلاف من النساء والولدان لا يجنون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً ولم يذنبوا ذنباً، ولا أعلنوا حرباً؟ أم الإنسان الذي استغل هذه الحرب، وهي مأثم الإنسانية، فأخذ اللقمة من فم المرأة التي سبق زوجها إلى القتال، والولد الذي أخذ أبوه إلى الحرب، حتى إذا ماتوا من الجوع لبس الحرير ودان بالفجور، ورقص على جثثهم في هذا المأثم الباكي؟ أم

الإنسان الذي يخون عهده وينسى الخبز والملح على حين نفي الكلاب؟ أم الذي يجزع ويضيق صدره ويبعد صبره على حين تصبر الحمير؟ أم الذي يشقى غيره ليسعد نفسه، على حين يتعاون النمل والنحل على مافيه خير الجميع؟

الإنسان الذي انفرد دون سائر الأحياء من ملائكة وحيوانات بالكفر بالله، لا يشاركه هذا (الشرف...) إلا الشياطين وهم كفار الجن، على حين يسبح بحمد الله كل شيء؟ أهذا الذي تؤمن به؟ وأين دواعي الإيمان حتى أؤمن مثلك؟ دلي عليها يا أخي فإني لا أراها. إني لأتلفت حولي فلا أكاد أرى إلا آكلًا الدنيا باسم الدين، أو شاربًا دم الوطن باسم الوطنية، أو سارقًا أموال الناس باسم التجارة، أو حافراً بئراً لأخيه وهو يسم له بسمة الإخاء، أو متعالياً على الناس باسم الوظيفة وهو أجيرهم، أو أستاذاً يستغل منصب التعليم وهو من عمل الأنبياء ليعتدي على عفاف تلميذته؛ أو طبيباً يسطو على عرض مريضته أو ممرضته، أو محامياً يأخذ أجره الوكالة من (جمال) موكلته، وامرأة تخون زوجها، وزوجاً يخالف إلى غير امرأته، وكل يكذب بقوله وعمله ويظهر غير حقيقته، والكبير يأكل الصغير كما تأكل الحيتان السمك، ويتربص به ليلدغه كما تلدغ الحية، فأين الإنسان الذي نؤمن به يا أخ؟ إني لأقوم على الطريق فأنظر فلا أكاد أرى إلا ذئباً يلبس الثياب ثم يسطو كما تسطو الذئاب، أو ثعلباً مثل الثعالب، أو ثعباناً ناعم الملمس ناعم السم، أو ضفدعاً لها صوت الثور ولكن لا تجر المحراث، أو ضبعاً تأكل أجساد الموتى، أو جرثومة فتاكة تفسد في الخفاء، فأقول سامح الله عبد المنعم! أهؤلاء هم البشر الذين نؤمن بهم؟!!

وأنقل البصر إلى ديار المتمدنين فلا أرى مدنيّتهم إلا أظافر من حديد ومخالب من فولاذ كأظافر الوحش ومخالبه. ولكن الوحش يفترس ليعيش هو، وهؤلاء يجاربون لئلا يعيش غيرهم؛ ووجدتهم استخدموا قوى الطبيعة ولكن للشر، واستعملوا عقولهم ولكن في الضلال. وهذه طبيعة الإنسان، فلا تقل إن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه، فإن هذا حجة لي، لأن أبوي المولود من البشر، فإذا كانا يفسدان الفطرة فلأن الإفساد من عمل الإنسان، ما عرفنا حيواناً يفسد فطرة الله في وليده لا سبعاً ولا قطاً ولا دودة

ولا طائراً؟ أوليست نفس الإنسان يا أستاذ أمانة بالسوء؟ أليست أخت الشيطان: تصفد الشياطين بالأغلال في رمضان فتخلفها نفوس بني آدم فتعمل عملها وتفسد فسادها، وتوسوس وسواسها (فوسوس إليه الشيطان) (ونعلم ما توسوس به نفسه) (إن النفس لأمانة بالسوء)، وما نفس الإنسان؟ إنها طبيعته التي طبعه الله عليها.

وما دام كلانا (والحمد لله) مسلماً، فعلام نختلف في حكم من أحكام الإسلام وهو أن هذه الحياة الدنيا طريق له غاية خلق الله الناس لها، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وأن من يحرص على راحته في سفره، ويتخير لذلك الزاد والمركب ولا يكون له مقصد من السفر، لا المنفعة ولا المتعة ولا السياحة فهو أحمق، وأن كل عمل يعمل من لا يؤمن بالله، وكل اختراع يخترعه سراب بقية، لا يزيده من الله إلا بعداً، ولا يكون في نظر الإسلام إلا دليلاً على جهله وضلاله وخساره.

أيستطيع مسلم يا أستاذنا عبد المنعم أن ينازع في هذا؟ فما النتيجة؟ هي أن الإنسان شر الدواب في الدنيا، وأخرى المخلوقات يوم القيامة ما لم يظهر نفسه بالإيمان، ويصلح فساد نفسه بالاتصال بالله.

وهل أدل على ندرة الحق والخير والجمال في عالم الإنسان من كونه جعلها مثلاً أعلى، ومطمحاً من المطامح البعيدة، وأملاً من الآمال النائية؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه، وكانت طبيعة ملازمة له، ما جعلها كذلك. فلو كان صادقاً ما كان يمدح الصادق بصدقه، ويعجب منه أن لازمه وأقام عليه. ولو كان وفيّاً ما كان رابع المستحيالات عنده... الخلل الوفي. إنما يطمح المرء إلى ما لا يملك، وإن مائة الدينار من الذهب هي (مثل أعلى) للفقير المفلس، ولكنها عند الغني حقيقة تافهة.

ألا إني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره، ولكني لا أؤمن بإنسانك هذا؟ فهل عليّ من الله من شيء؟

إذن فليقل الناس عني ما شاءوا!

من أحاديث الإذاعة : حكمة القدر

نشرت سنة ١٩٤٨

دخل علينا أمس، وكنا جماعة في المجلس، صديق لنا، فقال إن ابنة الأستاذ حبيب زحلاوي قد سقطت من الطبقة السادسة إلى الشارع! فارتعنا جميعاً، وأعظمنا الخطب، وكنا نعرفها طفلة حلوة ملء إهابها الطهر والجمال والنشاط، فلم نستطع أن نتصورها وهي مزق من اللحم قد اختلط بعضه ببعض ووجنا وكانت سكتة لم يقطعها إلا ضحك صديقنا المخبر، فعرفنا أنها مزحة ثقيلة من مزحاته، وأقبلنا عليه نسبه ونشتمه، فقال: والله ما كذبت عليكم، لقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم تصب بشيء، وهي سليمة...

فصرخنا جميعاً: سليمة. قال: نعم والله. ألا تصدقون؟ إنها وقعت على حبال الغسيل الممدودة بين الشرفتين حيال الطبقة الخامسة، فعافتها قليلاً، ونفذت منها إلى حبال الطبقة الرابعة، وما زالت تمر من حبال إلى حبال، حتى إذا بلغت الشارع، كانت سقطتها على كومة من الرمال، صبتها سيارة صباح ذلك اليوم، فلم تصب بأذى.

ومضى يحلف ويؤكد الإيمان أن الذي يرويه هو الصدق والحق، وأن صبياً لصديق آخر لا أسميه لئلا أسوءه، وأذكره بمصابه، وقف على مكتب أبيه يلعب، فرأى صورة معلقة بالجدار، فوثب يريد أن يصل إليها، فوقع على أرض الغرفة، وكانت من البلاط، وكانت السقطة على يافوخه، فمات لساعته.

وقال معلقاً ومتفلسفاً: فقيم إذن نفكر وندبر، مادام لا ينفعنا فكر ولا يفيدنا تدبير، ولم لا ندع الأمور للقدر ونتركها تجري على أعنتها كما يريد لها مجريها، وما دمنا لا نملك أنفسنا ولا نعرف مصائرنا، وما دام هذا الكون كالمعمل الضخم، المشتبك الآلات، المتعدد الحركات، وما نحن إلا مسمار صغير فيه، نسير كما يسيرنا (مهندس) الأعظم...

وأسرع واحد منا، فقال مصداقاً: نعم، ولكننا خلقنا للشقاء، وأقمنا هدفاً للمصائب، ووضعنا في دنيا ما فيها إلا الآلام. من سلم منها اليوم وقع غداً، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من علته، أو مات وهو صحيح معافى، ما من الموت بد... ولا بد قبل الموت من البلايا والمتاعب...

وتكلم ثالث، يرى نفسه من كبار العقلاء، فأنكر القدر، وجحد المقتدر. وزعم أن الحياة ليست إلا عجيبة في يدك، أنت تدبرها وتصورها، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها، وإن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبحها... إن مرضت فمن إقلالك الغذاء وإهمالك التوقي، وإن دعست^(١) فمن تركك الحذر، وإن افتقرت فمن قعودك عن السعي... وأمثال هذا الكلام.

فقلت له: فلم ولد هذا في دار علم وتهذيب فتعلم وعرف سبل الوقاية، وخطر الأمراض، ونشأ ذاك في بيت جهل وفساد، فشبَّ جاهلاً فاسداً، لا يعرف كيف يتقي الداء؟ ولماذا دعس هذا من قلة حذره، وسلم من هو أقل منه حذراً، وطريقه أشد خطراً؟ ولماذا يسعى الرجل حتى تنقطع من السعي أنفاسه ويرجع ولم يصل ولا إلى مثل خفي حنين، وتأتي الأموال لآخر بلا سعي ولا طلب؟

ولماذا يتاح لهذا النابتة أن يظهر نبوغه، حتى يكون اسمه تسييحاً على كل لسان، وعنواناً في كل كتاب، ويجهل من هو أحد منه ذكاء، وأكبر موهبة، وأظهر استعداداً للنبوغ؟

(١) الدعس من العامي الفصيح.

ولماذا؟ ولماذا؟ وألف لماذا، لو شئت لسقتها لك فما استطعت الجواب على واحد منها. فما أنت في الوجود؟ هل تسير أنت الفلك على هواك، وهل تسوق الكون إلى غايتك. هل أنت إله؟ إنك ما كُونت نفسك، ولا شققت بيدك سمعك ولا بصرك.

قال: فهل ترى أنت أن الإنسان مسير؟

قلت: ما مسير؟ وما مخير؟ وما هذه الفلسفة الفارغة؟ لقد اشتغل بها البشر، من يوم بدؤوا يفكرون واختلفوا عليها، وتجادلوا، ولا يزالون يختلفون ويتجادلون، لم يصلوا إلى شيء. وإنما تاهوا في بیداء لا أول لها ولا آخر، وهاموا على وجوههم في مهمة متشابهة الأرجاء، بلا أمل ولا رجاء، فذهب هذا ينكر القدر، ويزعم أن الحياة ملك الإنسان، وأحداثها صنع يديه، وراح ذاك ينكر إنسانيته، ويحدد نفسه ويرأها مسماراً في آلة الكون، وحجراً في جبل، يدور مع الأرض أنى دارت. وكان هذا متشائماً لا يرى إلا الذي وقع عن الكرسي فمات، فاعتقد أن الدنيا دار المصائب، وكان ذلك مغروراً، لم يبصر إلا التي وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت، فحسب أنه يسلم من كل أذى.

ونحن مع القدر بشر، لا آلهة ولا حجر، والدنيا ليست مسرة كلها ولا مصائب ولكنها مسرة وكدر.

وأنا كلما فكرت، وذكرت ما رأيت من الحوادث بعيني ازدادت يقيناً بأن أكثر الناس لا يعرفون سر الإيمان بالقدر:

رأيت الترام مرة وقد انكسر مقوده، فانحطّ من المنحدر الهائل عند (الجسر) في دمشق، وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنعطف، فلما رآته مقبلاً كالموت النازل، سمّت رجلاها من فزعها بالأرض، وجمدت ولم يجرؤ أحد أن يدنو لإنقاذها فيموت معها، والوقت أضيق من أن يتسع لشيء، فأغمضوا عيونهم حتى لا يروا... فلما وصلت الحافلة إلى المنحنى تركت الخط وسارت قدماً، فصدمت جداراً من اللبن ضعيفاً، ومرت منه إلى قوم في دارهم فقتلتهم.

ورأيت مرة بعيني شباباً يمشون تحت فندق (عدن بالاس) في دمشق فرفع أحدهم رأسه فجأة فرأى شيئاً يهوي قد صار حيال بصره فتناوله بيده، وإذا هو صبي رضيع وقع من شبّاك الفندق، وهبطت أمه كالمجنونة، وهي امرأة من (حماة) فرأته سالماً...

ورأى غيري حوادث مثل هذه الحوادث. وفي كتاب (الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي) مئات من القصص عمن نجا وهو في لَحْجِ الهلاك، وفي كتاب الحياة آلاف من الأخبار عَمَّنْ هلك وهو على بر النجاة.

فما سر هذه العجائب؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطّي الترام، ومات قوم اتخذوا كل أسباب الوقاية، فدخلوا دارهم، وأغلقوا بابهم، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم، وكيف وقعت البنت فلم تمت، وتموت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع؟ إن هذا هو السر الذي لا يعرفه أحد، فلا تحاولوا كشف سر القدر، ولكن استفيدوا من حكمة القدر، وهذا ما سقت له حديثي.

ستقولون، وماذا نعمل؟ هل ندع أولادنا يسقطون من الشبايبك لا نبالي لأنها إن كانت لهم حياة فسيبعث الله لهم حبالاً تمسكهم، أرجالاً تتلقاهم، ولنقعده عن السعي لأنه إن كان لنا رزق فسيأتينا بلا سعي!

لا يا سادة، ما هذا طريق فهم القدر، ولا هذه حكمة القدر.

صحيح أن الرزق مقدّر، فهذا وضع رزقه على مكتبه، فما عليه إلا أن يقعد على كرسيه، ويمسك قلمه، ويكتب اسمه الكريم كل نصف ساعة مرة على أوراق تعرض عليه، وهو يشرب قهوته، ويدخن دخيته، فيأتيه الرزق، وآخر وضع رزقه في رأس الجبل عليه أن يصعد إليه، أو في بلد بعيد عليه أن يمشي إليه، أو في باطن الأرض ينزل إليه، أو في جوف البحر يغوص فيه، أو في جيوب الناس، يأخذه منها ليقبض عليه، فيتحوّل رزقه إلى السجن.

كلّ يأكل لقمته، ولكن من الناس من تجيئه اللقمة في صحيفة من الفضة، ومن يأكلها مغموسة بالدم، أو مبللة بالعرق، أو ملطخة بالوحل.

لا لا تقل ما سر القدر، فما كشفه صاحبه لأحد، ولكن ما دام الأمر مجهولاً، فاسع أن تأكل أنت لقمتك بطبق الذهب، وجدّ وايدل الجهد، فإن لم تصل إلى ذلك وصلت إلى الرضا والتسليم بحكم القدر وتلك هي حكمة القدر.

والأجل محدود، لا يدفعه إذا حضر حذر، ولا يضر إن امتد خطر، وقد يموت الشاب الصحيح، ويعيش الشيخ العليل، ويهلك المعتصم بسبعة أسوار، ويسلم الجندي الذي يقتحم النار، أعرف رجلاً من أبطال الثورة السورية، رمى نفسه على الموت خمسين مرة فكان الموت يروغ من تحته ويهرب منه، ثم انتهت الثورة، ونام في فراشه، فاخصم اثنان من السكاري. فأطلق أحدهما رصاص مسدسه، فأصاب خطأ رأس صاحبنا الذي نام فما قام.

وروى ابن الجوزي أن رجلاً أغمي عليه فحسبوه مات، ونصبوه على السرير، وجاؤوا بالمغسل ليغسله، فلما أحس برد الماء، تيقظ ونهض، فارتاع المغسل وسقط ميتاً.

فلا تسأل ما السر، ولكن جاهد في سبيل الله، وناضل عن الحق، ولا تخف الموت في جهادك ونضالك لأن الأجل محدود، فقد تعيش مائة سنة ولو خضت غمرات الموت، فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك ميت غداً، فتكون قد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة، وهذا حكمة من حكم القدر.

فالإيمان بالقدر حياة لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء، وفي كل عسرة باب رجاء، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه قبل أن يميت المرض، ولقتل الجندي في الحرب من خوفه قبل أن يقتله العدو، ولولا الرجاء ما كانت الحياة.

ولو تركت الأمور لاحتتمالات العقل، وقوانين المادة، لما استطعت أن تتنفس الهواء أو تشرب الماء خشية أن تكون فيه جرثومة داء، ولا ركبت سيارة لاحتمال أن تصطدم، ولا صعدت بناء لإمكان أن ينهدم، ولما استولدت ولداً

لأنه قد يموت، ولا اتخذت خليلاً لأنه قد يخون، ولما اطمأنتت على مال لأنه قد يسرق، ولا دار لأنها قد تحرق.

والإيمان بالقدر راحة لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك، وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفاً إن فشلت، أو سُبقت.

والإيمان بالقدر عزاء، لأنك إن قَدَّرَ عليك بالمصائب بولد، فاحمد الله ففي الناس من أصيب بولدين، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين.

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى، ونبذل الجهد، ثم لا نحزن إن فشلنا، ولا نبأس إن لم نصل إلى ما نريد، وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً فيه السيارات المزدحمة، فإن ذكر حوادثها وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يردَّ عنه السيارة المقبلة، ويدفع الخطر الآتي، لم يسلم، ولكن إن انتبه وسار بحذر، فهذا هو العاقل، ثم إن نجا حمد الله أن قدر له النجاة، وإن أصيب ذكر أنه لم يقصّر، وإنما هو حكم القدر...

نشرت مستهل ١٩٣٨

انصرف الطلاب إلى النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات، وخلت رَدْهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود، فلم أكن أُلح في خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون. . . ترنُّ هذه الأصداء في أذني، فإذا أنا أراها بعيني تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (في كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد في أنحائها وغرفها وممرّاتها.

فجلست أصغي إلى أناشيد الصمت التي كانت تسمع من حولي باستمرار فأجدها تملأ قلبي مرارة وأسى.

ثم رفعت رأسي فجاءةً إلى التقويم فنظرت فيه وجد بصري عليه. . . أمن الممكن هذا؟ أيجد هذا كله في هدوء. . . يموت في هذه الليلة عام ويولد عام، يمضي الراحل بذكرياتنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا، وقسماً من حياتنا، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً. . . وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم. . . ولقد تعودت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام، أصفّي حسابي مع الحياة، أنظر ماذا

أخذتُ، وماذا أعطتُ، وأراقب هذه القافلة من السنين التي بدأت مسيرها منذ... منذ بدأ الزمان، لست أدري متى بدأ الزمان، والتي تنتهي إلى حيث لا يدري أحد.

تعوّدت أن أعطي نفسي من فكري ساعة في العام، أفكر فيها في نفسي وفي الوجود...

* * *

نظرت فلم أجد حولي إلا كتاب التفسير أحضر منه درسي الذي سألقيه غداً، وكتب البلاغة التي أكسر بها دماغي وأدمغة الطلاب من غير طائل... فنحيتها كلها ووجدت ركام (الوظائف) التي يجب عليّ أن أنظر فيها وأصححها، وأقرأ كل ما تفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء، يدعو أصحابه (إنشاء)... فبعثتها في غيظ وحنق.

أنا في هذا البلاء منذ عشر سنين، عشر سنين يا لها من دهر طويل! كان ربيع حياتي، وزهرة شبابي، أضعته كله في هذا العناء، فماذا استفدت؟ لا شيء إلا أن أحرقت نفسي كالشمعة لأضيء هؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب، وعشت بهم دهرًا ولهم، واعتصرت لهم ماء شبابي، ثم فرّق الزمان بيني وبينهم، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق، ولم يعرفوا مكاني لأنهم لم يفكروا في أن يعرفوه.

فأنا أحترق كالشمعة! يا للحقيقة المرّة المروعة! يا لشمعة شبابي التي ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ!

إني أعيش في العدم، أعيش في الماضي بالذكري، وفي المستقبل بالأمل، مع أن الحاضر وحده هو الموجود، لقد مضى أمس إلى حيث لا رجعة ولن يأتي المستقبل أبداً.

أين هو هذا المستقبل؟ ومنذا الذي يستطيع أن يصل إليه؟ لقد جلست في مثل هذه الليلة من العام الذي يموت الآن، في شرفة منزلي بالأعظمية

(بغداد) أحلم بالمستقبل. بهذه السنة التي كانت مستقبلي، أسمى إليها، وأؤمل أن أدركها، فلما أدركتها صارت (حاضراً) وطفقت أعدو إلى مستقبل آخر. إنني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التي يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعي، ولا ينالها أبداً، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه!

يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد، فنسعى فلا نجد إلا سراباً. إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد. أفليس من سخافات الفكر الإنساني أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلاً على أننا لم ندرك بعد حقائق الحياة؟

لقد كنت في (الأعظمية) غيباً جاهلاً، لأنني كنت مطمئناً متفائلاً. كنت كلما ودعت بالحياة عاماً، انتظرت آمالي عند آخر، ولكنني صحت الآن فلا آسف على ماضي، ولا أؤمل في مستقبل.

لقد قدّر عليّ ألا أشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطني بعيداً عن أهلي تارة في مصر، ومرة بالحجاز، وحيناً في العراق. وهأنذا الآن غريب من جهتين: هذا السد الهائل من الجبال، جبال لبنان بيني وبين إخوتي في دمشق؛ وهذا البحر الواسع بيني وبين أخي في باريز؛ والدهر والأبدية بيني وبين آمالي، والقبر بيني وبين والدي؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغة، و(وظائف) الإنشاء، نسيت مشروعاتي الأدبية التي رسمت خططها، وأقمت أسسها، وأهملت بحوثي ومطالعاتي، وبعث ذكائي ومواهبتي وشبابي برغيف من الخبز.

هذا ما قدّر عليّ، وإني راض بما قدّر!

* * *

إني أعيش بلا غاية، ولكن غايي أن أعيش، أن أثبت وجودي في هذه الدنيا، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم، ولكن ليعدّ في (التفقد) موجوداً، أو موظف حامل مقصّر.

فلماذا إذن أعيش؟

الآن لي حق الحياة؟ فلماذا لا يكون لي إذن حق الموت؟ ألا أملك أنا أمر نفسي، ولكن من أنا؟ ومن نفسي؟ أنا اثنان في واحد؟
إني لا أستطيع التفكير في هذا...

* * *

وملأ نفسي الشعور بالوحشة، وأحسست في نفسي وفيما حولي فراغاً خفيفاً، وشعرت كأن الغرفة تتسع ثم تتسع حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر!

ثم ضاق بي الفضاء - حتى كدت أختنق فيه، فخرجت إلى الشارع... وكان موهناً من الليل...

* * *

تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء، ويرقص على ألحان الأشعة، التي تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجوفاتن وتسيل على جوانبه، وتنسج فوقه شبكة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الألوان، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة، يتأملون معاني الوجود، وحقيقة الزمان في هذه المراقص الخليعة، الغارقة في الخمر والعهر.

ويئمت شطر البحر أمشي في الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة فخلا الجو لفكري فانطلق...

قالت النفس: إن العام يموت، أفلا نودّعه بحسرة... أونسكب على جدته عبرة؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده...

قال العقل: ما هو الموت؟ إن كان انتقالاً من حال إلى حال فليس موتاً؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً.

قلت: ولكن أبي قد مات.

قال: لا، إنه لم يمّت، إنك تذكره ويعيش حياً في ذاكرتك، وليس له وجود في الواقع.

قلت: وأين يوجد؟

قال: لست أدري، هو في ذاكرة الكون.

قلت: إن العام يموت الآن!

قال العقل: إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو خمس ساعات و(٤٨) دقيقة، وبعض منها هو (٥١) ثانية، وبعض الثانية. فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة، وبعض الرابعة، فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً... وهكذا يمشي العقل حتى يصل إلى أصغر الأخبار الزمنية ولكنه لا يزال يمشي ولا ينتهي أبداً... إن عام الهجرة مثلاً لا تزال له بقية في الوجود، أجزاء من الزمن بالغة في الصغر جداً لا يدركه العقل، ولكن تدركه الذاكرة... إن هذه البقايا هي ذكريات الأعوام الماضية في نفس العام الجديد!!

قلت: إني لم أفهم شيئاً!

وقفز عقلي فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق، وراح يمشي على هذا الخط الطويل يقطعه في لحظة، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه، فلا يني يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال... إلى أين ينتهي هذا الخط؟ من أين يبدأ؟ أليس له نهاية؟ ما هي اللانهاية؟

وذهب العقل يفكر: إن عمر عشر حشرات ساعة من عمري، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس، بما هي الساعة إذن؟ ما هو العام؟ ما هي حقيقة الزمان؟

وما هو المكان؟ إني لم أر مكاناً قط، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها، ولا أدرك آخرها، فكيف لي أن أرى مكاناً ليس فيه شيء؟ ما حقيقة المكان والزمان! ما عمرهما؟ ماذا وراءهما؟

ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذي تحجبه عن عيني هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهي كف واحدة...

وضجرت من هذه الفلسفة، فانصرفت عن العقل وتركته يهذي وحده.

وكنـت قد بلغت البحر، فوقفـت في حجر الطبيعة أتأمل
وأناجي وأحلم...

لقد نفضت يدي من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفية
الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسي وراحة قلبي، أنظر إليها فتمحي هذه
الأبعاد والمسافات، وتبدو لعيني حافلة بالألوان التي لا يستطيع أبرع مصوّر أن
يجمعها في لوحة. ومن لعمري يصوّر ألوان الغروب، أو ألوان الزهر في الروض،
أو يشبها على لوحة بالألغاز والأوزان، أو بالأصبغة والألوان؟ إن الطبيعة أبرع في
الألوان، ولكن الفنّ البشري أبرع في الأصوات. إن الطبيعة ليست موسيقية
فنانة... عندها من الألوان ما لا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج،
وخرير النهر، وحفيف الأشجار، وتغريد البلابل، وسجع الحمام، وقصف
الرعد... هذه موسيقاها، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار
وتجديد، على حين أن الأدب والتصوير تقليد.

هذه الطبيعة التي أجد في حماها الحب والعاطفة والجمال، كلما لجأت إليها
فراراً من الناس، وضيقاً بالحياة، وما ذهبت مرة إلى بَسِمة^(١) وأطللت من (بيت
طه) على هذا الوادي الصغير الذي يشبه همسة حلوة من همسات الحب، أو بيتاً
بارعاً من قصيدة الجمال، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أني مع حبيب قد
وضع رأسه على فخذِي، ونام... هذا الوادي الذي تجري فيه العين الخضراء
لينة الأعطاف فاتنة المحاسن، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح
الجبل، تغمز بردي بعينها، وتغريه بجمالها، وهو يلحقها جرياً في بطن الوادي،
متحدراً متكسراً كشابّ قوي متين العود، جهير الصوت، قد أكملت رجولته كما
اكتملت أنوثتها، وأشجار الحوَر (حُور كواشف عن ساق) يرقصن في عرس
الفتاة المدللة والفتى القوي، رقصة الحب، يتمايلن على العروسين وقد تعانقا

(١) قرية حلوة صغيرة مختبئة بين الجبال على القرب من العين الخضراء، وقد كانت مصطاف
الشاميين القريب، ومترتهم الفاتن الحبيب فأفسدتها (المدنية...) حين حولتها إلى
حانات وخمارات، وجعلتها معابد الشيطان؟

بعد قليل، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه، وطار بها إلى دمشق، لتكون جلوتها في الغوطة جنة الأرض.

وهذه الجبال الحمراء، تقوم على الباب، تحرس الوادي أن يدخله واشٍ أو عدول يفجأ العروسين العاشقين، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منها أو تعكر عليهما خلوتهما، فيبقى الوادي جنة تجري من تحتها الأنهار، والدنيا من حوله في جحيم الصيف.

* * *

غبت في تأملي وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهني إلا المطر يساقط على وجهي ويدي، فنظرت فإذا السحب قد نسجت في السماء ليلاً آخر، وإذا المطر يهبط متلاحقاً، ثم يستحيل برداً طيَّاشاً؛ ثم تهب الرياح وتجنُّ الطبيعة جنونها، فتنتلق تعول وتولول، وتنتف شعرها، وتحطم كل ما بلغته يدها، فماجت نفسي واضطربت كهذا البحر الذي يزجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده، فيستلقي على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الريح على ظهره دراكاً، فيهب فرعاً مرتاعاً، ويعود إلى ضرب الصخر من غير ما طائل، والريح تدير هذه المعركة كلها، تقفز على رؤوس الجبال، وتبعثر البرد يمينا وشمالاً، وتنثر السحاب ثم تجمعها ثم تبعث بها.

جنت الطبيعة جنونها، ولكني لم أخفها ولم تكبر في عيني، وإنما ازدريتها وأبغضتها، ما هذه المخلوقات الضعيفة العاجزة التي لا يدري بها أحد من سكان هذا الكون الواسع؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة، فكيف يراها المشتري؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها..؟
وانصرفت إلى نفسي أفكر أسفاً.

إن العام ينصرم وليس حولي صديق أطمئن إليه، وأحمل معه أعباء الوداع، وأشاركه دمة يذرفها معي على الفقيد الراحل، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد.

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود عند الناس، فنفضت يدي منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديقي المخلص وأوليها جبي وقلبي فكانت هذه هي

النتيجة. صادقت مجنونة طيأشة بطأشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق، وما هو الشعور؟

أهذا كل ما لي عندك يا صديقتي؟ ألجأ إليك في ساعة من أخرج ساعات حياتي قد تركت فيها أهلي وعفت صحتي لألقي بنفسي في أحضانك، وأخفي وجهي بين نهديك، وأنشق عطرك، وأغتسل بعبير محبتك وأدفن آلامي في صدرك، فلا تلقيني إلا بهذا الجنون وهذا العويل؟

كلا، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور!

* * *

وأين لعمري مكان الشعور من الطبيعة؟

أنا أشعر بجمال الربيع، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه؟ لقد رأت الكونتس دي نواي في الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور، وعانقت الربيع، وجالست المساء، ولكن ماذا رأى الربيع في الكونتس دي نواي؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها.

وأنت أيها الجبل: كم رأيت من الفواجع التي تفتت الأكباد وتذيب القلوب، فهل شعرت بشيء منها؟ هل حزنت هل تأملت؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد، فاطفأوا بأفواههم شعلة السلام، وملأوا العالم ظلاماً ونزعوا الرؤوس من أكتاف أصحابها. ثم نهضوا بينون من الجماجم مجدهم في التاريخ، فلما امتلأت الأرض بالجنث، وغسلت بالدموع، وتجلبت بالآلام والأوجاع والشكل واليتم، ولما سهر الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم، وعكف الأطفال يهتفون: بابا. ينادون من ليس يجيب... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر... أشعرت بشيء من ذلك يا لبنان؟ أشعرت بالأرامل والعصايا والأطفال يفتشون عن الخبز... الخبز الأسود، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين، ثم ماتوا جائعين... كما مات ألوف وألوف في سبيل مجد القواد الظافرين!

ألا قلبك الذي قدّ من جلمد الصخر؟ أذرفت يا لبنان من عيونك
الصافية دمعاً حنان؟

وكم رأيت يا لبنان من متع الحب! وكم أرى إليك العاشقون فاستظلوا
بظلك، وتعانقوا في حجرك، وشربوا خمر العيون، وسكروا بنجوى الحب،
وتحدثوا بوسوسة القبل، ونسوا الدنيا كلها والطبيعة والزمان، ونسوا أنفسهم
حين التقت الشفاء بالشفاء، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم
المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة المغنية دنيا القبله الكامله.

أأهاج ذلك عاطفتك يا لبنان؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التّياه
الذي يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيّال أرهف شعوراً وأرقّ عاطفة؟ أمجزنك منظر
البؤس والشقاء، وأنت تلتهم الأحياء، وتحقق البشر، وتفتح فك لا ابتلاعهم،
أأنت ذو الشعور؟

أين هو الشعور؟ وأين أجد العاطفة في الطبيعة؟ أأبتغيها في البركان الهائل
المحرق، أم في العاصفة العاتية المدمّرة؟

* * *

وأين هو الحق في الطبيعة؟

أنا أرى في الطبيعة عاصفة-تكسر الأغصان، وتقلع الأشجار؛ وأرى
صاعقة تهدم الدور؛ وأرى سيلاً يجرف المدن، ويكتسح بطريقه كل شيء؛
وأرى البركان الثائر؛ وأرى الرياح العاتية. كل هذه وجود مادّي للقوة، فأين هو
الوجود المادي للحق؟

لقد اتضح الأمر، وخسرت صديقتي الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة...

فلمن أأجأ؟

لمن أأجأ ويحك يا نفس؟ هذا العام يوشك أن يموت!

فعجزت النفس ولم تحب، وانطلق العقل يتفلسف، قال: إن في الطبيعة حساً وتمييزاً، ضع ذرة واحدة من الفحم، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة، ومهما ضاعفت العدد تبقى النسبة ثابتة، أفليس هذا دليلاً على أن الجمام يميز؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألقى عليه الزئبق فإنه يعانق الذهب ويدع كل ما عده، أفليس في هذا دليل على أن في الجمام شعوراً وعاطفة؟

وانظر لنفسك لا تحس حرارة الجو، ولا ضغط الهواء، ولكن ميزان الحرارة، ومقياس الضغط (البارومتر) يحسّان بهما، أفليس هذا الدليل على أن الجمام أرهف حساً من الإنسان؟

ولكني لم أنتبه لما قال العقل.

* * *

ونظرت إلى البحر فقلت: ما البحر؟ ما الطبيعة؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادي؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم؟ إن الروح أول محطة في طريق هذه العوالم، فهل استطعنا أن نبلغها؟ إن العقل البشري يمشي إليها منذ بدأ صناعة التفكير، ولا يزال في الطريق لم تبين له معالمها... إنه تعب وملّ ويش... افتح الآن كتاب (علم النفس) إنك لا ترى في فهرسه اسم الروح ولا النفس...

وفكرت في العام الراحل فقلت: ما هو العام؟ ما وجوده؟

ما حقيقته؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عيني كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام، ولكني لم أحلم ولم أتذكر، وإنما لبثت صامتاً محدّقاً في غير شيء كالأبله أو المشدوه، وتركت عقلي المغرور يتيه وحده في فضاء اللانهاية... إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المادة... كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده.

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التي لا شعور فيها ولا عاطفة،

ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التي يدعونها (الناس)، ونسيت هذه الذرة
التائهة في رياح الوجود التي اسمها (أنا)، وتوجهت إلى العظيم الباقي الذي هو
وحده الخير المطلق والحق والجمال. . توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام
القادم ثوب السعادة، ويضفي على العام الراحل حلة الغفران. اللهم آمين.

نشرت سنة ١٩٥٦

[كنت أبحث في أوراقى القديمة،
فخرجت في يدي صورة لغلام في التاسعة من
عمره، بطريوش طويل، وإزار (سرکس)
لا ينزل عن الركبتين إلا قليلاً، فوقه سترة
ضيقة وتحت جوارب غلاظ، وحذاء قديم...
فرجعتني هذه الصورة ثماناً وثلاثين مرحلة من
طريق العمر، رجعتني إلى سنة ١٩١٧]

... وأمسكت بها أنعم النظر إليها، لا أستطيع تركها، وأشعر كأنى
أعرف هذا الغلام، وأجد أن له من المحبة في قلبي أكثر مما لولدي، ولكن من
هو؟ وما صلتى به؟ لست أذكر!

وغبت في نفسي موعلاً في مسارب الماضي، وأبصرت الصبي يتحرك
وتنصب الحياة فيه، ثم رأيته يخرج من الصورة بشراً يتكلم ويمشي، كالذي تراه
في السينما... فدنوت منه أحاول أن أمسه فإذا هو يتفككت مني، ويروغ يحاول أن
يدخل في هذا الضباب المنتشر من حولي، والذي أظلمت منه الدنيا، ولم يكن في
يدي إلا مصباح شاحب الضوء، يخرج منه خيوط قليلة من النور، فكنت كلما
حاولت أن أخترق بمصباح (الذكرى) ضباب (النسيان)، عاد يتكاثف الضباب،
حتى حصرت الغلام بين خطين من الضوء فربطته بهما...

- وقلت: من أنت، فإني أرى كأنى أعرفك؟
- قال: أما أنا فإني ما رأيته، ولا أرى أنى أعرفك، فأرسلني.
- قلت: إنك لغلام مشاكس، فما اسمك؟
- قال: وما لك من اسمي؟ اسمي علي الطنطاوي!

— قلت: هذا اسمي أنا، فكيف ويحك تنتحل اسمي؟ وما أنت أنا!
لا يدك هذه يدي، ولا جسدك جسدي، ولا رأيك في الحياة رأيي!

ونظرت يا أيها القراء، فإذا أنا أرى أمامي عشرات من الناس، مختلفين
جسماً وعقلاً، طفلاً وليداً، ودارجاً فطياً، وصيباً ناشئاً، ويافعاً مراهقاً، وفقى
مجتمعاً وشاباً مكتهلاً، كلهم يزعم أنه علي الطنطاوي.

وسمعت قائلاً يقول لي: لا تعجب فأنت أبداً في انتقال، في دورة موت
وحياة، كل يوم يموت فيك شخص، ويولد شخص، كالشجرة تطرح أبداً من
قشورها وتصنع لنفسها غيرها، أو كالنهر، تأمل النهر تر في كل لحظة قطرة
تذهب، وقطرة تحيى، والنهر هو النهر، ولولا هذا الجريان المستمر، لكان بركة
مستطيلة فيها ماء آسن، ما كان النهر نهراً إلا لأنه يجرى ويتبدل، وما كان
الإنسان إنساناً حياً إلا لأنه يتغير ويتحول.

وتصور الإنسان الذي كان في جلدك من عشرين سنة، هل فيك ذرة من
جسده؟ أو نقطة من دمه؟ ألا تحب ما كان يكره؟ وتحقر ما كان يقدس؟ وتردد
فيما كان يحرص عليه؟

وانظر لنفسك أما يتبدل المخلوق الذي يحمل اسمك بين ساعة وساعة؟
بين ساعة الرضا وساعة الغضب، وحين يملأ قلبه الإيمان وحين تشتعل أعصابه
بالشهوة؟ أما يكون مرة غمراً كاسراً، ومرة شيطاناً مريداً، ومرة ملكاً نورانياً؟

وولّى عني وتركني أفكر، كيف كان هذا الغلام يوماً (أنا) أو كيف كنت
(أنا) يوماً هذا الغلام؟

وكيف يصير (علي الطنطاوي) الواحد، مئة (علي الطنطاوي) ما فيهم
واحد كالآخر؟

ولكن ما هذا الذي أقوله؟ أتروني جنت؟

أم أن الناس قد جنّوا فما يفكر أحد في نفسه، ولا يحاول أن يكشف أسرارها ويدرك عجائبها، وما يرون في الحديث عن أسرار النفس إلا فناً من (فنون الجنون)؟

ومن يتفرد منا بنفسه، يفكر فيها ويسائلها: من أين جاءت، ولم خلقت، وإلى أين المصير؟

إننا نهرب منها أبداً، ونشتغل عنها بكل شيء، حتى الكتاب الفارغ والحديث التافه، واللعبة الحمقاء، والقعود على كرسي القهوة الساعات بلا عمل، كل شيء إلا صحبة النفس!
كذلك الناس اليوم، نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

* * *

وأنست بهذا العالم الذي أرجعتني الصورة إليه، لا أدري أكان ذلك لأنه أفضل وأكمل أم أن الإنسان فطر على الزهد في حاضره، والحنين إلى ماضيه والتطلع إلى مستقبله.

يضئ الحاضر لماضي لن يعود أبداً، ومستقبل لن يجيء أبداً، لأنه إذا جاء، وصرار حاضراً وتطلعت إلى مستقبل آخر، فهو كحزمة من حشيش معلقة بعضاً مربوطة بظهر الفرس، فهو يراها أمامه فيعدو ليدركها وتعدو معه فلا يصل إليها أبداً.

وهذا من عجائب صنع الله في هذه الدنيا، لئلا يشعر المرء أبداً بالاستقرار فيها، ولا يرى فيها إلا ما يراه المسافر في القطار.

* * *

وصاح بي الغلام يريد أن أرسله لينطلق، فأسقطني صياحه من أجواء الفكر فالتفت إليه، وعلقت أنظارني بهذه الثياب الزرية التي يلبسها، فسألته:

— أتذهب إلى المدرسة بهذه الثياب؟

— قال: نعم، وهل تبصر فيها عيباً؟ هل تكشف عورة؟ هل ترى فيها تشبهاً بالنساء؟ أليست نظيفة؟

— قلت: ألا تلبس الحلة، التي يلبسها التلاميذ جميعاً؟

— قال: أتعني، السترة والبنطال؟ هل تريد أن يسخر مني الأولاد، ويلحقوني في الأزقة، ينادون (فلق زم)؟ وهل يلبسها من التلاميذ إلا المخشون.

— قلت: ويحيى التلاميذ جميعاً بهذا الإزار (السركس)؟

— قال: نعم.

فذكرت أننا كنا كذلك حقيقة، وكان الذي يلبس هذه الحلة الإفرنجية كالذي يلبس (شلحة) أمه، وكان الأولاد يهتفون وراءه بهذا الهتاف الشنيع، وأننا لما وصلنا إلى الثانوية، وكان ذلك بعد ميلسون، ودخول الفرنسيين، وألزمونا بلبسها كانت أمي رحمها الله هي التي تخطيها لي، فتصور ماذا تكون هذه الحلة التي تخطيها أمي؟

وأن أول حلة خاطها لي الخياط، كانت مصنوعة من جبة خلّفها أبي رحمه الله، وكنت في الصف التاسع، فأحسست يوم جئت المدرسة بها كأني إمام المتأنقين.

وأنا بلغنا صف (البكالوريا)، ولم يكن فينا من يجرو أن يعقد حول عنقه هذه العقدة، نرى ذلك (تفرنجا) وتنطساً لا يليقان بطلبة العلم، فأين من هذا ما يصنع شباب اليوم؟...

أين هذا التأنق والتجمل، وإنفاق ساعة كل صباح في ترجيل الشعر وتصفيفه، واختيار العقدة الملائمة للثياب، والحذاء الموافق للجوارب، مما كان في أيامنا؟...

رحمة الله على تلك الأيام.

وقلت للغلام:

— ألا تمشي معي أريك دمشق؟

— قال: أنا أرى دمشق كل يوم، ولا أريد أن أمشي معك. إنني لا أمشي مع من هو أكبر مني، ولا أمشي مع من لا أعرف.

— قلت: ولو كان قريبك؟

— قال: فهل أنت قريبتي؟

— قلت: أنا أقرب الناس إليك!

— قال: وما تكون مني؟

— قلت: أنا أنت.

فضحك الخبيث وقال:

رحم الله هبنقة^(١) أنت أنا، فمن أنا؟

فكدت أقول له، أنت أنا، ثم خفت أن يجترى عليّ بالقول الجارح لأنه، كما بدا لي، سليط اللسان، فسكت عنه، ومازلت به حتى رضي أن يمشي معي.

— قال: ولكني لا أجاوز آخر الشارع.

— قلت: وأي شارع؟

(١) هبنقة: أحد بني قيس بن ثعلبة، ضرب بحمفه المثل فقيل: أحق من هبنقة! ومن حمفه أنه كان يرعى غنم أهله، فيرعى السمان في العشب وينحي المهازل، فقيل له: ويحك ما تصنع؟! قال: لا أفسد ما أصلحه الله ولا أصلح ما أفسده! ومن حمفه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف، فسئل عن ذلك فقال: لأعرف بها نفسي، ولئلا أضل. فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته فتقلدها. فلما أصبح ورأى القلادة في عنق أخيه، قال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟!

— فقال: وهل في دمشق مئة شارع؟! الشارع الذي فتحه جمال باشا. وأنا أعرفه من قبل طريقاً ضيقاً، يمتد من بعد المشيرية إلى محطة الحجاز، يقطعه هذا الزقاق الذي يصل من (المرجة) إلى (الشابكلية): زقاق رامي.

— قلت: لقد تغيرت الأرض ومن عليها يا ولدي، وفتحت مئات من الشوارع وصارت (المرجة) لب البلد وقد كانت في آخره، وقامت وراء (شركة الكهرباء) حيث المزابيل التي تعرفها، العمارات الضخمة والحدائق الواسعة، وطريق الصالحية الذي كان يمتد وحده بين البساتين ما على طرفيه إلا بيوت قليلة تقوم صفّاً واحداً وراءه الفضاء، صار اليوم سوق المدينة، وقامت على جانبيه أحياء إذا جئتها حسبت نفسك في (باريز)، وحي (المهاجرين) الفقراء من أهل جزيرة (كريت) أقريطش، صار حيّ الأغنياء والمترفين، وصارت البقعة الواحدة منه، التي لا تدرع مئة متر مربعة، أغلى من أرض الحي كلها و(بوابة الصالحية) حيث يمر الترام بين (الحسنة خانه) و(بستان الكركه)، في طريق ضيق كان منذ غروب الشمس، مربوط قطاع الطرق...

... لقد صارت (بوابة الصالحية) ميداناً فسيحاً فيه العمارات العالية، والشوارع الفسيحة، شارع بغداد، وشارع الأركان... والبساتين صارت أحياء عامرة، بستان الأعجام صار حيّ الحلبوني، وبستان السبكي وبستان الحبوبي صاروا أضخم أحياء الشام...

لقد دار الفلك ثماناً وثلاثين دورة على دمشق التي تعرفها.

— قال: أذن يجب أن أكون ابن ثمان وأربعين!

— قلت: نعم.

— قال: ألا تراني أمامك صبيّاً؟

— قلت: وأنت ألا تراني أمامك كهلاً؟!

— قال: أرجو ألا تلقني عليّ هذه الفلسفة الجنونية.

— قلت: ويحك، ما ألقيتها عليك، وهل أنت شيء له (وجود)؟ إنما

ألقيا على نفسي.

وسحبت الغلام، وسرت به وهو مشدوه مما يسمع.

ورأى السيارات الكثيرة، وهي تتعادي وتتسابق بسرعة مجنونة كأنما هي راكبة على جناح شيطان، من كل لون وجنس، من الصغيرة التي تشبه صندوق اللعب، إلى الكبيرة التي تسع سبعين راكباً، تخرج عن يمينه، وعن شماله، ومن أمامه، ومن خلفه كأنها العفاريت في قصة (الملك سيف) تتلاطم أصواتها في الأذن كأنها عزيف الجن.. فارتاع ووقف حائراً، فقلت له:

— ما لك؟ ألا تعرف السيارات؟ فلم يشأ أن يظهر الجهل وقال:

— وهل تظني آتياً من الصحراء؟ كيف لا أعرفها؟! لقد فاخرت التلاميذ بأن والذي ركب فيها.

— قلت: وهل كانت مثل هذي؟

— قال: لا، كانت سيارة واحدة للجمال باشا، لم يأت دمشق غيرها، فكان الناس يخرجون لرؤيتها، وأنا أعرف الطائرة أيضاً، صغيرة لها جناحان، واحد فوق الآخر، يركب فيها رجلان...

— قلت: إن من الطيارات اليوم ما يركب فيه مئة، يحملهم من دمشق إلى الهند بقفزة واحدة.

فنظر إليّ، مفتوح الفم شاخص العينين، كأنه لا يصدق!

— قلت: وهل تعرف الكهرباء؟

— قال: نعم وأدخلناها دارنا منذ أيام، وضربني المعلم من أجلها...

— قلت: ولماذا يضربك من أجلها؟

— قال: كنت أحدث التلاميذ، أن في بيتنا مصابيح تشتعل بلا كبريت، ندير زراً في الجدار فتضيء، فكذبوني فضربتهم، فجاء المعلم فضربني^(١)!

(١) هذه حقيقة وقعت لي أيام الحرب الأولى.

— قلت: ولكن للكهرباء اليوم منافع لا تعرفها، أنها تدفئ المنازل في الشتاء وتبرد الطعام في الصيف، وتسير الـ... .

وصاح الصبي مقاطعاً:

— ما هذا؟ .. أعوذ بالله.

فنظرت فإذا هو إعلان عن فلم في السينما، فيه صورة فتاة عارية ورجل يقبلها، فقلت:

هذا إعلان سينما، ألا تعرف السينما؟

— قال: بلى أخذونا إليها في المدرسة، فأرونا صور القتال في الـ (شناقلعة) وكانت في طريق الصالحية، بعد (الحسنة خانه)^(١).

— قلت: صحيح، أعرفها، وقد هدمت وشيد في مكانها عمارة ضخمة، تعرض (أفلاماً) من نوع آخر، اسمها (البرلمان)!

— قال: ولكن كيف لا تمنع الحكومة هذا المنكر، كيف لا ينكره العلماء.

— قلت: إن أمثال هذه الصور في كل مكان، انظر...

وأشرت إلى المجلات المعلقة في الطرق، عند البيّاعين، وسألته:

— ألا تقرأون المجلات؟

— قال: وما المجلات؟ إننا لا نعرفها!

— قلت: أتقرأون كتباً غير كتب المدرسة؟

— قال: نعم، أنا أقرأ في العقد وحياة الحيوان للدميري وكتاب الفرج بعد الشدة والأغاني.

— قلت: هذه كتب لا يقرأها إلا العلماء، فمن ذلك عليها وأنت في هذه

السن؟

(١) وكانت السينما في موضع البرلمان وقد احترقت وبقيت أنقاضها سنين طويلة.

— قال: كان (الرجال) الذين يجتمعون على أبي للدرس كل يوم، يتناقشون فيقول لي أبي، هات الجزء الرابع من (تاج العروس)، هات الثالث من (الحاشية) هات الخامس من (فتح القدير)، فتعلمت أسماء الكتب، وصرت أدخل المكتبة وحدي، فأسحب كل كتاب، فأقرأ فيه صفحة، فإن أعجبني قرأته، وإلا أخذت غيره، فمن هنا عرفت هذه الكتب^(١).

— قلت: وهل يعرفها رفاقك في المدرسة؟

— قال: إن بعضهم يعرف بعضها.

— قلت: ألا تقرأون كتباً للتسلية؟

فاحمر وجهه وسكت.

— قلت: أخبرني، لا تكذب عليّ، ولا تخف مني.

— قال: ولماذا أخافك؟ أنا لا أخاف أحداً، ثم إنني مؤمن لا أكذب أبداً،

وهل يكذب المؤمن؟!

— قلت: إذن أخبرني!

— قال: نقرأ القصص في الخفاء، قصة عترة وحمزة البهلوان والمملك

سيف، وكنا نقلّد هؤلاء الأبطال، فتتبارز في صحن الأموي، كل يوم عندما ندخله.

— قلت: ولماذا كنتم تدخلونه كل يوم؟

— قال: لماذا؟ لنصلي ونسمع الدروس.

— قلت: ولم؟ أليس في المدرسة درس دين؟

— قال: لا.

— قلت: كيف؟ ألا يعلمونكم القرآن؟

(١) هذه كلها حقائق.

— قال: بلى، عندنا درس تجويد، ودرس تفسير.

— قلت: والفقه؟

— قال: وعندنا درس فقه، وعندنا درس حديث، ودرس وعظ.

— قلت: وكم ساعة في الأسبوع لذلك كله؟

— قال: عشر ساعات.

— قلت: إنهم يستكثرون عليها الآن ساعتين في الأسبوع.

ولست أدري لماذا يحسبونها درساً واحداً؟ إنها دروس مختلفة، ولو كان يجمعها اسم الدين، فإذا كان يكفيها ساعتان، فاجعلوا للعرية ساعتين فقط للنحو والصرف والإنشاء والإملاء والمحفوظات، وللرياضيات ساعتين فقط للحساب والهندسة والجبر، وللطبيعيات ساعتين ولو تعددت علومها..

* * *

وقطع الحديث وجعل ينظر مدهوشاً إلى النساء السافرات، الباديات الأذرع إلى الأباط، والسيقان إلى الركب، الكاشفات الشعر والنحر والصدر.

— قلت: مالك؟

— قال: ما هؤلاء؟

— قلت: نساء.

— قال: وهل تظنني حسبتهن بقرأ، ولكن كل نساء الشام يلبسن الملاء، لا تفرق المسلمة من النصرانية أو اليهودية، إلا بأن هذه تستر وجهها، وتلك تكشفه، أما الملاء فللجميع^(١)، فماذا يكن هؤلاء، إذا لم يكن مسلمات، ولا نصرانيات ولا يهوديات؟

(١) وهذه أيضاً حقيقة.

وسكتُ، لأنني لم أجد جواباً، وطال السكوت، وفكرت فيها كنا فيه، وما صرنا إليه، وعاد ذهني إلى هذا الحاضر المضى، فرأيت الصبي، يتملص مني، ويبتعد عني، حتى عاد إلى (ضباب) الماضي، ولم يبق في يدي إلا هذه الصور الباهتة، صور عهود مضت بما كان فيها من جهل بعلوم الكون، وانقطاع عن دنيا الحضارة، وما كان فيها من الفضائل والأخلاق والرضا والسعادة، عهود الإيمان والطهر والصفاء، عهود (صباي) الذي فقدته إلى الأبد...

يا سقى الله تلك العهود!

* * *

نشرت سنة ١٩٥٤

يا ابنتي؛ أنا رجل يمشي إلى الخمسين، قد فارق الشباب وودع أحلامه وأوهامه، ثم إني سحت في البلدان، ولقيت الناس وخبرت الدنيا، فاسمعي مني كلمة صحيحة صريحة من سني وتجاربي، لم تسمعيها من غيري. لقد كتبنا وناديننا ندعو إلى تقويم الأخلاق، ومحو الفساد وقهر الشهوات حتى كلت منا الأقلام، وملت الألسنة، وما صنعنا شيئاً، ولا أزلنا منكرًا، بل إن المنكرات لتزداد، والفساد ينتشر، والسفور والحسور والتكشف تقوى شرته، وتوسع دائرته، ويمتد من بلد إلى بلد، حتى لم يبق بلد إسلامي (فيما أحسب) في نجوة منه، حتى الشام التي كانت فيها الملاعة السابغة، وفيها الغلو في حفظ الأعراض، وستر العورات، قد خرج نساؤها سافرات حاسرات، كاشفات السواعد والنحور...

ما نجحنا وما أظن أننا سنتجح. أتردين لماذا؟

لأننا لم نهتد إلى اليوم إلى باب الإصلاح، ولم نعرف طريقه. إن باب الإصلاح أمامك أنت يا ابنتي، ومفتاحه بيدك، فإذا آمنت بوجوده، وعملت على دخوله، صلحت الحال. صحيح أن الرجل هو الذي يخطو الخطوة الأولى في طريق الإثم، لا تخطوها المرأة أبداً، ولكن لولا رضاك ما أقدم، ولولا لينك ما آشتد، أنت فتحت له وهو الذي دخل، قلت للّص: تفضل... فلما سرقك اللص، صرخت أغيثوني يا ناس سرقك... ولوعرفت أن الرجال جميعاً ذئاب

وأنت النعجة، لفررت منهم فرار النعجة من الذئب، وأنهم جميعاً لصوص،
لا حترست منهم احتراس الشحيح من اللص.

وإذا كان الذئب لا يريد من النعجة إلا لحمها، فالذي يريده منك الرجل
أعز عليك من اللحم على النعجة، وشر عليك من الموت عليها، يريد منك أعز
شيء عليك: عفافك الذي به تُشرفين، وبه تفخرين، وبه تعيشين، وحياة
البت التي فجعها الرجل بعفافها، أشد عليها بمئة مرة، من الموت على النعجة
التي فجعها الذئب بلحمها... إي والله. وما رأى شاب فتاة إلا جردها بخياله
من ثيابها ثم تصورها بلا ثياب.

إي والله! أحلف لك مرة ثانية، ولا تصدقي ما يقوله لك بعض الرجال
من أنهم لا يرون في البنت إلا خلقها وأدبها، وأنهم يكلمونها كلام الرفيق،
ويودونها وذ الصديق. كذبٌ والله، ولو سمعت أحاديث الشباب في خلواتهم،
لسمعت مهولاً مرعباً، وما يسم لك الشاب بسمة، ولا يلين لك كلمة،
ولا يقدم لك خدمة، إلا وهي عنده تمهيد لما يريد، أو هي على الأقل إيهام
لنفسه أنها تمهيد!

وماذا بعد؟ ماذا يا بنت؟ فكري!

تشركان في لذة ساعة، ثم ينسى هو، وتظلين أنت أبداً تتجرعين
غصصها، يمضي (خفيفاً) يفتش عن مغفلة أخرى يسرق منها عرضها، وينوء
بك^(١) أنت (ثقل) الحمل في بطنك، والهم في نفسك، والوصمة على جبينك،
يغفر له هذا المجتمع الظالم، ويقول شاب، ضل ثم تاب، وتبين أنت في حاة
الحزري والعار طول الحياة، لا يغفر لك المجتمع أبداً.

ولو أنك إذ لقيته نصبت له صدرك، وزويت عنه بصرك، وأريته الحزم
والإعراض... فإذا لم يصرفه عنك هذا الصد، وإذا بلغت به الوقاحة أن ينال
منك بلسان أويد، نزعت حذاءك من رجلك، ونزلت به على رأسه — لو أنك

(١) هذا هو التعبير الأصح: قال تعالى: «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة».

فعلت هذا لرأيت من كل من يمر في الطريق عوناً لك عليه، ولما جرؤ بعدها فاجر على ذات سوار، ولجاءك (إن كان صالحاً) تائباً مستغفراً، يسأل الصلة بالحلل: جاءك يطلب الزواج.

والبنت، مهما بلغت من المنزلة والغنى والشهرة والجاه، لا تجد البنت أملها الأكبر وسعادتها إلا في الزواج، في أن تكون زوجاً صالحاً، وأماً موقرة، وربة بيت. سواء في ذلك الملكات والأميرات، وممثلات هوليوود ذوات الشهرة والبريق الذي يخدع كثيرات من النساء. وأنا أعرف أدبيتين كبيرتين في مصر والشام، أدبيتين حقاً، جمع لهما المال والمجد الأدبي، ولكنهما فقدتا الزوج ففقدتا العقل وصارتا مجنونتين، ولا تخرجيني بسؤالي عن الأسماء فإنها معروفة!.

الزواج أقصى أمان المرأة ولو صارت عضو البرلمان، وصاحبة السلطان. الفاسقة المستهتر لا يتزوجها أحد. حتى الذي يغوي البنت الشريفة بوعده الزواج، إن هي غوت تركها وذهب، إذا أراد الزواج، فتزوج غيرها من الشريفات، لأنه لا يرضى أن تكون ربة بيته، وأم ابنته امرأة ساقطة!.

والرجل وإن كان فاسقاً داعراً، إذا لم يجد في سوق اللذات، بنتاً ترضى أن تريق كرامتها على قدميه، وأن تكون لعبة بين يديه، وإذا لم يجد البنت المغفلة، التي تشاركه في الزواج على دين إبليس، وشريعة القطط في شباط طلب من تكون زوجته على سنة الإسلام. فكساد سوق الزواج منكن يابنات، لو لم يكن منكن الفاسقات ما كسدت سوق الزواج، ولا راجت سوق الفجور... فلماذا لا تعملن، لماذا لا تعمل شريفات النساء على محاربة هذا البلاء؟ أتنن أولى به، وأقدر عليه منا، لأنكن أعرف بلسان المرأة، وطرق إفهامها، ولأنه لا يذهب ضحية هذا الفساد إلا أتنن: البنات العفيفات الشريفات، البنات الصيئات الديئات. في كل بيت من بيوت الشام بنات في سن الزواج لا يجدن زوجاً، لأن الشباب وجدوا من الخليلات ما يغني عن الخليلات، ولعل مثل هذا في غير الشام أيضاً... فألفن جماعات منكن من الأديبات والمتعلمات ومدرسات المدرسة وطالبات الجامعة تعيد أخواتكن

الضالات إلى الجادة، خوفهن الله، فإن كن لا يخفنه، فحذرهن المرض، فإن كن لا يحذرهن، فخطبتهن بلسان الواقع، قلن هن: إنكن صبايا جيلات فلذلك يقبل الشباب عليكن، ويحومون حولكن، ولكن هل يدوم عليكن الصبا والجمال؟ وهل دام في الدنيا شيء حتى يدوم على الصبية صباها وعلى الجميلة جمالها؟ فكيف بكن إذا صرتن عجائز محنيات الظهور، مجمعات الوجوه؟! من يهتم يومئذ بكن؟ ومن يسأل عنكن؟ أتعرفن من يهتم بالمعجوز ويكرمها ويوقرها؟ أولادها وبناتها وحفدتها وحفيداتها. هنالك تكون المعجوز ملكة في رعيتهما، ومتوجة على عرشها على حين تكون الأخرى - أنتن أعرف بما تكون عليه!

فهل تساوي هذه اللذة تلك الآلام؟ وهل تشتري بهذه البداية تلك النهاية؟

وأمثال هذا الكلام لا تحتجن إلى من يدلكن عليه، ولا تعدمن وسيلة إلى هداية أخواتكن المسكينات الضالات، فإن لم تستطعن ذلك معهن، فاعملن على وقاية السلمات من مرضهن، والناشئات الغافلات من أن يسلكن طريقهن.

* * *

وأنا لا أطلب منكن أن تعدن بالمرأة المسلمة اليوم، بوثة واحدة إلى مثل ما كانت عليه المرأة المسلمة حقاً، لا، وإني لأعلم أن الطفرة مستحيلة في العادة، ولكن أن ترجعن إلى الخير خطوة خطوة، كما أقبلتن على الشر خطوة خطوة، إنكن قصرتن الثياب شعرة شعرة، ورفعتن الحجاب، وصبرتن الدهر الأطول، تعملن لهذا الانتقال. والرجل الفاضل لا يشعر به، والمجلات الداعرة تحث عليه، والفساق يفوحون به، حتى وصلنا إلى حال لا يرضى بها الإسلام، ولا ترضى بها النصرانية، ولم يعملها المجوس الذين نقرأ أخبارهم في التاريخ، إلى حال تأباها الحيوانات.

إن الديكين إذا اجتمعا على الدجاجة اقتتلا غيرة عليها وذوداً عنها، وعلى الشواطىء في الإسكندرية وبيروت رجال مسلمون، لا يغارون على نسائهم المسلمات أن يراهن الأجنبى، لا أن يرى وجوههن... ولا أكفهن...

ولا نحورهن، بل كل شيء فيهن! كل شيء، إلا الشيء الذي يقبح مرآه، ويجمل ستره، وهو حلقنا العورتين، وحلمتا الثديين... وفي النوادي والسهرات (التقدمية) الراقية، رجال مسلمون يقدمون نساءهم المسلمات للأجنبي ليراقصهن، يضمهن حتى يلامس الصدر الصدر، والبطن البطن، والقمم القمم، والذراع ملتوية على الجسد، ولا ينكر ذلك أحد، وفي الجامعات المسلمة شباب مسلمون يجالسون بنات مسلمات متكشّفات باديات العورات، ولا ينكر ذلك الآباء المسلمون ولا الأمهات المسلمات، وأمثال هذا.

وأمثال هذا كثير، لا يدفع في يوم واحد، ولا بوثة عاجلة، بل بأن نعود إلى الحق، من الطريق الذي وصلنا منه إلى الباطل، ولو وجدناه الآن طويلاً— وإن من لا يسلك الطريق الذي لا يجد غيره لا يصل أبداً. وأن نبدأ بمحاربة الاختلاط، والاختلاط غير السفور، وأنا لا أمنع من كشف الوجه، إن كان لا يتحقق بكشفه الضرر على الفتاة والعدوان على عفافها، وأراه عند أمن الفتنة خيراً من هذا الذي نسميه في بلاد الشام حجاباً، وما هو إلا ستر للمعائب، وتجسيم للجمال وإغراء للنظر.

السفور إن اقتصر على الوجه كما خلق الله الوجه— نقبل به، وإن كنا نرى الستر أحسن وأولى. أما الاختلاط فشيء آخر، وليس يلزم من السفور أن تختلط الفتاة بغير محارمها، وأن تستقبل الزوجة السافرة صديق زوجها في بيتها، أو أن تحييه إن قابلته في الترام، أولقيته في الشارع، وأن تصافح البنت رفيقها في الجامعة، أو أن تصل الحديث بينها وبينه، أو أن تمشي معه في الطريق، وتستعد معه للامتحان، وتنسى أن الله جعلها أنثى وجعله ذكراً، وركب في كل الميل إلى الآخر، فلا تستطيع هي ولا هو ولا أهل الأرض جميعاً، أن يغيروا خلقه الله، وأن (يساووا) بين الجنسين، أو أن يحوا من نفوسهم هذا الميل، وإن دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنية قوم كذابون من جهتين: كذابون لأنهم ما أرادوا بذلك كله إلا إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظها من لذة النظر، وما يأملون به من لذائذ أخرى؛ ولكنهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به، فلبسوه بهذا الذي يرفون به، بهذه الألفاظ الطنانة، التي ليس وراءها شيء:

التقدمية، والتمدن، والحياة الجامعية، وهذا الكلام الفارغ (على دويّه) من المعنى فكأنه الطبل.

وكذابون لأن أوروبة التي يَأْتَمُون بها، ويهتدون بهديها، ولا يعرفون الحق إلا بدمغتها عليه، فليس الحق عندهم الذي يقابل الباطل، ولكن الحق ما جاء من هناك: من باريس ولندن وبرلين ونيويورك، ولو كان الرقص والخلاعة، والاختلاط في الجامعة، والتكشف في الملعب، والعري على الساحل^(١)، والباطل ما جاء من هنا: من الأزهر والأموي وهاتيك المدارس الشرقية، والمساجد الإسلامية ولو كان الشرف والهدى والعفاف والطهارة، وطهارة القلب وطهارة الجسد. إن في أوروبا وفي أميركا كما قرأنا وحدثنا من ذهب إليهما، أسراً كثيرة لا ترضى بهذا الاختلاط ولا تستسيغه، وإن في باريس (في باريس يا ناس) آباء وأمهات لا يسمحون لبناتهم الكبيرات أن يسرن مع شاب، أو يصحبته إلى السينما، بل هم لا يدخلونهن إلا إلى روايات عرفوها، وأيقنوا بسلامتها من الفحش والفجور، اللذين لا يخلو منها مع الأسف واحد من هذه (التهريجيات) والصبيانيات السخيفة التي تسميها شركات مصر الهزيلة الرقيقة الجاهلة بالفن السينمائي مثل جهلها بالدين، تسميها أفلاماً!

يقولون: إن الاختلاط يكسر شرّة الشهوة، ويهذب الخلق، وينزع من النفس هذا الجنون الجنسي. وأنا أحيل في الجواب على من جرب الاختلاط في المدارس، روسيا التي لا تعود إلى دين، ولا تسمع رأي شيخ ولا قسيس، ألم ترجع عن هذه التجربة لما رأت فسادها؟

وأمركا، ألم تقرأوا أن من جملة مشاكل أميركا، مشكلة ازدياد نسبة (الحبالي) من الطالبات؟ فمن يسره أن يكون في جامعات مصر والشام، وسائر بلاد الإسلام مثل هذه المشكلة؟

وأنا لا أخاطب الشباب، ولا أطمع في أن يسمعوا لي، وأنا أعلم أنهم قد

(١) ومن هنالك أيضاً جاءت دولة إسرائيل؟

يردون عليّ ويسفهون رأيي، لأنني أحرمهم من لذائذ ما صدقوا أنهم قد وصلوا إليها حقاً، ولكن أخاطبكن أنتن، أنتن يا بناتي المؤمنات الديّانات، يا بناتي الشريفات العفيفات، إنه لا يكون الضحية إلا أنتن، فلا تقدمن نفوسكن ضحايا على مذبح إبليس، لا تسمعن كلام هؤلاء الذين يزينون لكنّ حياة الاختلاط باسم الحرية والمدنية والتقدمية والروح الجامعية، فإن أكثر هؤلاء الملاعين لا زوجة له ولا ولد، ولا يهتم منكن جميعاً إلا اللذة العارضة، أما أنا فإني أبو أربع^(١) بنات، فأنا حين أدافع عنكن أدافع عن بناتي، وأنا أريد لكنّ من الخير ما أريده لهن.

إنه لا شيء مما يهرف به هؤلاء يرد على البنت عرضها الذاهب، ولا يرجع لها شرفها المثلوم، ولا يعيد لها كرامتها الضائعة، وإذا سقطت البنت لم تجد واحداً يأخذ بيدها، أو يرفعها من سقطتها، إنما تجدهم جميعاً يتزاحمون على جمالها، فإذا ولى ولوا عنها كما تولي الكلاب عن الجيفة التي لم يبق فيها مزعة لحم!

* * *

هذه نصيحتي إليك يا ابنتي، وهذا هو الحق فلا تسمعي غيره، واعلمي أن بيدك أنت، لا بأيدينا معشر الرجال - بيدك مفتاح باب الإصلاح، فإذا شئت أصلحت نفسك وأصلحت بصلاحك الأمة كلها. والسلام عليك ورحمة الله^(٢).

* * *

(١) صرن الآن خمساً.

(٢) كتب لهذه المقالة من القبول ما لم يكتب لغيرها، فنشرت في دمشق في رسالة وحدها، ونشرت في رسالة في بغداد وفي القاهرة وفي الإسكندرية، وترجمت إلى الأوردية، ونشرت في (الدون) أكبر جرائد باكستان، وإلى الانكليزية، ونشرت في (التايمس) الهندية وإلى الإيرانية، ونشرت في (جريدة برس).

نشرت سنة ١٩٥٥

[إلى السيد «م. أ» من «الإسماعيلية»
بمصر الذي كتب إلي واستحلفني أن أقرأ
كتابه، وأن أرد عليه].

لماذا تكتب إليّ على تردد واستحياء؟ أتحسب أنك أنت وحدك الذي يحس
هذه الوقعة في أعصابه من ضَرَم الشهوة، وأنت أنت وحدك الذي اختُصَّ بها
دون الناس أجمعين؟

لا، يا ابني، هوّن عليك، فليس الذي تشكو داءك وحدك، ولكنه (داء
الشباب)، وقد كتبت فيه قديماً وحديثاً، ولولا أنني لأحب الحديث المعاد،
ولا أقتني (مع الأسف)، إلا الأقل من مقالاتي القديمة لنقلتها إليك، أو لأحلتك
عليها. ولئن أرّقت هذا الذي تجد وأنت في السابعة عشرة، فلطالما أرّق كثيرين
غيرك، صغاراً وكباراً، ولطالما نفى عن عيونهم لذيق الكرى، ولطالما صرف عن
درسه التلميذ، وعن عمله العامل، وعن تجارته التاجر. وما الحب الذي افتنّ في
وصفه الشعراء، وفي تحليله الأدباء، إلا ما تجده أنت سواء بسواء، ولكنك أخذته
مجرداً مكشوفاً، فعرّفه الناس فلم يخدعوا عنه وأخذوه فلفوه بمثل الورق
(الشكلاطة) ليخدعوا عن حقيقته الناس. وشربت بفيك من الينبوع، وشربوا
بالكاس المذهبة الحواشي. والماء في كأس أبي نواس التي أقام في قرارها
كسرى، كالماء في ساقية، والشهوة في رسالتك إليّ كالشهوة في غزل الشعراء،
وشعر الغزليين، ولوحات المصورين، وألحان المغنين، ولكن الضمير ها هنا بارز
ظاهر، والضمير هنالك مستتر خفي، وشر الداء ما خفي واستتر!

إنه ما أشرف على مثل سنك أحد إلا توقّد في نفسه شيء كان خامداً،

فأحسَّ حرَّه في أعصابه، وتبدلت في عينه الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس فلم يعد يرى المرأة على حقيقتها إنساناً من لحم ودم، له ما للإنسان من المزايا، وفيه ما فيه من العيوب، ولكن أملاً فيه تجتمع الآمال كلها، وأمنية فيها تلتقي الأماني، ويلبسها من خيال غريزته ثوباً يخفي عيوبها ويستر نقائصها، ويبرزها تمثالاً للخير المحض والجمال الكامل، ويعمل منها ما يعمل الوثني من الحجر: ينحته بيده صنماً، ثم يعبد بطوعه رباً! إن الصنم للوثني رب من حجر، والمرأة للعاشق وثن من خيال!

كل هذا طبيعي^(١) معقول، ولكن الذي لا يكون أبداً طبيعياً ولا معقولاً، أن يحس الفتى بهذا كله في سن خمس عشرة، أو ست عشرة سنة، ثم يضطره أسلوب التعليم إلى البقاء في المدرسة إلى سن العشرين أو خمس وعشرين.

فماذا يصنع في هذه السنوات، وهي أشد سنين العمر اضطراباً شهوة، واضطراباً جسدياً، وهياجاً وغلياناً؟

ماذا يصنع؟

هذه هي المشكلة!

أما سنة الله، وطبيعة النفس، فتقول له: تزوج.

وأما أوضاع المجتمع وأساليب التعليم فتقول له: اختر إحدى ثلاث كلها شر، ولكن إياك أن تفكر في الرابعة التي هي وحدها الخير، وهي الزواج...

إما أن تنطوي على نفسك، على أوهام غريزتك وأحلام شهوتك، تدأب على التفكير فيها، وتغذيها بالروايات الداعرة، و(الأفلام) الفاجرة، والصور العاهرة، حتى تملأ وحدها نفسك، وتستأثر بسمعك وببصرك، فلا ترى حينها نظرت إلا صور الغيد الفواتن، تراهن في كتاب الجغرافيا إن فتحته، وفي طلعة البدر إن لمحت، وفي حمرة الشفق، وفي سواد الليل، وفي أحلام اليقظة، وفي رؤى المنام.

(١) طبيعي هي الدائرة على أقلام البلغاء من القدم، وإن كان القياس طبيعي.

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكل سبيل

ثم لا تنتهي بك الحال إلا إلى الهوس أو الجنون أو انهيار الأعصاب.

وإما أن تعمد إلى ما يسمونه اليوم (الاستمناء)، وقد كان يسمى قديماً غير هذا، وقد تكلم في حكمه الفقهاء، وقال فيه الشعراء، وكان له في كتب الآداب باب لأحب أن أدل عليه أو أرشد إليه، وهو وإن كان أقل الثلاثة شراً، وأخفها ضرراً^(١)، ولكنه إن جاوز حده ركب النفس بالهم، والجسم بالسقم وجعل صاحبه الشاب كهلاً محطماً، كئيباً، مستوحشاً، يفر من الناس، ويجبن عن لقائهم، ويخاف الحياة ويهرب من تبعاتها، وهذا حكم على المرء بالموت وهو في رباط الحياة.

وإما أن تغرف من حاة اللذة المحرمة، وتسلك سبل الضلال، وتؤم بيوت الفحش، تبذل صحتك وشبابك ومستقبلك ودينك في لذة عارضة ومتعة عابرة، فإذا أنت قد خسرت الشهادة التي تسعى إليها و(الوظيفة) التي تحرص عليها، والعلم الذي أملت فيه، ولم يبق لك من قوتك وفتوتك ما تضرب به في لجّ العمل الحرّ.

ولا تحسب بعد أنك تشبع، كلا، إنك كلما واصلت واحدة زادك الوصال نهماً كشارب الماء الملح^(٢) لا يزداد شرباً إلا ازداد عطشاً، ولو أنك عرفت آفاقاً منهم ثم رأيت أخرى متمنعة عليك، معرضة عنك، لرغبت فيها وحدها، وأحسست من الألم لفقدها مثل الذي يحسه من لم يعرف امرأة قط وهاك (فاروق) مثلاً!

وَهَبْكَ وجدت منهم كل ما طلبت، ووسعك السلطان والمال، فهل يسعك الجسد؟ وهل تقوى الصحة على حمل مطالب الشهوة؟ ودون ذلك تنهار

(١) لست أدعو إليه ولكن أقر حقيقة قررها كثير من كبار الأطباء ووافقوا فيها رأي الفقهاء من الخفية في الجملة.

(٢) الماء الملح: أي المالح.

أقوى الأجساد. وكم من رجال كانوا أعاجيب في القوة وكانوا أبطالاً في الرُّبَع والصَّرع والرَّمي والسَّبق، ما هي إلا أن استجابوا إلى شهواتهم، وانقادوا إلى غرائزهم، حتى أمسوا حطاماً...

إن من عجائب حكمة الله، أنه جعل مع الفضيلة ثوابها؛ الصحة والنشاط وجعل مع الرذيلة عقابها، الانحطاط والمرض، ولربَّ رجل ما جاوز الثلاثين يبدو مما جار على نفسه كابن ستين، وابن ستين يبدو من العفاف كشاب في الثلاثين، ومن أمثال الإفرنج التي سمعناها وهي حق وصدق: من حفظ شبابه حفظ له شيخوخته.

ولو ترك الرجل لغريزته، ولم تكن هذه المغريات من الصور والروايات والأفلام، وتكشف النساء وشيوع الفاحشة، لما هاجت به الغريزة إلا مرة أو مرتين في الشهر والشهرين، لأن من القواعد الثابتة في العلم أنه كلما ارتقى الحيوان (والإنسان هنا حيوان) في سلَّم التطور، قلَّ عنده السَّفاد وطال الحمل، فالديك والدجاجة يتسافدان كل يوم لأن مدة الحمل (بالبَيْضَة) يوم واحد أما القط (وهو من ذوات الأثداء) فيسافد القطعة مرة أو مرتين في السنة لأن حملها مرة في السنة أو مرتين. وأظن أن الإنسان أرقى من القط، فلماذا يكون للمقط موسم واحد، هو عندنا شباط (فبراير) وتكون شهور السنة كلها شباط عند بعض الناس؟ لهذه المغريات!

فالبلاء كله من المغريات، من دعاة الشر ورسُل إبليس، اللذين يزينون للمرأة التَّكشُّف والتَّبرج والاختلاط باسم المدنية والتَّقدمية والنهضة النسائية، وما يُعْنون بالمرأة إلا كعناية الجزائر بالنَّعْجَة: يطعمها ويدفع عنها ويحميها ويسمونها، ولكن للذَّبْح... والذين دأبوا على نشر صور العاريات في مجلاتهم من الممثلةات الأجنبيات أولاً، ثم من بنات المدارس بدعوى الرياضة، ونساء السواحل بحجَّة الاصطيف، وعملوا على ذلك الدهر الطويل، على خطة مرسومة، وسبيل معينة، صابرين محتسبين لوجه إبليس، ولولا هم ولولا مجلاتهم ولولا تلك الروايات من قبل وهاتيك الأفلام من بعد، ولولا الذين تخرجوا بدرجة الضلال، ثم وُلُّوا (مع الأسف) أمر أبائنا وبناتنا في مدارسنا، مارأينا

ولا توهمنا أننا سنرى يوماً، بنات المسلمين يكشفن عن سيقانهن وأفخاذهن، للعبة بكرة السلة، أو لعرض في حفلة الرياضة، أو لاصطياف على الساحل، ولوبيعت قاسم أمين ومن شايعه على دعوته، من رؤوس الفتنة، ورأوا إلأم انتهت إليه المرأة بدعوتهم (التي أرادوا بها غير هذا) لأخذتهم الصَّعقة!

وأؤكد لك أن (ذلك الأمر) في حقيقته أثفه وأهون مما تظن، وأن الحديث عنه أعظم منه، ووصفه أكبر أثراً في النفس من فعله، ولولا هذا الفن: فن الشعر والقصة والتصوير والغناء، ولولا هذا الذي يجمّل المرأة، ويحسن الحب، لما رأيت لتلك (الصلة الجسمية) في نفسك ولا نفس غيرك من الشباب عشر معشار ما تحسّه اليوم، إنها عملية كالعمليات الطبية كلها، ولكنها قدرة حقاً، لذلك وضع الله لها هذا (البنج) الذي يعمي ويصمّ، فلا يرى المرء القبح فيها، وهذا البنج هو الشهوة، ولو فكر المرء فيها هادئاً. لو فكر فيها بعقل رأسه لا بعقل أعصابه لما رآها إلا كما أقول.

وهذه المغريات كلها لا تعمل عملها، ولا تؤتي المرء من ثمرها، ما لم يوجد رفيق السوء، الذي يدلّك على طريق الفاحشة، ويوصلك إلى بابها، إنها كالسيارة الكاملة العدة، وهذا الرفيق كالزناد (المارش)، وليس تمشي السيارة مهما كانت قوتها إلا بالزناد.

* * *

وكأنّي أسمعك تقول: هذا هو الداء، فما الدواء؟

الدواء أن نعود إلى سنة الله، وطبائع الأشياء التي طبعها عليها، إن الله ما حرم شيئاً إلا أحل شيئاً مكانه، حرم المراهبة وأحل التجارة، وحرم الزنا وأحل الزواج، فالدواء هو الزواج.

الزواج وحده طريق الإصلاح، وأنا أقترح على الجمعيات الإسلامية والنوادي الإصلاحية أن تؤسس قسماً جديداً يرغّب الشبان في الزواج، ويدعوهم إليه، ويسهله عليهم، ويدلّ الخاطب على الفتاة التي تصلح له ويصلح لها، ويقرضه المال إن كان معسراً، ولهذا الاقتراح تفصيلات وذيول، من استجاب له وأراد العمل به، شرحت له تفصيلاته.

فإذا لم يتيسر لك الزواج، ولم ترد الفاحشة، فليس إلا التسامي، وأنا لا أريد أن أعقد هذا الفصل الذي أكتبه ليكون مفهوماً واضحاً، بمصطلحات علم النفس، لذلك أعمد إلى مثال لك: أترى إلى إبريق الشاي الذي يغلي على النار. إنك إن سدّدته فأحكمت سدّه، وأوقدت عليه فجّره البخار المحبوس، وإن خرّفته سال ماؤه فاحترق الإبريق، وإن وصلت به ذراعاً كبيراً كذراع القاطرة، أدار لك المصنع وسير القطار، وعمل الأعاجيب. فالأولى حالة من يحبس نفسه عن شهوته، يفكر فيها ويعكف عليها، والثانية حال من يتبع سبل الضلال، ويؤم مواطن اللذة المحرّمة، والثالثة حالة التسامي.

فالتسامي هو أن تنفّس عن نفسك بجهد روحي أو عقلي أو قلبي أو جسدي يستنفد هذه القدرة المدخّرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة، بالالتجاء إلى الله، والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس في البحث أو بالتفرغ للفن والتعبير عن هذه الصور التي تصورها لك غريزتك بالألفاظ شعراً، أو بالألوان لوحة، أو بالألحان نغماً، أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية البدنية أو بالبطولة الرياضية، والإنسان يا ابني محب لنفسه لا يقدم أحداً عليها، فإذا وقف أمام المرأة، ورأى استدارة كتفيه ومثانة صدره، وقوة يديه، كان هذا الجسم الرياضي المتناسق القوي، أحب إليه من كلّ جسد أنثى، ولم يرض أن يضحى به، ويذهب قوته ويعصر عضلاته ويعود به جلدأ على عظم، من أجل سواد عيني فتاة، ولا من أجل زرقتهما... هذا هو الدواء: الزواج، وهو العلاج الكامل، فإن لم يمكن فالتسامي، وهو مسكن مؤقت، ولكنه مسكن قوي، ينفع ولا يؤذي.

أما ما يقوله المغفلون، أو المفسدون، من أن دواء هذا الفساد الاجتماعي هو تعويد الجنسين على الاختلاط حتى تنكسر بالاعتیاد حدة الشهوة، وفتح (المحلات العمومية) حتى يُقضى بها على البغاء السري، فكلام فارغ، وقد جرّبت الاختلاط أمم الكفر فما زادها إلا شهوة وفساداً، أما المحلات العمومية فإننا إذا أقررناها وجب أن نوسعها حتى تكفي الشبان جميعاً، وإذن فينبغي أن يكون في القاهرة أكثر من عشرة آلاف بغي، لأن في القاهرة (من أصل المليونين ونصف

المليون من سكانها) مثي ألف شاب على الأقل... وإذا نحن جَوَرْنَا للشباب ارتيادها فاستغنوا بذلك عن الزواج، فماذا نصنع بالبنات؟ هل نفتح لهن محلات عمومية فيها (بغايا) من الذكور؟!

* * *

كلام فارغ يا ابني والله، وما تقوله عقولهم ولكن غرائزهم، وما يريدون إصلاح الأخلاق ولا تقدم المرأة، ولا نشر المدنية، ولا الروح الرياضية، ولا الحياة الجامعية، إنما هي ألفاظ يتلمظون بها، ويتدعون كل يوم جديداً منها يهولون به على الناس، ويروجون به لدعوتهم، وما يريدون إلا أن تخرج لهم بناتنا وأخواتنا، ليستمتعن برؤية الظاهر والمخفي من أجسادهن، وينالوا الحلال والحرام من المتعة بهن، ويصاحبوهن منفردات في الأسفار، ويراقصوهن متجملات في الحفلات، وينخدع مع ذلك بعض الآباء، فيضحون بأعراض بناتهن ليقال أنهم من المتمدنين...

وبعد يا ابني فلا تتردد في الكتابة إليّ إن لم يرضك هذا الجواب، ولا تستحي عما تجد من حرّ هذه الشهوة التي ركبها الله في النفس، إنها علامة القوة والأيد والشباب، وعليك بالزواج، ولو أنك طالب لا تزال. فإن لم تستطعه فاعتصم بخوف الله، والانغماس في العبادة والدرس، والاشتغال بالفن، وعليك بالرياضة فإنها نعم العلاج.

والحديث طويل، وهذا ما اتسع له مجال المقال، ومن استزادني زدته رسالة إن شاء، أو مقالة إن شاء الناشرون.

* * *

من أحاديث الإذاعة : رمضان

نشرت سنة ١٩٥٧

هذا الحديث عن رمضان، وفي رمضان النور والعطر، وفي رمضان الخير والطهر، وفي رمضان الذكريات الكثيرة، ففيه نزل الذكر، وفيه ليلة القدر، وكان فيه نصر بدر، وفي آخره عيد الفطر.

ورمضان نور على المآذن، ونور في القلوب.

ورمضان صوم عن الطعام، وصوم عن الحرام.

إن كانت الحياة تنازعاً على الحياة، فهذا الشهر إدراك لسر الحياة، وإن كان العمر كله للجسم، فهذا الشهر للروح.

وإن كانت الدنيا للتناحر والخصام، فهذا الشهر للحب والوئام.

* * *

هذا هو رمضان الذي أبصرت وجهه من كوة الطفولة فأحبيته، ورأيت أثره الخير في كل مكان في دمشق فأكبرته، ثم لم أعد أراه أبداً، فعلمت أنني قد افتقدته وأضعته.

إن رمضان الذي عرفته لم يعد يتردد على دمشق. إن هذا رمضان جديد، يحمل اسم رمضان الأول، الذي رأيته أول مرة من أكثر من أربعين سنة، ولكنه ليس ذلك الـ (رمضان).

رمضان القديم كان يغمر أرجاء دمشق كلها، فكنت تحسُّ به حيثما

سرت. تراه في المساجد المثلثة بالمصلين والقارئين، والمتحلقين حول كراسي المدرسين، وتراه في الأسواق، فلا تجد عورة بادية، ولا منكراً ظاهراً، ولا مطعماً مفتوحاً، ولا مدخناً ولا شارباً، وتشترى البضاعة وأنت آمن من الغش والغبن لأن أفسق البائعين لا يغش في رمضان، والمرأة تعمل مطمئنة إلى أنها مهما أخطأت فلن تسمع من زوجها كلمة ملام لأن المسلم الصائم لا يشتم ولا يلوم في رمضان؛ والرجل يجيء إلى بيته وهو آمن أن يجد من زوجه نكداً أو إساءة، لأن المرأة المسلمة الصائمة لا تؤذي زوجها في رمضان، ولو تركت بابك مفتوحاً لما دخل المنزل لص، لأن اللصوص يضربون عن العمل ويتوبون عن السرقة في رمضان.

أما رمضان الجديد، فلا تعرفه هذه الشوارع الجديدة والأحياء الحديثة، ولم يعرف بعد الطريق إليها، ودمشق القديمة لم يعد يستطيع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوءة بالنائمين والمتحدثين والمدرسين الجاهلين. والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين، والصائمون تسوء أخلاقهم في رمضان من الجوع وشهوة الدخان، والشياطين تصفد في رمضان ولكن الفساق ينطلقون عاملين فيه كما كانوا يعملون قبل رمضان.

ولقد كان أشد الناس بعداً عن الدين إذا سمع مدافع رمضان تاب وأناب إلى الله، ونزع نفسه الأثمة واستبدل بها نفساً زكية متعبدة، كما ينزع ثوبه الوسخ ويستبدل به ثوباً نظيفاً، والبيوت التي كان يسودها الخصاص تتحول في رمضان إلى دور أمن وسلام، والمدينة تصبح كلها أسرة واحدة، أو مدرسة داخلية يأكل الناس فيها في وقت واحد، وينامون في وقت واحد، ويقومون في وقت واحد، إذا دنت ساعة الغروب رأيت الناس جميعاً مسرعين إلى بيوتهم، هذا يحمل صحن الفول المدمس^(١)، وهذا يحمل الجرادق^(٢) والبرازق، وتكون المائدة منصوبة حتى أن أفقر الناس يجد في رمضان فطوراً شهياً، لأن كل صائم في

(١) من الدبماس والدبماس القرن.

(٢) الجرادق كلمة فصيحة.

رمضان يتفقد جيرانه ومن حوله، فلا يأكل هو الطعام الطيب، والألوان الكثيرة، وجاره لا يجد إلا الخبز والجبن، وتصطف الأسرة كلها حول المائدة، يجمعها شعور واحد، شعور واحد يجمع الغني والفقير، والأمير والأجير، هو الجوع، أغنى الناس يشتهي قبل المغرب ملعقة من حساء أو رشفة من شراب. والأولاد يقفون على الشرفات، أو على جوانب الطرق، فإذا رأوا مصباح المنارة، أو سمعوا المدفع، صاحوا بنغمة موزونة ولحن موقع: أذن. أذن. أذن. وطاروا إلى بيوتهم كما تطير العصافير إلى أعشاشها إذا رأت طلائع الليل، وتخلو الطرق، وتهدأ الأصوات، ثم ترتفع من كل مكان، من الكوخ ومن القصر على السواء، كلمة: الحمد لله، كلهم شبع وكلهم رضي وكلهم شكر، الذي أكل السبعة الألوان، والذي أكل الخبز والمسبحة والفول.

ثم يمضي الرجال إلى المساجد، ليصلُّوا التراويح، أو يصلُّوها مع أهلهم وأولادهم، وتكون الأسواق مضاءة، والأولاد مزدحمين فيها، على بيع الثلجات إن كان الوقت صيفاً، أو بيع الفول النابت، ومن أراد لهواً لم يجد إلا الحكواتي يقص قصة عنتر وكلها بطولة ونبل، لا كهذه القصص الآثمة الداعرة التي تغضب الكلاب لو وصفت مجتمعاتها بمثل ما وُصف به المجتمع الأميركي في قصة «طريق التبغ» التي طبعت من سنين قليلة عشرين مرة، وبيع منها ملايين، أو الكراكوزاتي...

فإذا مضت ساعة بعد صلاة العشاء، انطفأت الأضواء، وخلت الأسواق وانصرف الناس إلى دورهم، ليناموا. والمسحَّر لا يجيء إلا في وقت السحور، لا يجيء نصف الليل، ليوقظك من نومك، ويقرع بطبلته رأسك، كما يفعل الآن، وأنت مجبر أن تقول له: أشكرك، وتدفع له أجرته على أنه كسر دماغك وحطم أعصابك، ولم تكن هذه الاذاعات التي لا تسكت لحظة في رمضان، ولا كانت في البيوت هذه الأجهزة الشنيعة، مصيبة المصائب، الراد^(١) الذي تستطيع كل امرأة جاهلة، وكل ولد لعاب أن يزعج به مئة بيت، ولا يكلفه

(١) الراد: الراديو لأنه يرد الصوت المنتشر في الفضاء.

ذلك إلا أن يمد أصبعه وهو نائم فيدير زرّه أنملة (سانتي متر) فيدخل الداء العصبي على كل من سكن هذه البيوت، ويهرب رمضان المسكين بتأمله وخشوعه وطهره. إن رمضان لا يستطيع أن يعيش إلا في الهدوء والسكون، فكيف يعيش في هذه الضجة الهائلة، وكيف يتفرغ الصائم لعبادته وكيف يتوجه إلى ربه؟ وكيف ينام ليقوم إلى السحور، إذا كان كل صاحب راد، لا يسمع وحده بل يسمع أربعين جاراً وكانت الأصوات لا تنقطع طول الليل، والمسحر يحجى من الساعة الواحدة، وهؤلاء الموسيقيون الفاشلون الذين عجزوا عن أن يكونوا رجال فن، فأسبغوا على غنائهم ثوب الدين، والدين يبرأ منهم، وتغزلوا بالرسول ﷺ بدلاً من التغزل بليلي وسلمى، والبياعون يأتون من طلوع الشمس، مصلح البوابير، وبياع الحليب، (واللي عنده سجاد للبيع)، والأولاد الذين يتخذون الحارات والجادات ملاعب للكرة.

وكيف يشعر بوجود رمضان من يركب الترام فيرى أمامه من يدخن وينفخ في وجهه الدخان، ويرى المطاعم مفتحة والأكلة يأكلون، ويرى الناس إن صاموا عن الشراب وعن الطعام، لا يصوم إلا القليل منهم عن الكذب والغش والغيبة والبذاءة والخلف بغير الله، أو الحلف كاذباً بالله، ولا يصوم إلا القليل عن الغضب والبطش والأذى. وليس الصيام في الحقيقة إلا تدريباً خلقياً، ليس الصوم جوعاً وعطشاً فقط، خلق الله ملائكة، وخلق شياطين، وخلق وحوشاً وسباعاً. فالملك خير كله، والشيطان شر كله، والسبع طبيعته البطش، لولاه ما عاش، وخلق الإنسان من الثلاثة جميعاً، ففي الإنسان ملك وشيطان وسبع، الملك له الإيمان والرحمة والطاعة والخشوع والسمو النفسي والشيطان له الشهوة المحرمة والكذب والاحتياال والإفساد، والسبع له الغضب والبطش والقهر. والصيام في الحقيقة صيام عن السبعية والشيطانية لتخلص النفس في هذا الشهر للملكية. فإذا لم تظهر على الصائم أخلاق الملائكة، وإذا بقي يغضب ويبطش كالسبع. ويشتهي ويفسد كالشيطان، فإنه لم يعرف حقيقة الصيام.

لقد كان رمضان الذي يحجى دمشق من أربعين سنة رمضاناً حقيقياً،

وما أدري أمات وجاء غيره، أم قد شاخ وعجز عن أن يطوف دمشق كلها أو أن يثب فيدخل في نفوس أهلها، فصار يثبت وجوده في المفكرة والتقويم وفي أضواء المآذن ومدافع القلعة فقط، فقط لا غير؟ أم أنا الذي تغير وتبدل؟ كنت أنظر قبل أربعين سنة بعين صبي لم يقارف إثماً. فكنت أرى رمضان، فلما أثقلت الأثام أجفاني لم أعد أراه؟

وكان أهل دمشق في مثل طهارة الأطفال، لم تشوّه أصباغ الحضارة طبيعة الحسن في نفوسهم؛ ولم تفسد الشبه والعصبيات جمال الأخوة بين أفرادهم، ولم تكن قد هتكت أستار الصيانة، ولا مزقت براقع الحياء، كانت المرأة لزوجها وولدها وربها، والرجل لزوجته وولده وربّه، فكانوا يرون رمضان كلهم. يرون هلاله في الأفق، ونوره في القلوب، وأثره في البيوت والأسواق والمدارس والمساجد، ويشعرون حقاً أن قافلة العمر كانت تمشي بهم في صحراء مجدبة، فإذا كان رمضان، مشت في الواحة التي تعبق برياً الأزاهير، وترقص على أنغام الشحارير، فيكون من ذلك أنس للنفس وراحة للروح.

فأين ذلك رمضان؟ أين هو؟ دلوني عليه! دلوني عليه أجد فيه ماضي الذي فقدته، وأنسي الذي أضعته. رمضان الذي يتوب فيه كل عاص، ويتصل فيه كل منقطع، ويشهد فيه كل محجوب، وتسطع فيه الأنوار في كل قلب، حتى لتمتلئ بالرضا والاطمئنان والحب، ويقوم الناس في الأسحار ساعة يتجلى الله على الوجود تحلي الرحمة والغفران، وينادي المنادي من السماء: ألا من سائل فأعطيه، ألا من مستغفر فأغفر له. فيهتفون من أعماق قلوبهم: يا أرحم الراحمين، ويسألون الله ويستغفرونه، فيحسون أن قد صعدوا بأرواحهم إلى حيث يرون الأرض كلها ومن عليها ذرة تجول في هذا الفضاء. الدنيا كلها بأطماعها وأحقادها ومغرياتها، ويتذوقون أعظم اللذات، اللذة التي لا تقاربها لذّة، لذّة الاتصال بالله، ومناجاته في سكناات الليل، وهذآت الأسحار، فتسطع أنوار الإيمان في كل قلب، ويمتلئ بالرضا والاطمئنان والحب، والقلب كالنسر الذي يضرب بجناحيه في طباق السماء ولكننا قيّدناه بقيود المادة، ثم

أغرقناه في حمأة المطامع والشهوات. فكيف يطير نسر مقيد الجناح غارق في الطين؟

هذا هو رمضان. . . فحلوا القيود فيه عن قلوبكم، واغسلوها من أوضار الحمأة التي غمستموها فيها، ودعوها ترتفع لتطلع على جمال الوجود، وترى من هذا المرقب العالي جمال رمضان.

* * *

نشرت سنة ١٩٥٨

خذ قلماً وورقاً وحاول أن تكتب أسماء أصدقاك جميعاً، ثم صنفهم أصنافاً، نجد أولاً أن منهم من ليسوا أصدقاء على التحقيق، ولكنهم أصحاب ورفقاء.

فمنهم رفيق، تلقاه كل يوم أمامك، في السيارة أو الترام، يحييك فتحية، ويسألك فتحية، ويرجوك إغلاق النافذة، فإن فعلت شكر، أو يدوس على رجلك فإن أحسّ اعتذر، والكلمة تحبُّ الابتسام، والابتسام يحبُّ الكلام، وتغرُّ الأيام فإذا أنتما تبادلان تحية الصديقين، وتتحدثان حديث الصفيين، وأنت لا تعرف اسمه ولا تدري ما هو.

ومنهم رفيق العمل، تكون موظفاً فترى مكتبه حيال مكتبك، ووجهه تلقاء وجهك، أو تكون عاملاً فترى آله إلى جانب آلتك، أو يكون زميلك في المتجر أو جارك في السوق، تكون معه أكثر مما تكون مع أهلك ولذك، وتلقاه أكثر مما تلقى أصدقاءك وأهل ودك، وقد تشاركه الجهد والهزل، والرضا والغضب، وما شكلك من شكله، ولا عقلك من عقله، ولا أنت من واديه. ورفيق السفر، ممن تجمع جسديكما عربية الفطار، وروحيكما الرغبة في دفع الملل، فيكون منك سلام ومنه كلام، وملاحظة لما ترى، وجواب لما تسمع، وما هي إلا ساعات، حتى تشاركا في الطعام، وتتجاوزا في المنام، وتساقط بينكما الأستار، فيرى منك، وترى منه، ما لا يراه المرء إلا من ساكن بيته، وفي قرباته، وما أنت منه ولا هو منك في ود ولا إخاء.

ورفيق القهوة، ورفيق السينما، ورفيق الملعب، وضروب من الرفقاء غير من ذكرت، ربما استمرت صلة المرء ببعضهم حتى سَمَّاهم أصدقاءه، وما هم بالأصدقاء، ولا اختارهم بملكه، ولا صاحبهم باختياره، ولكن الحياة ألفتهم في طريقه، وحملتهم على عاتقه، وإذا هو لم يُحْصِهِمْ ولم يُجَرِّدْهُمْ (جرد) التاجر بضاعته، ثم يصنّفهم أصنافاً، فيبقى على الجيد، ويطرح الرديء، لم يدر إلى أي هاوية تسوقه هذه الصداقات، لأن الصاحب صاحب، وكل قرين بالمقارن يقتدي، وربّ رجل سايّرته في طريق، أوراقتّه في سفر، أو عرفته في ديوان، فبدلت له من ظواهر الود، ما يبذله الرجل المهذب لمن يلقاه، وأنت لا تدري وجهته في الحياة، فنسب إليك، وعرف بك، واتصل بك شره، أو أصابك ضره، أو لحق بك عاره، وإذا هو قد ترك فيه أثراً منه من حيث لا تشعر، وكل كلمة تنصبّ في أذنك إنما هي بذرة كالبذرة التي تلقى في الأرض المخصبة، قد تكون بذرة خير فتنبث في نفسك خيراً، وقد تكون بذرة شر فتنبث في نفسك شراً، ورب ناس كانوا صالحين فأفسدتهم صحبة شرير بدل حالهم، وأشقى حياتهم، وناس كانوا أشراراً فصلحوا بصحبة الصالحين، ومن كان مستريحاً من وخز الغريزة يشتغل عنها بعلم أو فن أو رياضة قلب أو جسد، فأوقد عليه نارها، وأذاقه أوارها، صاحب لا يدري من أين سقط عليه، وآخر يعيش في طريق النار فمشى به صديق في طريق الجنة، وليس الصديق الذي يذكرك الله، كمن ينسيك ذكره، ولا الذي يسوقك إلى المسجد للعبادة، كمن يقودك إلى الماخور للفجور، ولا من يحدثك عن كتاب طالعه لتطالعه أنت، كمن يصف حسن راقصة رآها لتسعى أنت إلى مرآها.

فإذا أردت الخلة التي تجمع خلال الخير، والعمل الذي يصلح الأعمال كلها، فاكتب أسماء أصدقائك وأصحابك، ومن تتصل به بروابط الود، وانظر إلى كل واحد منهم. هل هو صالح في نفسه أم هو غير صالح، وهل هو مخلص لصديقه أم هو لا يبالي إلا بنفع نفسه ولذتها، وهل هو مؤنس لجليسه أم هو فقط مزعج غليظ؟

فإذا فعلت رأيت الرفاق على أنواع، ووجدت فيهم من هو صائم مُصلٍ

له سمت المتقين، وزئى الصالحين، ولكنه يتخذ ذلك سلماً للدنيا وشبكة للمال، ووجدت حقيقته تكذب ظواهر تقاه، فإن عاهدته خاىك، وإن عاملته غشك. ووجدت فيهم من هو صادق المعاملة أمين اليد، ولكنه لا يصوم ولا يصلي، وليس له من الدين إلا اسمه، فهو يفسد عليك دينك.

ووجدت فيهم من هو صالح متعبد، أمين صادق المعاملة، ولكنه عارم الشهوة، جامع الغريزة، لا حديث له إلا عنها، ولا خوض إلا فيها، وقد كف عن الحرام جوارحه، وأطلق فيه لسانه، فهو يؤذيك بإثارة الخامد من رغبتك، وإيقاظ الهاجع من غريزتك.

ومن هو صالح في نفسه، أمين في معاملته، عف اللسان، طاهر الذيل، لكنه لا ينفع صديقاً، ولا يسعد صاحباً، ولو كان على الفرات وأنت تتحرق من الظما ما ناولك كأس ماء.

ومن يخدم صديقه ويسره، ولكنه لا يبالي في خدمته ومسرته أن يعطيه من دينه، فيخون من أجله أمانته، ومن عرضه فينبيله من باب الحرام لذته، ومن شرفه فيعينه على أكل حقوق الناس، وسرقة أموالهم، يرى كل ذلك في سبيل الصداقة جائزاً مباحاً. فيأخذ بيدك حتى يدخلك معه جهنم.

ومن هو دين في نفسه، معين لصديقه، واقف عند حدود الله، لا يقارف إثماً، ولا يباشر محرماً، ولكنه يجهل طرائق المعاشرة، وآداب المؤاكلة، وكل ما تواضع عليه المهذبون من الناس، يأتي بما تغنى منه نفسك، وتهيج أعصابك.

ومن هو أحمق رقيق، أوفعاش طياش، ومن يصادقك لحسبك أو منصبك فهو يتخذك زينة بيومه وعدة لغده، فأنت عنده حلية تجمل الجدار.

والخلاصة أن الأصحاب خمسة: فصاحب كالهواء لا يستغنى عنه. وصديق كالغذاء لا يعيش إلا به، ولكن ربما ساء طعمه، أو صعب هضمه. وصاحب كالدواء مر كربه، ولكن لا بد منه أحياناً. وصاحب كالصهباء تلذ شاربه، ولكنها تؤدي بصحته وشرفه. وصاحب كالبلاء.

أما الذي هو كالهواء . فهو الذي يفيدك في دينك ، وينفعك في دنياك ، وتلك عشرته ، وتمتعك صحبته . وأما الذي هو كالغذاء ، فهو الذي يفيدك في الدنيا والدين ، لكنه يزعجك أحياناً بغلظته وثقل دمه وجفاء طبعه . وأما الذي هو كالدواء ، فهو الذي تضطرك الحاجة إليه ، وينالك النفع منه ، ولا يرضيك دينه ولا تسليك عشرته . وأما الذي هو كالصهباء ، فهو الذي يبلغك لذتك وينيلك رغبتك ولكن يفسد خلقتك ، ويهلك آخرتك . وأما الذي هو كالبلاء ، فهو الذي لا ينفعك في دنيا ولا دين ، ولا يتمتعك بعشرة ولا حديث ، ولكن لا بد لك من صحبته .

وعليك أن تجعل الدين مقياساً ، ورضا الله ميزاناً ، فمن كان يفيدك في دينك فاستمسك به ، إلا أن يكون ممن لا تقدر على عشرته ، ومن كان يضرك فاطرحه ، واهجره ، إلا أن تكون مضطراً إلى صحبته ، فتكون هذه الصحبة ضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات ، بشرط ألا تتجاوز في هذه الصحبة حد الضرورة .

وأما الذي لا يضرك في دينك ، ولا ينفعك في دنياك ، ولكنه ظريف ممتع ، اقتصرت منه على الاستمتاع بظرفه ، على ألا تمنعك هذه الصحبة من الواجب ، ولا تمشي بك إلى عبث أو إثم .

وما كان وراء ذلك فهو الذي قيل في مثله :

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا	ولا أنت ذو دين فترجوك للدين
ولا أنت ممن يرتجى لملمة	عملنا مثلاً مثل شخصك من طين

* * *

أذيعت سنة ١٩٤٢

أيها السادة:

إني أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة، فقد ظلموني وظلموكم معي .
جاؤوا بي لأحدثكم، فحسبت أني سأدخل نادياً فيه ناس أراهم، فأخاطبهم
على قدر عقولهم، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء، وإن كانوا من العامة
خاطبتهم خطاب العامة، فإذا هم يصعدون بي درجاً بعد درج حتى إذا كُلت
رجلاي من الصعود، وهممت بالرجوع، قالوا: قد وصلنا، فنظرت فإذا نحن في
أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد)، فتلفت أنظر أين النادي الذي سأخطب
فيه؟ فما عهدت نادياً يبني على رأس مئذنة! وأين الناس؟

وإذا هم يدخلونني من دهليز إلى دهليز، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة،
فأشاروا إلى باب، وقالوا: (هُسْ) إياك أن تتكلم، أو تعطس، أو تسعل أو تخطب
برجلك، أو تدق بيدك، أو تُخَشِّش^(١) بأوراقك..!

فقلت: فكيف إذن أتحدث؟ أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من
غير كلام على لغة الخرسان؟

قالوا: لا، ولكن إذا جاء دورك تكلمت.

وفتح الباب، ودخلنا غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق، ولا شباك

(١) من العامي الفصيح .

ولا باب ولا نافذة ولا كوة ولا شقّ لدخول الهواء، ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة، وقد وقف أمامها شاب يصوت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم، ووراء رفاق له يضربون بأعوادهم وي زمّرون، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ماذا يصنع هذا الرجل: أيغني أم يخطب، أم هو مصروع معتوه يخلط، أم يتكلم بلسان أهل مالطة، فلم أهند إلى حقيقة، ثم سكت وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة فقال: لقد انتهت الحفلة الموسيقية...

فقلت: إذن هي حفلة موسيقية؟!

سبحان القادر على كل شيء!

وأقبل الموظف عليّ، فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المخنثة، فقلت: ماذا؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية؟

قالوا: هس! هس!

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء، وجعل يكلمني بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه، وقال: تفضل يا أستاذ، اقعد وتكلم!

قلت: أتكلم مع من؟ أين الناس؟ أين المستمعون؟!

قال: تكلم هنا... وأشار إلى العلبة.

قلت في نفسي: أعوذ بالله من شر هذه الغرفة! لقد حسبته سجنًا مغلقًا فإذا هي مارستان! أأكلم علبة؟ أمجنون أنا؟ ونظرت في المرأة فوجدت صورتي متغيرة... أهذا أنا؟ وأمعنت النظر، فإذا الذي حسبته مرآة لوح من زجاج بيننا وبين الغرفة الأخرى، فنحن نرى من فيها، ولكن لا نسمع أصواتهم، فاجتمعت عليّ هذه الليلة المتناقضات: هنا أشخاص أراهم ولا أسمع أصواتهم، وهنالك صندوق تخرج منه أصوات أسمعها ولا أرى أهلها، وبحث عن مهرب فلم أجد، وفتشت عن نصير فلم ألقه، وما حولي إلا شباب جدد وموسيقيون معهم أعوادهم، وأنا الشيخ... الوحيد... في هذه العصابة.

فاستسلمت للمقادير، وقعدت، والعرق يسيل على عنقي ووجهي،
 وشرعت أكلّم العُلبة كالمجانين، خوفاً من أن يحل بي هذه الليلة ما هو أعظم!
 نعم. لقد ظلمت، أيها السادة، وظلمتم معي، لأن أكثركم يؤثر (عتاباً)
 بلدية، أو (قَرَّادية) نقدية، أو أغنية شاكية باكية، مَيِّتة مميتة، لا شرقية ولا غربية
 من أغاني عبد الوهاب. على كل ما في الدنيا من محاضرات، ولكنكم تستطيعون
 أن تديروا مفتاح الرادّ، فتخلصوا مني ومن محاضرتي، وتبعثوا إليّ بما يوحيه
 إليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التي لا أسمع منها شيئاً، ولكن
 المصيبة عليّ أنا، لقد حُبست في مارستان، لا أخرج منه حتى أكلّم علبة من
 حديد ربع ساعة ولا تنقص ثانية ولا تزيد!

فلنستعن بالله، ولنتحدث...

* * *

ولكن خبروني أولاً: هلى تسمعون كلامي حقيقة؟!

أما أنا فلا أصدق أنكم تسمعون مني، وكيف يسمع من هو في المهاجرين
 وحصّ وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هذا الأخ الجالس أمامي وراء
 الزجاج، والذي يبدو عليه أنه لا يدري ماذا أقول، فلا يتسم، ولا يعبس
 ولا يفتح عينيه، ولا يرفع حاجبيه، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع، وهذا
 من نعم الله عليّ، فلو سمعني أتكلّم عنه لما نجوت منه بسلام!

فإذا كنتم تسمعون (يا سادة) كلامي، فأشيروا إليّ، أو صفقوا، أو قربوا
 أفواهكم من (الرادّ) وصيحوا - إني انتظرت فلم أسمع صيحتكم، فلم يبق
 إلا أن أصنع كما صنع زميلنا المحترم (جحا)، حين أذن ونزل من المنارة يعدو،
 قالوا: إلى أين يا جحا؟ قال: أريد أن ألحق صوتي فأنظر إلى أين وصل؟!

ولنفرض إنكم سامعون، فعَمَّ أحدثكم؟ ومن لي بالحديث الذي يرضيكم
 جميعاً: العالم منكم وغير العالم، والرجل والمرأة، والكبير والصغير، وأي معلم
 يستطيع أن يلقي درساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة،
 ومن بينهما، ويرضون عنه، ويعجبون به.؟

لقد فكرت طويلاً، وحشدت قوى نفسي كلها، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل، لأتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا: ما شاء الله كان! ما هذه المحاضرة؟ شيء عظيم جداً، ولكني لم أستقر على موضوع.

قلت: الدنيا الآن في رمضان، وخير الأحاديث حديث الدين، وما أسهل الكلام في الدين في هذه الأيام. وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً، وأن يرى الرأي المخالف لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والليث بن سعد والأوزاعي، وكل مجتهد في الأرض فيتمسك به ويخطئ المخالفين من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة. ولم لا؟ إنه رجل وهم رجال، والحداد والنجار والموسيقي رجال أيضاً، فلماذا لا يكونون أئمة مجتهدين، وما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها، والفقه وأصوله وفروعه، والتفسير والحديث ليس شرطاً في الاجتهاد؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب وصفة دواء، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء، وتدع من شاء يتكلم في الدين والأدب بما يشاء؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل في هذه الأيام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله، وتقبل يده ويتمسح بذيله، أن يعرض لحيته، ويكور عمتة ويوسع جبته ويطول سبحة، ويتكلم كلاماً تقبله العامة، ولو خرف وخلط وضلل، وأكل الدنيا بالدين، واستغل غفلة الغافلين، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول!

لا... لن أتكلم في الدين، فالكلام فيه شديد الخطر، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس، أو أقول الباطل فأسخط الله. ثم إنني طلبت الليلة مرصاة السامعين، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين، ولطول ما رأوا من أذعياء العلم فيه، منصرفون عنه زاهدون في حديثه، حتى الاتقياء الصالحون منهم. الذين يتمسكون في رمضان بدينهم، فيقضون نصف النهار في (الأموي) نائمين يشخرون وينخرون^(١) أو متحلقين حلقاً يمزحون في الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون!

(١) من العامي الفصيح.

فلتتكلّم في الأدب، فالأدب أسلم عاقبةً، وأوسع حريةً، وهو هينٌ عليّ وعلى غيري، وقد صار الأدب الآن كوصل ليل: كلٌّ يدّعيه، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة، ويجد صفاً يصف له حروفه، وصاحب جريدة ينشره، فهو كاتب بليغ، وكل من يأتي بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق، وكل من يحفظ خبراً عن أبي تمام والمتنبي، أو هوغو ولامارتين، أو شكسبير وملتون، فهو أديب أريب، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق، ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام، ويتكلّم كما يتكلّمون، ففكر تفكيراً غير آدمي وتكلّم كلاماً ليس بإنساني، فهو شاعر رمزي، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون!

لا — يا سادة — إن الأدب امتّهن وأبتذل، فلن أتكلّم في الأدب!

أفأتكلّم في السياسة؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ويتكلّم في رجالها، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة، ويكون له رأي في الملك عبد الله، وابن السعود، واتلي ومولوتوف، وترومان، ويرسم أحسن الخطط لمحاربة الغلاء، وتنظيم ملاكات الموظفين، وحل مشكلة فلسطين، وإدارة ألمانيا المحتلة، ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية، وهيئة الأمم المتحدة، ولو كان تاجراً أمياً، أو سائق ترام، أو شيخ ضيعة، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات!

لا... لن أتكلّم في السياسة، أفأتحدث إليكم في الفلسفة؟.. لقد اشتغلت بها حيناً، وأنا أستطيع أن أفلسف متى أردت، ولا يكلفني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء، وأن أنظر إلى كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك، على أنه خطأ وأن الصواب هو عكسه!

وبعد — يا أيها السادة — فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى، وأني قد خدعت القائمين على المحطة، فأطعتهم وكلمت العلبة ربع ساعة، وقبضت

الأجرة، ولم أقل شيئاً. وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام، يأخذ الأجرة من غير عمل، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة. . .

هذا، وأنا لا أدري هل يدفعون لي أجرة، أم أنهم سيكتفون بشكري الجزيل. . . فإذا أعطونا شيئاً ربحناه. وإلا فحسبنا أننا لم نعطيهم شيئاً نندم عليه!

ولا تعجبوا - يا سادة - فكل الناس تاجر يعرض بضاعته، ونحن معشر الأدباء بضاعتنا الكلام، وكل كلام له ثمن، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع!

* * *

نشرت سنة ١٩٥٧

أنا أخطب من قديم، فما يتعاطمني بحمد الله موقف، ولا أضيق بقول، إلا موقفاً واحداً، كلما ازدددت بالخطابة تمزساً، ازدددت له هيبة ومنه فراراً، فأنا لا أزال أمامه اليوم، ذلك الشاب الذي أقدم على مواجهة الناس أول مرة، في حفلة مدرسية، كانت قبل بضع وثلاثين سنة، وقد كنت تلميذاً في المدرسة الثانوية. ذلك الموقف الذي أخشاه وأتبيه، هو خطبة الجمعة، وما أهابه خوفاً من الناس، فقد فرغ مني الناس وفرغت منهم، إذ صار لي منهم صديق وعدو، أما الصديق فليس يضرني عنده أن أسيء مرة، وهو يرى أنني قد أحسنت مئة مرة، وأما العدو فمهما جتته به من خير وإحسان أترضاه به، فلن أنال رضاه، بل لأن هذا الموقف خاصة من دون المواقف كلها، ليس مقام فصاحة ولسن وبيان، ولكنه مقام وعظ وهداية وإرشاد، مقام رسول الله ﷺ، فمن قامه وجب أن يتخلق ما استطاع بأخلاق الرسول ﷺ، وأن يكون متبعاً سنن الرسول ﷺ، حتى إذا قال: «اتقوا الله»، لم يكذب قوله فعله، ولم يُبطل ما يعرف الناس من سيرته، أثر ما يسمعون من موعظته، ولأنه المقام الذي لا يقول فيه الخطيب: «سادتي» ولا يوجه كلامه توجيه تشريف وإعظام لصاحب فخامة أو صاحب دولة، كما يصنع خطباء الدنيا، بل هو ينظر بعين الشرع، فيراهم كلهم عبيداً لله، أكرمهم أنقاهم، لا أقواهم ولا أغناهم، وهو يتكلم بلسان الشرع فيرفعه الشرع حتى يكون فوقهم جميعاً، فيأمرهم جميعاً وينهاهم، ويحذرهم وينذرهم، فإن كان يأمر ولا ياتمر، وينهى ولا ينتهي، بطل نفعه، وذهب خيره، وأعقبه ذلك الهوان على الناس والخسار في الآخرة.

لذلك أجد عنتاً كلما كلفت خطبة الجمعة، وأعدّ نفسي لها من قبل أيام، أحاول أن أذكرها بالله، وأن أدلها على طريق الخير وأسلكه بها ما استطعت واستطاعت، وأبتغي من المواعظ والفكر ما ألين به هذا القلب القاسي.

وقد كنت قبل أيام أستعد لخطبة الجمعة (التي ألقيتها في مسجد الجامعة السورية، وأذيعت منه) فنمت مبكراً، على أن أقوم من الليل لصلاة العشاء، لعلني أدخل في ركب المتجهدين، كما يدخل الفضولي الحقير في الوليمة الكبيرة التي لم يدع إليها إلا السادة العظماء، فأكون مرة واحدة في عمري مع الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، والذين يصفون الأقدام، والناس نيام، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، وما أنا منهم، ولا أدرك غبارهم، ولكن تشبهاً بهم، (إن التشبه بالكرام فلاح).

وبَيَّتُ العزم على ذلك، فصحوت في الساعة التي قدرتها، كأنما أيقظني موقظ، وذهبت أقوم، ومددت يدي، وكان النوم آخذاً بمعاقد أجفاني، فأحسست برودة الجو، ودفء الفراش، فاسترخى جسدي، وحُبب إليّ النوم، واجتمعت فيه رغباتي كلها، وسمعت كأن هاتفاً يمس في أذني، يقول: الوقت فسيح، والليل طويل، والفراش دافئ والجو بارد فتم ساعة فاستجبت له، فجاء آخر يقول لي: قم، نفذ ما عزمْتَ عليه وتوكل على الله واذكر ثواب الصبر على الطاعة. وعذاب الإقدام على المعصية، ولو أن رجلاً أدنى منك جمرة، أو جاءك بمئة ليرة، لو ثبت من الفراش، فكيف لا تبالي بجهنم كلها وأنت تخاف الجمرة، ولا تحفل الجنة بنعيمها وأنت ترجو مئة ليرة؟

فعاد الأول يقول: تريث لحظة، وانقلب على جنبك الآخر. واشتدت عليّ هذه الرغبة حتى لقد أحسستها في أعضائي كلها، فانقلبت فإذا أنا أشعر لمعاودة المنام على ذلك الجانب بلذة لا تعدلها اللذات. فرجع الثاني: يقول: ويحك. هذا هو الشيطان يصرفك عن الصلاة فاستعد بالله منه.

وصرت بين، (نم) و(قم)، تترددان عليّ كدقات الساعة، نم، قم، نم، قم، نم، قم، قم.

وكننت أعرف من (علم النفس) أن هذا التردد لا آخر له، وسيظل حتى استغرق في النوم، أو يطلع الفجر، فإذا أنا لم أثب عند كلمة (قم)، لم أقم أبداً.

وقلت: أعوذ بك يا رب من الشيطان، وأسألك العون عليه، وتوجهت بقلبي إلى الله. فلما ذكرت الله، رأيت الشيطان قد خنس وانقطع عني وسواسه، ولم يبق إلا: قم. قم. قم فقامت، وتوضأت وقد سرّني أني غلبت الشيطان، واستجبت إلى طاعة ربي، وأحببت أن أصلي صلاة خاشعة مخلصه الله، ووقفت للنية مصفياً نفسي من الأكدار، نافياً عن فكري الشواغل أريد أن أدخل على الله، وأنا نظيف لم تعلق بذهني أوضاع الدنيا، وذهبت أقول: الله أك...، وإذا بالخواطر الدنيوية تتثال عليّ قبل أن أتم تكبيرة الإحرام، فعدت أجمع ذهني، وأركز فكري، فإذا حاولت الإحرام، فسدت علي نية التوجه وتفرق ما جمعت من ذهني. وتكرر ذلك، وعجبت من نفسي فما كان لي بمثله عهد من قبل. وذكرت الله واستغفرته، فعرفت السبب. إنه الشيطان، لما طردته بالذكر أول مرة، ووثبت من الفراش، دخل نفسي العُجب، وظننت أني صرت من الصالحين، فرأى الخبيث في هذا باباً جديداً، يلج عليّ منه فجاءني متكرراً بهيئة الناصح ليفسد علي صلاتي بهذا التكلف الذي ما عرفه الصحابة ولا التابعون، ولا أوجه الله في كتاب ولا سنة، واستعدت بالله منه وصليت، فلما انتهيت قال لي: ما هذه الصلاة؟ أين هذه من صلاة الخاشعين؟ إن الصلاة إذا لم تكن على وجهها كان وجودها كعدمها فأدركت أن هذه حيلة من حيله، طالما أضاع على كثير من المسلمين صلاتهم بها، يقول لهم: ليست الصلاة ركوعاً وتلاوة وذكراً، ولكن الصلاة الحق هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا يأتي المرء معها معصية ولا ذنباً، والتي يقف فيها بين يدي مولاه لا يفكر في شيء قط من أمر الدنيا، ولا يذهب إليه ذهنه، ولا يبصر بعينه ما حوله، لا يحسه ولا يدري به، فلما استقر ذلك في نفوس طائفة من الناس ورأوا أنهم لا يقدرُونَ عليه، قالوا: إذا لم تكن صلاتنا صلاة، ولم نكن نقدر على خير منها، فما لنا نتعب أنفسنا بالركوع والسجود في غير ثواب؟ وتركوا الصلاة جملة، فكان لإبليس ما أراد.

مع أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وشريعة الله لا تنافي طبائع البشر التي طبع الله الناس عليها، وليس على المصلي إلا أن يخشع ما استطاع، وأقل درجات الخشوع أن يدرك معاني ما ينطق به، وأن يتصورها، وكلما عرض له عارض من الأفكار الدنيوية التي لا يخلو منها ذهن مصلٍّ، ذكر أنه بين يدي الله، وأن الله أكبر منها فطردها بقوله: «الله أكبر»، يقولها كلما قام أوقفه، أو ركع أو سجد، أما أن نكلف المصلي ألا يرى ما حوله ولا يسمع به ولا يحسه، ونجعل ذلك شرطاً لصحة الصلاة، فهذا ما لم يقل به أحد، والرسول ﷺ أطال السجود لما ركب ظهره أحد ولدي فاطمة (نسيت من منهما رضي الله عنها وعنهما)، لأنه أحس به. وفي الحديث عنه ﷺ من رابه في صلاته شيء فليسبح الرجال وليصفح (أي يصفق) النساء، وجوز قتل الحيَّة والعقرب في الصلاة، وأباح للمصلي منع الماشي أمامه من أن يمر، ومعنى ذلك أن المصلي يرى ما حوله ويحسه، ومن قال أنه لا يرى؟ وعمر كان يفكر في تجهيز الجيش وهو في الصلاة، على الرغم منه، لاشتغال فكره به، لا إنه كان يتعمده... والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر حقيقة، فمن لم تنه صلاته لم يتركها، بل يرجع إلى الله بالتوبة والاستغفار، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، خير من ترك الطاعة وأقام على المعصية!

* * *

فلما رأى الشيطان أن هذه الحيلة لم تجز عليّ، عاد يوسوس لي ويقول: لقد صليت صلاة كاملة، هذه هي الصلاة، وأنت رجل صالح متعب عارف بالله، لا يغلبك الشيطان أبداً، وأنت من أهل الجنة فاحمد الله على ذلك.

قلت: لعنك الله، هذه إحدى بلاياك، تريد أن آمن مكر الله، «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»، كما أنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فالؤمن أبداً بين حالتي الخوف والرجاء إن استقر على إحداهما وحدها هلك. وقعدت أقرأ القرآن، لأن قرآن الفجر كان مشهوداً، فجرب الخبيث معي ألواناً من وساوسه كلها، ليصرفني به عن الفهم والتدبير، منها أن أجعل همي كله لمخارج الحروف، وأحكام التجويد، والترقيق والتفخيم والاستطالة

والإشمام، وقال: انظر الضاد من (المغضوب) فإنها ما جاءت على وجهها، وانظر الغين فصيح مخرجها، والمد اللازم في (الضالين) لم يبلغ مداه، يريد أن اشتغل بذلك عن فهم القرآن والعمل به، مع أن ذلك مما لم يسمع عن صحابيٍّ أو تابعيٍّ أنه اشتغل به أو أولاه همه، بل لقد كره السلف التدقيق في ذلك^(١)، ومنها أن أسرع وأتلو تلاوة البيغاء وأستكثر من القراءة لأقول أني ختمت في يومين أو ثلاثة، ومنها أن أتعلم القراءات المختلفة وأقرأ بها على العامة، وذلك مما لا أراه يجوز لأنه فتنة لهم، وإفساد لعقيدتهم، ولأنه سبب عجب القارئ ورضاه عن نفسه، ولأن فيه صرفاً عن حقيقة التلاوة، التي هي التدبر والفهم، واستنباط الحكم، ثم إنه يجعل التلاوة صناعة من الصناعات، يعيش بها أهلها، يقدم منهم من كان أطرى حنجرة، وأحلى صوتاً، وأبصر بالأنغام، وهذا حرام^(٢)، والقرآن ليس للاستكثار من الختمات بلا فهم، ولا للاستغفال بأوجه القراءات، والاقتصار على أحكام التجويد، ولا للتلحين به كتلحين الغناء، واتخاذة أداة للطرب، بل هو قانون فيه أمر ونهي، فيجب أن يفهم ويهتدى بهديه، ويتبع أمره وينتهى بنهيه، ويوقف عند حدوده.

وجعلت أقرأ وأحاول أن أفهم وأفسر لنفسي، وفهمت أحكاماً جديدة مما قرأت من آيات وأخذت أدونها، ثم نهني الله فعلمت أن الشيطان، لما رآني نجوت من أحابيله الأولى، عاد بأحبولة جديدة، يريد أن أفسر القرآن بعقلي، وأقول فيه برأيي فأضل.

وكذلك يصنع الخبيث، يصرف الناس أبدأً إلى الإفراط أو إلى التفريط ليجد بينهما دائماً باباً يدخل منه، ولذلك مدح الله الاعتدال والتوسط، وجعل أمة

(١) انظر الإحياء للغزالي وتلييس إبليس لابن الجوزي، وإغاثة اللهفان لابن القيم ج ١ ص ١٦٠.

(٢) والصحيح أنه لا يجوز (عند الحنفية) أخذ الأجرة على تلاوة القرآن، والفقهاء إنما جوزوا أخذ الأجرة على تعليمه، وأخطأ المتأخرون منهم في نقل الحكم فخلطوا بينها، وللعلامة ابن عابدين رسالة في هذا الموضوع انظرها في مجموعة رسائله المطبوعة.

محمد أمة وسطاً، وجعل كل فضيلة وسطاً بين رذيلتين، والمسلك الحق في التلاوة وسط بين القراءة البيغوية بلا فهم ولا تدبر ولو صححت المخارج، وضبطت الأحكام، وبين تفسير القرآن بالرأي من غير رجوع إلى كتب اللغة، وأسباب النزول، والمأثور من التفسير.

* * *

وجعلت أقرأ وأرجع إلى الزمخشري وابن كثير، وما عندي من كتب التفسير، فلما اشتغلت بالتلاوة والذكر، شعرت بلذة روحية، عرفت معها معنى قول الرجل الصالح (ونسيت من هو): نحن في لذة لوداقها الملوك، لقاتلونا عليها بالسيف! وعرفت أن هذه هي اللذة الباقية على حين تنقطع اللذائذ كلها. كل ما شئت من الطيبات فإذا شبت بك ساعة لا يبقى للطعام فيها لذة تتوهمها أو ترجوها، واثت من شئت من الجميلات فإذا انتهيت مرت بك ساعة لا تبقى للوصال فيها لذة تتصورها أو تتمناها، وكل لذة لها حد إن هي بلغت وقفت عنده، إلا لذة الروح. ولقد قرأت قصصاً كثيرة، تمثل الواقع وإن كانت من صنع الخيال، عن أناس نالوا من المال ما يعجزون عن إنفاقه، ووصلوا إلى كل ما يريدون من المتع، وكانوا مع ذلك يشكون الفراغ والملل، ويحسون أنهم قد فقدوا شيئاً، فهم أبداً يتطلعون إلى المستقبل، ينتظرون هذا (الشيء) الذي افتقدوه، وما فقدوا في الحقيقة إلا نفوسهم، (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)، وحرمتهم لذائذ الروح، وهي وحدها التي لا حد لها، ولا تزال كلما طلبتها تجد مزيداً منها.

فلما أصبح الصبح، قلت: لأجربن أن أكون مع الله يومي كله.

فعاد الشيطان، يقول: هذا الغرور، وهذا ما لا يكون، إنه أصعب الصعب بل هو المستحيل.

قلت: بل هو والله السهل القريب، وما هي إلا أن أتصور كأني أرى الله، فإن لم أكن أراه فإنه يراني، فإذا كان أبي أو أستاذي الذي أجله وأحبه قد أمرني بشيء ونهاني عن شيء، ثم قعد يطل عليّ ويبصر ما أصنع، أتراني أخالفه، فادع ما أمر به وآتي ما نهى عنه؟

إنه ما يعصي الله أحد وهو يتصور أنه يراه، ومن هنا جاء الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» أيزني على عين أبيه أو أستاذه؟ وما علي إلا أن أبقي يقظاً متنبهاً، فكلما عرض لي أمر، ذكرت حكم الله فيه، فإن كان محرماً تركته، وإن كان مباحاً حكمت فيه عقلي.

قال: وهل تمنع خواطر السوء أن تطوف برأسك؟ وهل تملك نفسك عند الشهوة أو الغضب؟

قلت: أما الخواطر، فإن الله بكرمه ومنه، يثيب على الخير منها ولو لم يحققه صاحبه بالفعل، ولا يؤاخذ على الشرير إلا إذا حققه، وأما الشهوة، والغضب، فعليّ أن أجتنب أسبابها وأن أبقيهما في عقالي لا أطلقهما حتى يجمحا عليّ فأعجز عن كبح هذا الجراح منها، والشهوة والغضب كالصخرة المستقرة على شفير الوادي، يصعب وقفها إذا هي انحدرت كالبلاء النازل، ولكن لا يصعب عليك أن تدعها مكانها ولا تحركها، ثم أني لا أدعي العصمة، وإذا غلبت على أمري فأتيت ذنباً، استغفرت وتبت، والتوبة الصادقة تمحو الحوبة، ولست أنوي من الآن أن آتي المعصية وأن أتوب بعدها، وما أكون بذلك تائباً، ومن يضمن لي (إن حييت) أن أقبل حينئذ على التوبة وألا أستمريء المعصية فأوغل فيها، وأتبعها بغيرها؟

* * *

وحاولت ما استطعت أن أكون على العهد، فتبدلت حالي ذلك اليوم حتى لقد عجب أهلي مني، كنت أغضب لأشياء يأتونها، وأعاتب عليها فسكت ذلك اليوم عنها، وأكلت ما قدّم إلي، لم أقل شيئاً جاء ادفعوه عني، ولا لشيء غاب هاتوه لي، ورضيت بما رأيت، إلا شيئاً محرماً فما كنت لأرضى به لورأيت، ولبثت على مراقبة الله، وحذر من الشيطان، وبقيت لي بقية من حلاوة الإيمان التي ذقت في السحر، فكشف لي ذلك طرفاً من الحقيقة التي كانت محجوبة بأغشية المادة عن نظري، فرأيت أن المعطي المانع، هو الله، وأنه هو النافع الضار، وأنه هو الذي يضحك ويبكي، وأن الناس ليسوا إلا قطعاً في هذه الآلة الضخمة، تتحرك ولا تحرك نفسها، وأن من أصابه خير من قطعة فيها فشكرها

واعتقد أن الخير من هذه القطعة أومسه منها ضرر فعاتبها أو سبها، يعتقد أن الضرر منها نفسها: من المسمار أو الدولاب، لم يكن إلا مجنوناً. ولست أزعج أن هذا الشعور قد لازمني حتى صار عادة لي، فإن ذلك من مراتب الصديقين، ولوزعته لكنت من أكذب الناس، ولكنه شعور خامري لحظات، وذقته أول مرة في حياتي.

وكنت كسائر الناس أفرع من الوحدة وأحس ثقلها عليّ، وأحاول أن أفر منها إلى رفيق أنافله لغو الحديث، أو كتاب أقرأ فيه فارغ الكلام، فصرت ذلك اليوم أحب الوحدة، وأطمئن إليها، وما يكون في وحدة من يراقب الله، ويحس بأنه معه يسمع ويرى، ويتوجه إليه بالدعاء بلسانه وبقلبه يسأله ما دق وما جلّ، معتقداً أن كل شيء بيده، وأنه إن لم يعطه ما طلب أعطاه خيراً منه، والدعاء^(١) بهذا المعنى عبادة، بل هو العبادة كما جاء في الحديث الصحيح، وغدوت منفرداً عن الناس، وأنا منغمس فيهم، داخل بينهم.

وجعلت أرصد الشيطان، فإذا هو مرابط لي عند كل طريق يؤدي إلى الجنة، يأتيني، كما أخبر الله عز وجل، عن يميني وعن شمالي، ومن أمامي ومن خلفي، ولكنه لا يستطيع أن يجيء من فوق، ولا يستطيع أن يسد عليّ طريق الاستنجاد بربي، ورأيت الإيمان كالحصن الذي يحصّني منه، ولكن له في جدار هذا الحصن مداخل وثغرات احتفرها ليدخل منها، منها المداخل الكبار الظاهرة، وسأعدد بعضها في هذا المقال، ومنها المداخل الدقيقة الخفية، وعلى المؤمن أن يبقى ساهراً أبداً، يحرس حصنه، أو أن يسد هذه المداخل سداً محكماً ليأمن دخوله منها، وربما اغتتم الخبيث انشغال الإنسان بمراقبة مدخل منها فدخل عليه من غيره، كما صنع بي لما رأى أنني لم أصدق به بأن صلاتي باطلة، فعاد يدخل عليّ من باب العجب فيريني أنها الصلاة المقبولة الكاملة. وعلى مقدار سهر العبد في سد مداخل الشيطان وحراسة ما لا يمكن سده منها. يكون خلاصه من وسواسه في الدنيا، ويناله نعيم الله في الآخرة.

(١) وسأفصل القول في كتابي (مباحث إسلامية) وهو معد للطبع.

والله لم يترك الإنسان في هذه الحراسة أعزل، بل وضع في يده سلاحاً ماضياً قاطعاً، (رشاشاً) يستطيع أن يردّ به أغتّى الشياطين، هو ذكر الله حتى يخنس الشيطان ويبلس وينكمش وينقطع وسواسه، وليس المراد الذكر باللسان فقط، بل الذكر بالقلب، وهو الأصل فيه، والمسافر الذي يذكر وطنه وأهله، لا يقول بلسانه، ولكنه يستحضر الوطن والأهل بقلبه. وذكرك الله هو ألا تنساه، وأن يكون دائماً في قلبك، وأن تتصور أنه مطلع عليك، وأنه معك، فإن صحب ذلك الذكر الماثور باللسان فهو أحسن وأكمل.

* * *

وكان لي مع الشيطان ذلك اليوم مواقف، تستعصي على العد، أذكر منها هذا على سبيل المثال على وسواسه...

حاول أن يسخطني على الله، ويكفرني بنعمه علي، حينما مرّ بي في الطريق رجل كان معنا في المدرسة، فخاب وقصّر، وكان مضرب المثل في السوء، فطرد من المدرسة، فما هي إلا أن جال ههنا وههنا، حتى صار له الجاه العريض، والمال الكثير، فجاء الشيطان يقول لي: أما ترى هذا؟ أأتكون أنت في علمك وفضلك دونه مالاً وجاهاً، ما هو ذنبك حتى تقصر بك الأقدار عنه؟

فقلت: اخرس يا عدوّ الله، تريد أن أكفر بنعم الله عليّ، وهل في الدنيا أحد نال الخير كله حتى ما يزيد عليه فيه أحد؟ فلماذا أنظر إلى هذا ولا أنظر لأناس هم مثلي (إن لم يفضلوني) علماً وخلقاً، وهم دوني في الجاه والمال؟ ولماذا تريدني أن أنظر لمن هم فوقني في الدنيا لأحسدّهم، ولا أنظر لمن هم فوقني في الدين؟ لماذا أراحم على زيادة درجة في دار الزوال، ولا أراحم على زيادة درجات في دار البقاء؟

لماذا أحسدّ هذا إن صار ماله أكثر من مالي، ولا أحسدّ ذاك على أنه صلّى أكثر من صلاتي، ونال أكثر من ثوابي، وكان له في (بنك) الحسنات (رصيد) أكبر من (رصيدي)؟

ولم أحسدّه على ماله ولا يحسدني هو على علمي؟ أليس العلم والخلق

والذكاء نعماً كنعمة المال والجاه؟ وبعد فماذا ينقصني؟ إنه لا ينقصني، والحمد لله، شيء أحتاج إليه: صحي جيدة، وموردي يقوم بحاجاتي ويفضل منه عنها، وأنا في سلام في بيتي، وفي راحة في عملي، وفي أمان في سربي، وفي منزلة في بلدي، وأنا راضٍ عن ربي، وليس لي مطلب إلا أن يبعدك الله عني!

* * *

وحاول أن يثير ما أخذته السنون من شهوتي، حين واجهت في الترام فتاة إفرنجية كأنها فلقة بدر، وقد كشفت عن النحر والصدر، والقدم والساق، ولقد ألمت بهذا كله منها بالنظرة الخاطفة، وذكرت حديث النظرتين وأن (لك الأولى وعليك الثانية)، فغضضت عنها وملت ببصري إلى الطريق، وبفكري إلى مسائل آخر، فرجع الشيطان بفكري إليها، وجعل يعيد عليّ تصور مفاتها، ويمثلها لي على صور لا أستطيع أن أعرض لها بالوصف، وإن كان كل قارئ يدرك مثلها بالتصور، فسرت عيني نظرة أخرى إليها، من غير عزم مني عليها، فاستعذت بالله، وقرأت الآية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، متعجباً من دلائل الإعجاز فيها، وأنها أَلَمْتُ بأربع كلمات فقط، بحالات النفوس البشرية ودخائلها، (خائنة الأعين)؟! لقد خانتني عيني حقيقة، فما أعظم أسلوب القرآن!

ولما رأيت أن المعركة مع الشيطان قد طالت وخفت ألا أثبت في الميدان فررت بديني، ونزلت فوقفت أنتظر (تراماً) آخر، هذا وأنا في سن الخمسين فكيف بابن العشرين أو الثلاثين؟!

وجاء الترام الآخر فركبته، وأحسست أن الملعون قد ركبته معي، فما أن أخذت مكاني في غرفة الدرجة الأولى، وسلّم عليّ الجابي وسلّم عليّ بعض الركاب، وأثنوا على أحاديثي ومواعظي... حتى وسوس لي الشيطان يقول: رأيت أن ألسنة الخلق أقلام الحق، وأن ثناءهم عليك يكتب لك ويشهد لك بالصلاح.

فقلت: أعوذ بالله منك أن تخدعني عن نفسي، وأن تجعلني أصدق كلامهم فيّ.

وصعد رجل ما عليه إلا أسمال ممزقة وسخة، لها رائحة تزكم الأناف فضممت عنه ثيابي ليمرّ، فلم يسعه إلا أن جاء فقعد إلى جنبي، وأحسست بنار الغضب تشتعل في أعصابي، ووثق الشيطان من انتصاره هذه المرة عليّ فرجعت وقلت: لا والله، لا أشمّت الشيطان بي، وذكرت عهديّ الله، وتوجهت إليه مستعيناً به، فأنزل سكنته عليّ، وبدّل مقاييس الرجال في عيني، وما أكثر ما تبدل هذه المقاييس. ففي التدريب العسكري يصنف الناس على طول الأجسام فإذا رجعوا إلى وظائفهم صنفوا على المراتب والدرجات، فإن جاءت المعركة صنفوا على الشجاعة والإقدام، فإن كان دفع الضرائب صنفوا على المال والأموال. ورأيت كآني في يوم العرض. يوم الامتحان الأكبر، يوم يكون الناس قسمين لا ثالث لهما: ناجحين في الامتحان، يمشون فرحين مستبشرين إلى الجنة، وساقطين في جهنم يشيعهم الخزي والعار، وقلت لعل هذا بشيابه القدرة ورائحته المنتنة يكون مع الناجحين، وأكون أنا، لا قدر الله، مع الهالكين، ولعل من حقه هو أن ينفر مني، ويضم ثيابه عني، واستغرقت في هذه الخواطر، حتى بلغ (الترام) الغاية.

ووجدت أن من أوسع مداخل الشيطان إلى قلوب الناس، المال:

ولقد خلق الله الخلق لعبادته، وأمرهم بأوامر يأتونها، وحدد لهم أرزاقهم، وكفلها لهم، وأقسم لهم على أن ذلك حق مثلما ينطقون، (هل يشك ناطق في أنه ينطق؟)، فتركوا ما أمرهم به، واشتغلوا بما كفله لهم، كالتلميذ في المدرسة الداخلية يكلف بعلوم يتعلمها، ويُعدُّ له طعام يأكله فيترك الدرس الذي كلف به، ويذهب إلى المطبخ يبحث عن طعامه، فيعرض نفسه للعقوبة، وقد يحرم جزاء إهماله من الطعام، وربما بلغ به الجهل أن يسأل الطباخ أن يزيد له في حصته، والطباخ لا يستطيع أن يزيد فيه أو أن ينقص منه وليس هو الذي قدره وقسمه، أو كالموظف الذي يبتغي الوسيلة إلى المحاسب الذي يوزع الرواتب^(١) ليعطيه راتب الرئيس أو المعاون، يحسب أنه هو الذي يملك قسمتها

(١) وهي في اللغة الوظائف جمع وظيفة ولكننا آثرنا اللفظ الشائع.

وتوزيعها، وينسى أن الملاك^(١) قد حدد لكل موظف درجته براتبه، فلا يملك واحد منهم مهماً كان قوياً ومهما زاحم واحتال أن يأخذ راتب غيره، ولا يفوت أحداً راتبه ولو كان ضعيفاً ولو كان مريضاً في بيته، وكذلك الأرزاق، قسم الله لكل امرئ رزقه، وحدد له في الحياة عمله، ووكل من يوصل إليه هذا الرزق، فما كان له أتاؤه على ضعفه، وما كان لغيره لم ينله بقوته. وربما حسب الرجل أن كل ما يدخل يده فهو رزقه، فيمن على من أعطاه أو يضمن على من سأل، مع أن فيه ما هو رزق غيره، رزق ولده وأهله وخادمه وتابعه، وما هو (في الحقيقة) إلا موزع، كمحاسب المصرف تحت يده آلاف الآلاف، ولكنها ليست له، ما له منها إلا راتبه، وليس له أن يمن ولا أن يضمن. وكمعتمد الدائرة يقبض رواتب موظفيها من الصندوق ليوصلها إليهم.

وليس معنى ذلك أنك تقعد لا تصنع شيئاً، وتنتظر أن ينزل عليك رزقك من السماء، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة (كما يقول عمر) ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وعليك بذل الجهد، واستنفاد الطاقة، وابتغاء الأسباب المشروعة، على أن تؤمن بأن النجاح والتوفيق بيد الله وحده فلا تفرح بما أوتيت من الخير فرحاً يؤدي بك إلى البطر، ولا تأسى على ما فاتك منه أسى يسلمك إلى اليأس.

والمال وسيلة إلى العيش، لا يقصد لذاته، ولكن الشيطان يدخل على الناس من باب الشح، فيطلبونه لذاته، ويجمعونه، ويحبسونه، في صناديقهم ويمنعونه من التداول، وكلما زاد ما في أيديهم منه، زاد ما في نفوسهم من الطلب له، والحرص عليه، حتى ليضمن أحدهم بالقرش على الولد الجائع الفقير، وهو يملك ألف ألف، فإذا بلغ المرء هذا المبلغ في طاعة الشيطان، تمكن منه فجرعه غصص الفقر وهو ينال على أكياس الذهب، وجعله يخل على نفسه بالأكلة الطيبة، والضجعة المريحة، والمتع المباحة، ويعيش حياة المحرومين، ليموت من

(١) الملاك في الشام ما يسمى في مصر (الكادر) باللفظ الأعجمي.

بعد موت الموسرين، فلا يزيد على أن جمع هذا المال لوارثه، يستمتع به من بعده، ولا يحمده عليه ولا يدعو له دعوة صالحة، وهذا هو الغاية في الخذلان، والعياذ بالله.

ومنها النساء:

والله ما حرم شيئاً إلا أحلّ مكانه شيئاً، حرم الربا وأحلّ البيع، وحرم السرقة وأحلّ الشراء والاستيهاب، وحرم لحم الخنزير وأحلّ اللحوم كلها، وحرم المسكر وأحلّ الأشربة جميعاً، وحرم الزنا وأحلّ الزواج، وجعل مذاق الناس كلهم واحداً وإن اختلفت الصور، فجاء الشيطان فمتانا في كل جديد لذة، فجعلنا نسعى أبداً وراء هذا الجديد، حتى يستنفد السعي طاقة أجسادنا، فتركبنا العلل والرغبة كما هي، ما نقصت ولا زالت، كالعطشان يشرب من ماء البحر فلا يزداد إلا عطشاً، وحُبّ إلينا الحرام وزينّه في عيوننا، وكره إلينا الحلال ولو كان أحلى منه وسوّده في أبصارنا، حتى ليطلب الرجل واحدة يسهر ليله، ويفني جسمه، ويذرف دمه شوقاً إليها، وعنده من حلاله من لا تنفاس هذه بشسع نعلها. وكلما خمدت هذه النار في أعصابنا أوقدتها نظرة إلى عورة بادية، أو إصغاء إلى كلمة نابية، أو صحبة شرير يدل على طريق الفساد.

ولو أنا سلكنا طريق الشرع، فتحصّنا بحصن الزواج، وتسليحنا بغض النظر عن الحرام، وسدّ الأذن عن الفحش، وتخيّر الصالحين من الأقران لجمعنا بين صحة الجسد، وراحة القلب، والنجاة في الآخرة.

ومنها: التمسك بالحاضر الموجود، والزهد بالغايب الموعود، يقول لك الشيطان، هذا يومك بين يديك، فما لك ولغد لا تدري ماذا يكون فيه وهل يبيع العاقل موجوداً بمعدوم، ومحققاً بمتوهم؟ وهل رجع من ذهب فخبّر بما رأى؟

إنما هي هذه الحياة، فاحي فيها، واستمتع بها، وخذ من لذائذها، فإن أنت استمعت إليه، جرّك من هذه المقدمة إلى النتيجة الملائمة لها، المقرونة بها وهي الكفر بالآخرة، وإنكار المعاد، والخروج من الدين.

وإن أنت استعصيت عليه، داورك وراوغك، ودخل عليك من المدخل الآخر، وهو طول الأمل، وطالما دخل منه على القلوب، وطالما أفسد به الناس وقال لك: إن العمر أمامك، فاستمتع بيومك واعزم على أن تتوب في غدك، فإن جاء الغد قال، أجّلها إلى غد، ثم لا يأتي هذا الغد أبداً، لأنه كلما جاء صار حاضراً وجداً من بعده (غدٌ) جديد.

فإن كنت شاباً، قال: وما عليك؟ إنك ستتوب إذا صرت كهلاً! فإن صرت كهلاً، قال: ستتوب متى شئت. وإن كنت عزباً قال: تتوب متى تزوجت، وإن كنت متزوجاً قال: تتوب متى حججت، ولا زال بك يؤخر عليك التوبة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى يفاجئك عزرائيل فيمضي بك، عاصياً أو فاسقاً، والعياذ بالله.

ومنها: الإقامة على المألوف، واتباع ما وجدنا عليه الآباء والأجداد، وإن دعانا داع إلى ما هو خير منه، وأهدى سبيلاً، وأرضى لله، ومن هنا جاء الشرك أولاً، والتمسك بالبدع والمحدثات آخرأً، وكلما قام مصلح بإمارة بدعة ثار عليه ادعاء العلم، وقالوا له: أنت خير من العلماء الذين رأوها من كذا وكذا، وسكتوا عنها وأقروها؟ هل كانوا جميعاً جاهلين وأنت وحدك العالم؟ أم كانوا ضالين وأنت وحدك المهتدي؟

وأيدتهم العامة التي تأنس بكل ما هو مألوف ولو كان مخالفاً للسنة، وتنفر من كل جديد ولو كان فيه الرجوع إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه.

ومنها: ابتغاء الراحة والهروب من كل ما فيه مشقة أو تعب، وفقد الصبر بمعانيه الثلاثة: الصبر على المصيبة، والصبر على أداء الطاعة، والصبر على مفارقة المعصية.

ومنها: الابتعاد عن قصد السبيل، وترك أوساط الأمور، والميل إلى جانبيها، والغلو في كل شيء، وفي الغلو الهلاك، كالماشي على القنطرة الضيقة، إن سار في وسطها سلم، وإن غلا في التيامن أو التياسر، بلغ حافتها فزلت به قدمه فسقط، وقد عقد ابن القيم فصلاً في هذا المدخل من مداخل الشيطان

وضرب عليه أمثالاً، بين فيها كيف يغلو قوم في التساهل في الطهارة حتى يحملوا الأنجاس. ويغلو آخرون في التطهير حتى يوسوسوا، وكيف يدخل رجل بالزكاة المفروضة، ويبدل آخر ماله كله حتى يكون كلاً على الناس، ويترك امرؤ سنة النكاح، ويقارب آخر النساء من حل ومن حرمة، ومن يزري على العلماء وأهل الدين، ومن يعظمهم تعظيم العبادة المختصة بالله عز وجل^(١).

وزهد قوم بعلم الكتاب والسنة، وزعموا بأن ذلك علم العامة، وإن الخاصة ينقون قلوبهم، ويشغلون برياضتها، فتطبع فيها العلوم بلا تعلم، واستدلوا (جهلاً) بآية: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾. ومنهم من زاد في هذا الغلو حتى صار يصحح الأحاديث أو يضعفها عن طريق الكشف، أو يأخذ الأحكام من الرؤى والأوهام، أو يكذب على الله، ويبلغ عنه ما لم ينزل به سلطاناً.

وجاء قوم بضدّ هذا، حين وقفوا على ما جاء في فضل العلم وأهله، فطلبوه وتعمقوا فيه، وصاروا المرجع في أمور الدين والمقصد في الفتوى والمسائل، فأوهمهم الشيطان أنهم بلغوا بذلك الغاية، وصرفهم عن تفقد القلوب ورياضتها وتنقيتها من الأوضار، وإنقاذها من الأمراض، مع أن من الأمراض القلبية ما يفتك بها أشد من فتك السرطان والجذام بالأجسام، وهي العجب والحسد والرياء وأمثالها. وتهذيب القلوب واستشعار الإخلاص هو لب الدين فالصلاة بلا إخلاص قيام وقعود، والصيام بلا إخلاص جوع وعطش، والحج بلا إخلاص تعب ونصب، والعالم بلا إخلاص إبليس آخر، وإبليس ما أتى من جهة الجهل، بل أتى من جهة المرض القلبي الفتاك الذي هو الكبر.

ولست أخقر العلم، أو أزيّن الجهل، فالجهل هو المفتاح الذي يفتح به الشيطان كل باب إلى الفساد، والصالحون الذين ضلوا بجهلهم بأحكام الدين كثيرون، ولعالم (عامل) أشد على الشيطان من سبعين عبداً (جاهلاً)،

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية ص ١٦.

ولولا الجهل ما استطاع الشيطان أن يدفع أناساً (من كان قبل هذه الأيام) إلى الغلو في التوحيد بزعمهم، حتى قوَّلم بمثل مقالة (وحدة الوجود)، ودفع آخرين إلى الأخذ بظواهر النصوص حتى شهوا، أو إلى صرفها إلى المجاز حتى غلطوا، ولولا الجهل ما هدم قوم القرآن وخالفوا نصوصه بحجة أن له ظاهراً وباطناً، ولولا الجهل ما تمسك قوم بالبدع وتركوا لها السنة الثابتة.

وهذه المقالة في القرآن من أكبر مداخل الشيطان، ذلك أنه رأى القرآن محفوظاً بحفظ الله، لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من ورائه، ولا يبدل حرف واحد منه، وعلم أنه لا يستطيع أن يبيته من جهة تنزيله فجاءه من جهة تأويله، فألقى إلى نفر من الناس أن للقرآن ظاهراً وباطناً، فظاهره هذه الألفاظ وما تدل عليه من المعاني في لسان العرب، وما تنصرف إليه من المجازات بعرف أهله، وباطنه ما يتوهم هؤلاء أنه هو المقصود ولو لم تدل عليه لغة. ولم يقره عرف، واحتجوا لذلك بأثر حوِّلوه عن المراد منه، فصار الدين الواحد دينين: شريعة وحقيقة، وليت شعري ما الشريعة إن لم تكن هي الحقيقة، وما الحقيقة في الدين إن لم تأت بها الشريعة؟

ومن أوسع مداخله، على الشباب خاصة، الحرية والانطلاق، وحل كل قيد، مع أن الدين والفضيلة والعقل، كلها قيود^(١)، ولا تكون الحرية الكاملة إلا للمجانين والدواب، فالدابة تمشي عارية الجسم بادية السوءة، تفعل ما تريد وتأتي ما تشتهي، ولكن لها وقتاً للشهوة، شهراً في السنة، والإنسان لو انطلق مع هواه وغريزته، وهتكت الأستار، دون شهوته، ونضيت الثياب، لكان عمره كله كذلك الشهر، ولما بقي عرض مصون، ولا مال مضمون، ولا حياة اجتماعية، ولأكل القوي مال الضعيف، وعدا على عرضه وماله وأهله، ثم يجيء من هو أقوى منه فيعتدي هو أيضاً عليه، كما اعتدى هو على غيره.

ومن هنا تبدو صعوبة عمل الداعي إلى الله، في جماعات الشباب، إن

(١) العقل والحكمة مشتقان من العقل والحكمة وهما القيد.

المعلم الفاسق يدعو طلابه إلى كل ما فيه لذة النظر، أو لذة التطلع، أو اللذة الأخرى، فيغريهم بذلك، فبم يغريهم المعلم الدّين وهو يدعوهم إلى تركها كلها؟ لا تنظر إلى المرأة الجميلة لأن ذلك حرام، ولا تدخل أماكن الرقص لأن ذلك حرام، ولا تشاهد الفلم العاري، ولا تقرأ القصة الداعرة لأن ذلك حرام، يدعوهم إلى حرمان أنفسهم من لذة حاضرة ابتغاء لذة مغيبّة، وفي ذلك أكبر المشقة وأشدّ الجهد، ولذلك أعظم الله ثواب الشاب الناشئ في طاعة الله الذي يرى طريق اللذة المحرمة مفتوحاً أمامه، ويمنع نفسه منه ابتغاء مرضاة الله، وجعله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، ليستريح ويتلذذ حين يتألم الناس، كما تألم في الدنيا وهم مستريحون متلذذون.

ومنها أنه يكبر أوليائه في عيون الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ﴾^(١) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿ ومن هنا وقر في صدورنا، لما ضعف إيماننا، تعظيم الغربيين، وصرنا نرى الحسن إن جاء من عندهم ازداد حسناً، والقيح إن كان من عندنا ازداد قبحاً، وكل ما يرونه خيراً فهو الخير، حتى الموسيقى التي هي لسان الطبع، وحديث القلب، إن كانت من هناك فهي الموسيقى (العالية) الخالدة، ولو كان الذي نسمعه منها هو (على الحقيقة) أصوات متنافرة، ورقاعة بادية، حتى الفن الذي هو مظهر الجمال، وتعبير الشعور إن كان من هناك فهو الفن العالمي الخالد، ولو كان خربشات وتخليطات، ولو كان فيه لوحات من هذا الفن الجديد... إذا أنت لم تقرأ تحت اللوحة إنها صورة فتاة حسبته كومة من علب الكبريت، حتى الفجور الذي يأباه كل عقل، وينفر منه كل طبع، إن كان من هناك فهو التطبيق العملي للفلسفة الوجودية، حتى السم الناقع الذي اسمه الخمر، إن كان من هناك، فهو ماء الحياة!

ومنها أنه عطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين قال للعلماء إن في عزكم عز الدين، وفي هوانكم هوان الإسلام وشماتة المخالفين، فهل يليق بكم أن ينكر أحدكم منكراً، أو يصدع بحق عند أمير ظالم، فيسجبه الشرط على

(١) معناها: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم.

رؤوس الشهداء، فتدحرج عمامته، وتنخرق جبته، ويتعرض للمكروه؟ وصدقه قوم من العلماء، ونسوا أن الرسول صلوات الله عليه ضرب وأوذى وكسرت أسنانه ورمي بالحجارة وألقي عليه كرش البعير، وإن الصحابة حملوا من الأذى ما لا تحمله الجبال، فما كانت هذه المهانة إلا عزاً لهم ومجداً، ورفعة منزلة عند الله وعند الناس، وإن رسول الله هو قدوتنا وإمامنا، وإنه لما قعد علماؤنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاملوا الملوك، وسعوا إلى أبواب الأمراء، وبشوا في وجوه الفساق، ولاینوا المجاهرین بالمعاصي، سلبهم الله الهيبة التي كانت لهم في صدور الحكام، وفي قلوب الرعية، وأحوجهم إلى السلاطين، وسلطهم عليهم.

ومنها: إنه حوّل الدين من جواهر إلى مظاهر، ومن حقائق إلى أشكال، فصار القرآن كلاماً يتغنى به، ولا يعنى إلا بمخارج ألفاظه وطول مدوده^(١)، وصار الدعاء كلاماً فصيحاً مسجعاً محفوظاً معاداً، وصارت الصلاة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وصار الحج سفرأ وعودة، أعمال جوارح والقلب غائب، وألفاظ لسان والفكر ساهٍ لاهٍ، وعبادات غدت كالأجساد بلا أرواح، ودين اقتصر على المساجد دون البيوت والأسواق^(٢)، فلتنبّه يا أيها الناس إلى وساوس الشيطان، ولتستعذ بالله منه، ولتذكر دائماً أن الله معنا يسمعنا ويرانا، ولنعرف حكم الشرع في كل ما نأتي وما نندع، ولنعلم جميعاً أن العمر ماضٍ، والدنيا إلى الفناء، وأنه ما خلد في الدنيا أحد حتى نخلد فيها، ولا فر من ملك الله أحد حتى نفر من ملك الله، وإن في الوجود ربأ، وأن بعد الحياة موتاً، وأن بعد الموت نشوراً وحساباً عسيرأ، ثم تكون العاقبة جنة أو نارأ، فما أهون الألم في الدنيا يُعقب لذّة باقية، وما أمرٌ اللذة العارضة يكون من ورائها الألم الدائم. نسأل الله السلامة، وألاً يجعلنا من الذين يأمرن الناس بالبر وينسون أنفسهم، وأن يهدينا ويهدي بنا، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(١) انظر آخر الجزء الثالث من الإحياء للغزالي.

(٢) راجع آخر الجزء الثالث من إحياء علوم الدين للغزالي، وتلبس إبليس لابن الجوزي، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم.

نشرت سنة ١٩٤٣

أتممت البارحة قراءة كتاب (جبران) لمؤلفه (نعيمه) فأعجبني أسلوبه على ما فيه من مخالفة لقانون اللغة وقواعد العربية، لما حمل من الصور البيانية، والمجازات المستحدثة، والتشابه التي لا نظير لها، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة، لأن علماءها لم يقرأوا مثلها، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حيّ وخيال قويّ، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة؛ وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي، فيكون نادرة الأساليب، ومفخرة الأدب. وهيهات!...

أما موضوع الكتاب فلم يعجبني، لأنني وجدت حياة هذا الرجل كما يصفها صديقه المؤلف، سلسلة آثام: من كفر إلى فسوق، ومن اعتماد على امرأة تشتغل وتغذوه وهو كسلان يتمدد على فراشه، إلى خيانة لهذه المرأة ونقض لعهداها، ومن إكبار لنيثشه المجنون، إلى الجنون به، إلى سرقة آثاره وانتحالها ووجدته في حياته كلها أشبه بالمرأة المدللة الكسول، همّه شهوته، إن بالحقيقة وإن بالمجاز، يعبر عنها بهذه الصور العارية، وهذه القصص الفاسقة التي ردّ على واحدة منها إمام الكتاب المنفلوطي رحمه الله، في نظراته، وهي القصة التي يدعو فيها النساء إلى ترك أزواجهن، وللحقوق بعشاقهن، لأن رباط الحب الشهواني أقوى عنده من رباط الزواج الشرعي.. ووجدته تتوالى عليه المواعظ فلا يتعظ، وتتعاقب النذر فلا يثوب، يموت أبوه وأخته وأمه، ويصاب بالمرض العضال ينخر جسمه الذي رُبي بالحرام نخر السوس، وتأتيه في ذلك فتاة لم تعرف غير

الطهر، ولم تصحب إلا العفاف، تريد أن تحيي فيه الكاتب الفيلسوف الذي تكبره وتجله، قد حملت معها عفافها وطهرها وطيب سريرتها، فكان ردّه على تحيتها وترحيبه بها، أن أخرجها من عنده بلا عفاف ولا طهر، وسلبها أعزّ شيء عليها: عرضها.

ووجدت كتاب حياته يختصر في كلمة واحدة، هي أنه خسر الإيمان والرجولة والفضائل كلها، وربح شهرة عريضة، وترك صفحات فيها كلام جميل، يلذ قارئه ولكنه يسلبه إيمانه من قلبه، ويقوّض بيته على رأسه، ولوحات فيها خطوط وألوان لا يرى فيها من كان مثلي من الناس وهم مليون إلا واحداً من كل مليون، إلا أجساماً عارية لا معنى لها ولا دلالة، ولا يعرف لها رأس من ذنب، والباقون من الناس يقولون إنها تدل على معان كبيرة، وهي رموز لحقائق الحياة، ويوضحون لك غامضها، ويفتحون المغلق من معانيها بمحاضرة طويلة لا تفهم منها شيئاً، لأنهم هم لم يفهموا شيئاً منها !

هذا هو الرجل الذي اتخذ قومه (نبياً)!!

* * *

فخبروني ماذا يصنع هذا الكتاب بنفوس الناشئة إن هم قرأوه؟ أي قدوة في الحياة يكون لهم فيه؟ أي غلط من العيش يحب إليهم؟ أما والله إنه لخطب داهم، ليس خطب هذا الكتاب وحده، فإن له لأمثالاً، وإن أمثاله لكثير كثير.

وسيقول قوم أنت رجل رجعي جامد، هذا هو الفن، يغتفر لصاحبه ما لا يغتفر لغيره. ولئن كنت جامداً فهم والله مائعون، والجامد يستقر ويتماسك، أما المائع فيسيل ويضيع؛ ولئن كنت رجعيّاً فالرجعية مشتقة من الرجوع، وهي في الغرب سبب لأنها عودة إلى ظلام القرون الوسطى وجهالة الماضي الذميم، وهي عندنا مدح لأنها رجوع إلى مثل ما كان عليه أجدادنا في عصور العلم والنور. أما قولهم هذا هو الفن، فإني أنكره أشد الإنكار.

إن الذي أعرفه أن الفن هو الذي يبحث عن (الجمال) بحث العلم عن (الحقيقة)، وأنه يُدرّك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل، فمن قال أن الجمال

لا يكون إلا في الفحشاء والمنكر؟ أليس في تصوير الفضيلة جمال؟ والسوء والوطنية والإخلاص والنبيل أخلت كلها من الجمال، واقتصر الجمال على ما يثير الشهوة ويحركها؟ أو من أجل حماقة نزلت برأس (فرويد) فرفع من شأن الشهوة ونوة بها، ننسى فضائلنا وسجاينا؟

إن من كانت هذه مقالاتهم لم يأتوا بجديد إلا أنهم لم يسموا الرذيلة رذيلة ولا الفحش فحشاً، وإنما سموه (فنًا)؛ والجنون (فنون). والذي أعرفه أنا أن الفن إن كانت عاقبته فساد الأخلاق وانهيار بناء الأمة لم يكن له وزن، وأن للأدب غاية هي تهذيب الطباع وصرف العواطف إلى الخير، وتنبية الضمائر الغافلة، وإيقاظ الهمم والمروءات، وما إلى ذلك مما يكون منه نفع للناس، وأن في الحياة ما هو أثمن من الجمال والفن، فيها الخلق والعرض، والفضيلة والدين، وأن من يبيع ذلك كله بلوحة مزخرفة بالخطوط والألوان، أو قصيدة قد أودعت سحر البيان، كان أخسر الناس قاطبة.

وليست مقالاتهم في الفن إلا إعادة لما يقوله غيرهم، فهي عن تقليد لا عن اجتهاد، وهي محصول ذاكرة تحفظ وتردد، لا ثمرة عقل يبحث وقيس، ثم يصدق أو يكذب، لذلك تجد لهم الرأي وضده، وما الأول رأوا، ولا بدا لهم فعدلوا، وإنما قال لهم معلمهم فقالوا، ثم مالوا فمالوا، فلا سبيل إلى مناقشتهم فيما يقولون، ولا تجوز مناظرة المقلد الذي يروي قول إمامه دون دليله. هذا الذي أعرفه، ولكن من حولي من الأدباء لا يعرفون إلا العبث يشتغلون به والنار تشتعل من حولهم، والسيل طامياً يندفع إليهم، والبلاء نازلاً يحيط بهم، وإلا فآين الأدباء عن هذا الذي في سواحل الإسكندرية وبيروت، وعما في دور الملاهي وحانات الخمر؟ آين هم عن العرض المثلوم (في رأس البر وستانلي باي)، والشرف المهان، والفجور المعلن؟ آين هم عن المدارس التي تعلم التلاميذ الجهل مركباً تركيباً مزجياً كيميائياً، حين تعلمهم كل شيء إلا حقائق دينهم، وحين تقرهم على كشف العورات وإضاعة الصلوات واختلاط البنين بالبنات، أو هي تدفعهم إلى ذلك دفعاً. آين أدباؤنا عن الرجولة التي يعصف بها داء التآث في الشباب؟ يا ويح من يظن أن الأدب إنما هو حديث الشهوة ملفوفاً

برداء الفن، والمواخير موضوعة بين دفتي كتاب أوفي غلاف مجلة، ويستهن
بالعرض والأخلاق، والعرب أغير الأمم على الأعراض يفخرون بالبخل بها
وصيانتها، فخرهم بالجود بالمال وبذله، ويحافظون عليها في صحوهم وسكرهم:

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يكلم
لأن المال يعوض إن فقد، والعرض إن ثلم لا يلتئم.

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض بالمال
احتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال

وكانوا يكونون عن المرأة بالنخلة وبالبيضة والسرحة، حياء أن يمر على لسانهم
ذكر المرأة:

ألا يانخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
وفخرون بغض الطرف عن الجارات:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

هذا وهم في جاهلية؛ فلما جاء الإسلام وبعث الله محمداً ﷺ لیتتم مكارم
الأخلاق، أقر العرب على ما كانوا عليه من فضيلة، ومن فضائلهم الغيرة على
الأعراض، وأدبهم أحسن التأديب حين أنزل على نبيهم: ﴿قل للمؤمنين يغضوا
من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾، وحرم عليهم كشف العورات. ثم استدار
الزمان، وكان ناس يدعون أنهم عرب مسلمون ولا يتخلقون بأخلاق الجاهلية،
ولا يتأدبون بأدب الإسلام، غاض ماء الحياء من وجوههم، فلم يستحيوا أن
يسايروا زوجاتهم في الطرقات سافرات، باديات الشعور والنحور، واستلّت
الشهامة من قلوبهم، وأعجت الغيرة فلم يردعهم دين ولم يزعهم خلق عن أن
يعرضوا بناتهم ونساءهم وأخواتهم، عاريات الأجسام كلها إلا ما يستر العورة
الكبرى، في مكان اختلط فيه الرجال بالنساء؛ أمر (والله) لو سمعه مسلم من
المسلمين الأولين لصعق له، ولو سمعه جاهلي لأغمي عليه من غرابته وفضاعته،

و (مصر) ذات الأزهر، لا تمنع ذلك ولا تحرمه، ودينها الرسمي الإسلام!

اللهم إليك المشتكى...

وهذه مجلات مصر، تنشر كل أسبوع صور العاريات، فتزيد نار الشهوة في أعصاب الشبان والشابات ضراماً ولا منكر، حتى جرأها هذا السكوت على الإقدام على عدوان يمنعه القانون والذوق والنبل والدين، وهو تصوير الشيخ الجليل أبي العيون تصويراً هزلياً بعمامته وجبته، ومعه امرأة عارية، وتكرار ذلك مرتين، وتهكمها عليه لأنه انفرد بإنكار هذا المنكر الفظيع، وأعلن الغيرة على الأعراض - فألى متى تمتد هذه الجاهلية العمياء؟

فيا أدباء مصر انتبهوا، فوالله إنها لتوشك أن تنهار الأخلاق فلا تقوم لها قائمة، وتذهب هذه البقية من الدين فلا يبقى دين، وتغوت هذه الفئة من أهل المروءة فلا يبقى من مروءة. يا أدباء مصر، إن العالم العربي ليسمع منكم ويقتدي بكم، فإن أنتم لم تسلكوا به سبيل الإصلاح، وتدلوه على طريق الخير، كان عليكم أكبر الوزر. ورحم الله ذا قلم جرّده لنصرة هذه الدعوة، والدفاع عن الشرف، وذا صحيفة فتحها لتلك الأقلام، وأعانها على دعوتها، وكل قارئ أقبل عليها ونشرها.

نشرت سنة ١٩٥٥

كنت أمس عند قريب لي شاب، لا يدع شيئاً من هذه الكتب التافهة التي يحملها بائعو الجرائد إلا اشتراه، حتى اجتمع له منها ما لو أنفق ثمنه في كتب العلم النافع، والأدب القيم، وقراه، لصار به من علماء الأدباء أو من أدباء العلماء، وجعلت أنظر فيها، فسألني:

— ألا تقرأ هذه الكتب؟

— قلت: أقرأها إن وقعت لي بالمجان، لأستمع بها على النوم، أما شراؤها فلست أستحلها، لأن أكثر مؤلفيها مفسدون، وحرام أن أعينهم على إفسادهم ولو بشمن نسخة واحدة...

— فقال: خذ ما تشاء منها لتقرأه.

فأخذت طائفة من كتب التراجم، ومنها كتاب في ترجمة (اللورد بيرون) للمصاوي، وقرأته في الفراش أجتلب به النوم، فإذا أنا أجد فيه من البلايا والطامات ما أطار النوم من عيني غضباً لله، وللفضيلة، ولأخلاق الشباب الذين يقرأونه...

كتاب مطبوع أجمل طبع، على أجود ورق، محلى بالصور، وفيه الديناميت الذي ينسف أسس الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من دين وخلق وفضائل.

وأنا لم أعرف من بيرون هذا، إلا أنه شاعر غزل إنكليزي، قرأت من

شعره مترجماً إلى الفرنسية والعربية ما يطرب ويعجب، ولم أكن أدري قبل أن أقرأ هذا الكتاب أن هذا البيرون قد جاء من جدّ معتوه فاجر، وأب مجرم ساقط، وأم مجنونة حمقاء، وأن حياته... لا لن أصف لكم ما في هذا الكتاب النجس فأكون راوية للشر، وحاملاً للرجس، ولكن ألخص ما فيه بكلمة واحدة، هي أن هذه (الحياة) كانت سلسلة من الجرائم، بدأت بعشقه وهو في سن السابعة، ومحبتة الصبيان الحسان الأمايلد... وانتهت بأن أحب أخته - أخته ألا تصدقون؟ حباً أثمر حبلاً!

هذه الرذائل كلها، ومؤلف الكتاب يمجّد الرجل ويبجله، ويلبسه أثواب العظمة والجلال، ولا ينكر عليه بكلمة واحدة.؟.

... لماذا؟

لأنه استطاع أن يصنع كلاماً جميلاً.

لأنه نظّم شعراً بليغاً.

لأنه كان أديباً، والأديب مغفور له كل ذنب، محتمل منه كل أذى.

وأنا أديب ولكن إن كان هذا هو الأدب فاشهدوا عليّ أني طلّقت الأدب طلاقاً لا رجعة فيه، وسأحكم الله بالثلاثين سنة التي أنفقتها من عمري في الكتابة فيه، وبالعشرة آلاف من الصفحات التي كتبتها في هذه السنين الثلاثين.

إن كان هذا هو الأدب، فلعنة الله على الأدب.

لعنة الله على الشعر الجميل، والوصف العبقري، إذا كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والفضيلة والعفاف.

لعنة الله على بيرون وبودلير، وعلى بشار وأبسي نواس، وعلى من يفسد عليّ ديني، ويذهب بعرضي، ويحقر مقدساتي، ليقول كلاماً حلواً.

وهل تعرّض عليّ لذتي بحلاوة الكلام، الدين الذي فسد، والعرض الذي ذهب، والمقدسات الذي مرغت بالوحل.؟

هل في الدنيا مؤمن أو كافر، شرقي أو غربي، يسمح بوضع هذا الكتاب بين أيدي أبنائه وبناته، ليتعلموا منه أن يحب الشاب أخته حباً ينتهي بالحمل؟

هل يسمح بذلك إلا أن يكون قد فقد عقله؟

فكيف يسكت الناس عن هذا الكتاب وهو يباع علناً، كيف يغضون عن هذا الماخور السيّار؟ كيف تقر الحكومة نشر كتاب، يلعن كل ما يباركه الشيخ والقسيس والحاخام، ويهدم كل ما يبينه الوعاظ والمعلمون والمصلحون، ويبيح كل ما تحرمه الشرائع والقوانين والأعراف؟

آمنًا بحرية الرأي، ولكن هل معنى هذه الحرية أن كل من استطاع كتابة صفحات وطبعها يكون حراً أن يقول ما شاء، ولودعا إلى الكفر والفسوق والعصيان؟

لماذا تمنع البلاد الملكية الطعن بالذات الشاهانية، وتبيح الطعن بالرسول والأنبياء بتسفيه أديانهم، وتقبيح شرائعهم؟

وهل الحرية أن يعمل كل إنسان ما يريد، ولو ضرب غيره، ولو عدا على ماله؟ ولو مشى في الطريق عارياً؟ ولو كتب مثل هذا الكتاب؟

ولماذا نقيم القيامة على من يسرق عشرة قروش، ونبعث وراءه الشرطة والدرك والنيابة والمحكمة والسجن... ونترك سارق الأعراض والعقائد؟

إن في الأسواق كتباً نجسة مدمرة، ألّفت لتمجيد أناس كانوا في سيرهم وفي أخلاقهم، شر نموذج يعرض على أنظار الناشئين والناشئات. ولا يكون لهم منها إلا دليل يأخذ بأيديهم ليسلّكهم هذه المسالك، منها كتاب «جبران خليل جبران» لنعيمة، جبران الذي يصفه صديقه وهو يقرظه بأنه حمل نفسه إلى المجد على عاتق امرأة، ثم لم يكفه هذا الصغار حتى جعل مكافأتها أن خان عهدا، جبران الذي يمدحه صفيه وخليفه نعيمة، بأنه كان يحاول أن (يأتي) كل فتاة كانت تأتي إليه معجبة به. ومنها كتاب بلزاك، وكتاب اسكندر دوماس،

وأشباههم من أدباء الإفرنج، ممن كانوا يعشون بعرض الفتاة، ويفجعونها فيه، ويعملون منها بغياً لينظموا قصيدة غزل، أو يكتبوا قصة حب، كما أحرق نيرون روما، ليؤلف لحنه الموسيقي على لهيب نارها. . .

وشر من هذه الكتب كلها، كتاب (الرباط المقدس) لتوفيق الحكيم لأنه دعوة صريحة للعبث بالأمانة الزوجية، وأن تشرك المرأة حبيبها مع زوجها في جسدها! .

كتاب لم أجد في كل مارأيت من كتب دعاة الرذيلة أوقح من مؤلفه الفاجر ولا أقل حياء منه!

أو تدرّون كيف قرأت هذا الكتاب؟

كنت في مصر سنة ١٩٤٥، جئتها بعد غيبة عنها امتدت سبع عشرة سنة، وأقام لي المصريون الكرام حفلات كثيرة، قام في واحدة منها الشاب العالم الصالح عبد الرحمن الباني (مفتش الدين في وزارة المعارف السورية اليوم) وكان طالباً في الأزهر، فألقى خطبة عاب فيها على الأدباء المسلمين سكوتهم عن إنكار منكرات النشر، وضرب المثل بهذا الكتاب، وبلغت به الحماسة أن طوّح به فאלقاه عليّ من فوق المنبر. . . وقال: خذ انظر، ماذا يكتبون وأنتم نائمون.

وأصابني الكتاب بضربة على وجهي، ولكني لم أغضب، ولم أردد عليه مثلها، بل احتملتها صابراً، لأن الحق كان معه!

لأننا نحن المذنبون.

نحن المذنبون، ونحن نستحق هذه الضربة وأشد منها.

إن الكثرة الكاثرة من الناس في بلاد المسلمين منا، وفينا الأموال، وفينا الكفايات، وفينا الأقلام، والحكم في عرف الديمقراطية للأكثر، ومع ذلك. . . ومع ذلك نجد الصحافة في أيدي (الآخرين)، والنشر في أيديهم والمدارس والجامعات في أيديهم، وكل شيء، في أيديهم.

ونحن الذين ندفع تكاليف هذه الصحف، نحن الذين نشترها ونقرأها، ونحن ندفع أثمان هذه الكتب، ونحن الذين يرسلون أبناءهم وبناتهم لهذه المدارس والجامعات، ونحن الذين يؤدون الضرائب لهذه الحكومات، التي تهجر كتاب ربنا وسنة نبينا، وتحكم فينا بقوانين فرنسا وإيطاليا وسويسرا والتي تبيح فينا الزنا والربا والفجور والعصيان، وكل ما يحرمه علينا ديننا رغماً عن أنوفنا.

ويا ليتنا بألستنا وأقلامنا، إن عجزنا (ولسنا عاجزين) عن أن ننكر بأفعالنا، وبإلينا إذ لم نستطع منع هذه الكتب وهذه المجلات، لم غدها بأموالنا، وبإلينا إذ لم نقدر على إصلاح هذه المدارس والمعاهد لم نبعث إليها بأبنائنا وبناتنا، وبإلينا إذ بعثناهم إليها ألزمناهم بالصلاة والصيام وتقوى الله وغض البصر، وستر العورات، والبعد عن المحرمات، وسلحناهم لذلك بسلاح من معرفة حقيقة الإسلام، والوقوف على أحكامه، وبإلينا إذ لم نفعل ذلك كلنا، فعله علماؤنا على الأقل، فلم يكن أبناؤهم وبناتهم من السابقين الأولين في طريق الاستهتار والفسوق!

أفلا نستحق أن نصفع بهذه الكتب كل يوم على وجوهنا؟

* * *

إن أكثر هؤلاء الأشرار (من أمثال توفيق الحكيم) عزّاب غير متزوجين، ليس لهم ولد يخافون عليه الفساد، ولا بنت يخشون على عفافها الضياع، فهم لذلك يفتحون علينا، في صحفهم ومجلاتهم وكتبهم، باباً بعد باب للاختلاط والفجور والبغاء المقنع، يخترعون كل يوم اسماً جديداً، فمن (الحرية الفكرية) إلى (الحياة الفنية) إلى (الروح الرياضية) إلى (النهضة النسائية) والمسمى واحد والغاية واحدة، وهي أن يستمتعوا المتعة المحرمة بيناتنا، بالنظر إلى محاسنهن في الطريق، والاختلاط بهن في المعهد، ورؤية المستور من أعضائهن في الملعب، وتقصّي العيون الفاجرة كل موضع من أجسامهن على الشاطئ، وما يتبع النظرة من الابتسام، وما بعد الابتسام من الكلام، ثم الموعد واللقاء، ثم...

ما نعرف وتعرفون! غاية طبيعية لا بد من بلوغها، ومن أنكر ذلك لم يكن إلا أحمق مجنوناً، أو كذاباً ملعوناً، يظهر غير ما يبطن، ويقول غير ما يعتقد.

وهل تدرج الصخرة من فوق الجبل، ليس أمامها شيء، وتنتظر أن تقف على الطريق؟ هل تضع النار والبارود، وترقب ألا يكون انفجار، بل يكون برد وسلام؟

هذه حقيقة من أظهر الحقائق، من كان لا يبصرها فهو أعمى، ومن أنكرها فهو شيطان، فلم لا نعترف بالحقائق؟

لماذا ننكر بالستنا، ما تنطق بصحته قلوبنا وجوارحنا؟

لماذا نكون مثل هؤلاء (التقدميين!) يفعلون كل شيء، ولكن يستحيون من التصريح باسمه؟

وكيف يجوز لهم في شرع هذه المدنية أن يهجموا علينا ولا يجوز لنا أن ندافع عن أنفسنا؟

أتبلغ الوقاحة باللص أن يأتي ليسرق عرض ابنتي جهاراً نهاراً، ولا يحق لي أن أحصنها منه بالحجاب الشرعي، وبالتربية الإسلامية، وأن أدافع عن نفسي بالفكر والقلم واللسان؟

إننا في أنظارهم (رجعيون) و (جامدون) و (متعصبون) لأننا لم نقل لهم، تفضلوا انتقوا من تشاؤون من بناتنا، لتصاحبوها في السينمات، وترافقوها في السهرات، وتأخذوها إلى (البلاجات) . . .

لقد بلغنا من المذلة والضعف أن صرنا نخشى اللص، ونهرب منه، لثلاث شهاد متلبسين بهذه الجريمة الممجية، المخالفة للمدنية والتقدمية، جريمة منع اللص من أن يسرقنا، لقد تبدلت المقاييس، وتغيرت الأفهام، فصار الناس يُجَلِّون البغايا من الممثلات والراقصات، أكثر مما يُجَلِّون الفاضلات الصالحات ويحترمون المغنين والمغنيات، أكثر من احترام المدرّسات والمعلمات.

هذا كله ثمر الغرسة الخبيثة التي غرسها فينا المستعمر، وإنه لن يكون
الجللاء حقاً، حتى تجلو قوانين المستعمر عن محاكمنا، وشبهه عن رؤوسنا،
وعاداته عن بيوتنا، كما جلت جنوده عن أرضنا.

وذلك في أيدينا، نحن الكثرة الكاثرة، نحن الذين نملك الأموال والعقول
والألسنة والأقلام، ونملك هذه المنابر التي تستطيع أن تهز الأرض، إذ علاها
رجال، لا أشباه الرجال.

فإذا بقينا على هذا الصمت، وهذا الضعف، وهذه العبودية، كنا
مستحقين أن نصفع على وجوهنا كل يوم، لا بالكتب بل بالنعال!

ومن حرّم الكلام في الحب؟ (والله الذي أmaal الزهرة على الزهرة حتى تكون
الثمرة، وعطف الحمامة على الحمامة حتى تنشأ البيضة، وأذن الجبل من الجبل
حتى يولد الوادي، ولوى الأرض في مسراها على الشمس حتى يتعاقب الليل
والنهار، هو الذي ربط بالحب القلب بالقلب حتى يأتي الولد.

ولولا الحب ما التفّ الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطف
الطبي على الطيبة في الكناس البعيد، ولا حتى الجبل على الراية الوادعة،
ولا أمدّ ينبوع الجدول الساعي نحو البحر.

ولولا الحب ما بكى الغمام لجذب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهرة
الربيع، ولا كانت الحياة^(١).

ما في الحب شيء، ولا على المحبين سبيل، إنما السبيل على من ينسى في
الحب دينه، أو يضيع خلقه، أو يهدم رجولته أو يشتري بلذة لحظة في الدنيا
عذاب ألف سنة في جهنم. أو لم يؤلف ثلاثة من أعلام الإسلام، ثلاثة كتب في الحب^(٢).

(١) فقرة من قصة (ابن الحب) من كتابي (قصص من التاريخ).

(٢) الزهرة لابن داود الظاهري. وروضة المحبين لابن القيم، وطوق الحمامة لابن حزم،
الأول طبع أوروية والثاني طبع المكتبة العربية في دمشق والثالث طبع مكتبة عرفة في
دمشق.

وهم صاحب الأعلام^(١)، ومصنف المحلّ والإمام ابن الإمام؟

ويا ليت الشبان يعودون إلى الحب، فتقل هذه الشرور، ويخف هذا الفساد. ولكن أتى يكون الحب، مع هذه الشهوات المتسعة؟.

إنها إذا لم تظمر الفحمة في بطن الأرض دهرًا، لا تصير الماسًا، وإذا لم تدفن الشهوة في جوف القلب عمرًا، لا تكون حبًا.

ولكن كيف أكتب عن الحب؟

وهل تسع هذه المقالة حديث الحب؟

هل يوضع القمر في كف غلام؟ هل يصب البحر في كأس مدام؟ وأين لعمرى الألفاظ التي أحملها معاني الحب؟ أين التعبير الذي يترجم عن العاطفة؟ إن البشر لا يزالون أطفالاً ما تعلموا الكلام، إنهم خرس يتكلمون بالإشارات وما هذه اللغات البشرية إلا إشارات الخرسان، وإلا فأين الألفاظ التي تصف ألوان الغروب، ورجفات الأنغام، وهواجس القلوب؟

نقول للون أحمر، وفي صفحة الأفق عند المساء عشرات الألوان كلها أحمر، وما يشبه لون منها لونًا، وما عندنا لهذه (العشرات إلا هذا اللفظ

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين. وهو كتاب جليل فيه علم كثير، وفيه شغب على المذاهب الفقهية المدروسة المحققة، ومثله في ذلك المحلّ لابن حزم. ونحن لا نقول أن كل ما في المذاهب الأربعة معاً يجب اتباعه، ولا تجوز مخالفته، ولكن نقول، إن من كان مقلداً على كل حال، فأولى به أن يتبع مذهباً خدّم أكثر من ألف سنة من أن يتبع فقيهاً منفرداً برأيه أو يتبع محدثاً غير فقيه. والحديث هو الأصل، ولكن ليس كل محدث فقيهاً، ولا كل صيدلي طبيباً، ولا كل من وقف على نصوص القوانين، يكون قاضياً أو محامياً.

هذا وأنا أعلم أن الاثنين (ابن القيم وابن حزم) من أجل العلماء الذين ازدان بهم تاريخ الإسلام، ولكن لكل عالم حقوة، والعصمة للرسول صلى الله عليه ولأمته فيها ينعقد عليه (إجماع) مجتهديه.

(الواحد). ونقول للحن رصد، ولكن رجفة في صوت المغني، أو مدة أوغنة، تجعل من الرصد مئة رصد، وما عندنا لهذه (المئة) إلا اللفظ (الواحد).

ونقول، قصة (جميلة)، ونغمة (جميلة)، ومنظر (جميل)، وطفل (جميل)، ما عندنا إلا هذا اللفظ الواحد، نكرره كالبيغاوات نعبر به عن ألف جمال، ما منها جمال يشبه جمالاً، وأين (جمال) القصة، من (جمال) الوادي، و (جمال) العمارة من (جمال) المرأة؟

وجمال المرأة... ؟ أهو لون واحد، حتى نطلق عليه الوصف الواحد؟ لوحشت مئة من أجهل الجميلات في مكان، لرأيت مئة لون من ألوان الجمال تشعر بها، ولكن لا تملك وصفها.

إن في الأرض اليوم أربعة مليارات من العيون البشرية نصفها في أوجه الأنثيات، ونصف النصف تحت حواجب الغيد الفاتنات، وما فيها عيتان هما في شكلها ووحيتها، وأثرهما في النفس، كعينين أخريين. ثم إن لكل عين حالات مختلفات لا يحصيها العد، ولغات لو كان يدركها البشر، لكان لكل عين قاموس، يترجم عنها، كالقاموس المحيط. وما عندنا لهذا كله، إلا هذا اللفظ الواحد، جميل، جميل، نكرره ونعيده...

وكذلك الحب.

الحب عالم من العواطف، ودنيا من الشعور، فيها كل عجب وغريب وليس لنا إليه إلا هذه الكوة الضيقة، الكلمة القصيرة ذات الحرفين: الحاء والباء، الحاء التي تمثل الحنان، والباء التي تجعل الفم وهوينطق بها، كأنه متهيئ لقبلة، كلمة (الحب). ولكن كم بين حب وحب؟

بين (حب) التلميذ مدرسته. و (حب) الوالد ولده، (حب) الصديق صديقه، و (حب) المتشائم الوحدة، و (حب) أكلة من الأكلات و (حب) منظر من مناظر الطبيعة، و (حب) كتاب من الكتب... وبين (حب) المجنون ليلاه؟ وحب العاشقين أنواع وأنواع.

ففي أي الحب أتحدث؟ وكيف أجمع أطراف الكلام حتى أحشره في هذه الصفحات ولولبت شهرًا أكتب كل يوم فصلاً ما أتيت على ما في نفسي ولما وفيت حقّه الموضوع؟.

ولكنني مع ذلك سأحاول.

أحاول أن أكتب في الحب، وقد تقضى الصبا، وتولى الشباب، وما كان (يوماً) يملأ القلب، صار ذكرى لا تكاد تخطر على البال؟.

لقد كنت إذ أكتب في الحب، أغرف من معين في نفسي يتدفق، فجف النبع حتى ما يفيض بقطرة، وخلا الفؤاد من ألم الهجر، وأمل الوصال، وبطل سحر الغيد، وطمست شمس الحقيقة، سُرَج الأباطيل؟

ولو أني بليت بحب جديد، لأعاد لي الحب أيامي التي مضت. والحب يصنع المعجزة التي تنقطع دونها آمال البشر: يعيد للمحب ماضيات الأيام، ويرجع له خوالي الليالي، ويرد الكهل فتى، والفتى طفلاً، وأين مني الحب؟ لم يعد ينقصني بعد السن والتجربة إلا أن يتعبدني الحب... وأن أعود إلى تلك الحماقات!

أعوذ بالله، من الجنون بعد العقل.

كلا، ما أنا من دد^(١) ولا دد مني، فاتركوني أيها العشاق، اتركوني فقد أنستني الأيام كيف يكون الغرام.

وماذا يبتغي (العشاق) مني وقد جاوزت حد الأربعين؟

ولكن هل تركني العشاق؟ هذي كتبهم بين يدي، يستنجزون بها الوعد، ويطلبون مني أن أكتب لهم في الحب، كأننا لسنا في حرب مع اليهود، وليس في الدنيا غلاء ولا بلاء، ولا مفاسد ولا عيوب، ما بقي علينا إلا الكلام في الحب؟

(١) الدد: اللهو واللعب.

ومتى كان المحبون يحفلون في الدنيا، بغير المحبوب؟ لا يعرف المحب إلا ليلاه، يحيا لها، ويموت فيها، أكبر همّه من العيش أن تعطف عليه بنظرة، أو تجود له ببسمة، أو أن تمس بيدها يده فتمشي في أعصابه مثل هزة الكهرباء، ويسكر منها بلادنّ ولا قدح، ويطرب بلا حنّجرة ولا وتر، وغاية أمانيه من الدنيا أن يلقي برأسه على صدرها، أو يجمع فاه إلى فيها، في ذهلة لذة^(١) عميقة تحمله إلى عالم مسحور، يجتمع فيه الزمان كله، وتختصر فيه الأمكنة جميعاً، فتكون هذه اللحظة هي الأزل وهي الأبد، وهي الماضي وهي المستقبل، ويكون المحبانّ هما وحدهما الناس...

أولئك هم العاشقون.

وأولئك هم (عند أنفسهم) أرباب القلوب، وهل يكون ذا قلب من لم يلامس قلبه الحب؟

وأولئك هم أولوا الأبصار. وهل تبصر عين جمال الوجود إن لم تفتحها يد الهوى؟

وأولئك هم المعذبون الصابرون. يعيشون فلا يدري بآلامهم أحد، ويموتون فلا يقام لشهيدهم قبر، لا يهدأون ولا يهنأون. إن اشتهى الناس المسرة استمتعوا هم بالآلام. وإن اطمأن الناس إلى الحقائق طاروا هم وراء الأوهام. وإن أنسوا بالضحك استراحوا هم إلى البكاء. يبيكون في الفراق من لوعة الاشتياق، ويبكون في الوصال من خوف الفراق، يريدون أن يطفئوا بالدمع حرق القلب، وما يزيدها الدمع إلا شرة وضراماً.

يبيكون لأنهم يطلبون ما لا يكون فلا يصلون إليه أبداً.

يترك العاشق النساء جميعاً، ويهتم بها وحدها، فهو يريد أن تترك الرجال وتنظر إليه وحده، وأن تدع لأجله الدنيا وما فيها، وتغمض عينيها فلا ترى فيها غيره، وتوصد أذنيها فلا تصغي إلى سواه، فهو يغار عليها من القريب والبعيد،

(١) لذة: لذينة.

ومن أمها ومن أبيها، ومن الشمس أن تبصرها عين الشمس، ومن الكأس أن
تقبل ثغرها شفة الكأس.

ماذا يريد العاشقون؟

سلوا الشعراء يحلفوا لكم، إنهم لا يطلبون إلا نظرة تروي الغليل،
وبسمة تظفي الجوى، وأن يندمج بها، ويفنى فيها، فهو يعانقها (والنفس بعد
مشوقة) إليها، ويضمها وهو يحس أنه لا يزال بعيداً عنها، وهو لو استطاع
لعصرها مصاً، ولأكلها عضاً...

يمضي عمره بعيداً عنها، خالياً قلبه من حبها، لا يدري بوجودها، ثم
يراها مرة واحدة؛ ينظر إليها نظرة، فيحسب أنه قد عرفها من الأزل، وأنه
لم يفارقها ساعة، ويقسم أنها ما خلقت إلا له، ولم يخلق إلا لها، ولا يعيش إلا
لها وبها، فيها روح في جسدين^(١) هي هو، وهو هي، ينظر بعينيها، ويسمع
بأذنيها، ويجمع بطنها، فإن أكلت شبع، وإن شربت روي، وإن سُرَّت
ضحك، وإن تأملت بكى، وإن أصابها الصداع وجعه رأسه... يطرب
وهو بعيد عنها إن سمعت نغماً عذباً. ويتسم وهو في أعماق منامه إن رأت في
منامها حلماً حلواً.

يتبع هواها على القرب والبعد، ويؤثر رضاها في الغيبة والحضور،
ويطيعها إطاعة لو أن العباد أطاعوا ربهم مثلها لأقفرت من أهلها جهنم. يسهر
الليل كله يتقلب على فراش السهد من الشوق إليها، والخوف منها، والطمع
فيها، ويعد الكلام الطويل ليقوله لها، فإذا لقيها نسي ما كان أعدّه من هيبتها.

إن تكلم لم ينطق بغير حديثها، وإن سكت لم يفكر إلا فيها، قد جهل كل
طريق كان يعرفه إلا طريقها، فما يمشي إلا توجه إليها، يحوم حولها علّه يرى

(١) وهذا ما أراده من يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
ولكن قصرت به العبارة.

البيت الذي تسكنه، أو ينشق الهواء الذي تنشق، ينام الناس ويسهر ليله، يسائر النجوم في مسالكها، ويعد الدقائق في مجراها، لا يرى حيثما نظر غيرها، ولا يبصر سواها، يراها بين سطور الكتاب إن نظر في صفحات الكتاب، وفي وجه البدر إن رنا طلعة البدر، وبين النجوم إن قلب نظره في النجوم، يراها في كل شيء تفتح عليه العيون، فإن أغمضهما رأى طيفها في ثايا الأحلام..

يذكره بها وميض الزهر في الروض، وحديث الساقية للسفح، والحمامة تسجع على الغصن، والمغني يصدح في هدأة الليل، بـ (يا ليل) فيصغي طرباً إليه الليل، ولفته الجدول عند الرابية، وفتنة الوادي عند الجزع، والدرب الحالم تحت فروع الدلب والصفصاف على كتف النهر، والشلال الهادر في الليل الداجي، والتلال الخضراء اللابسة جلايب الصنوبر، والجبل الأجرد المتوج بعمامة من الصخر..

إن هب النسيم من نحو أرضها شجته النسائم، أوجرى السيل من جهتها أجرت دموعه السيول، أوطلع الكوكب من أفقها أهاجت أشواقه الكواكب، أوراى طيراً تمنى لو استعار (ليزورها) أجنحة الطير.

يحب لأجلها كل ما كان منها وما اتصل بها، الرضاب الذي تنفر منه النفوس إن كان رضابها فهوخر، وريح العرق التي تأنف منها الطباع إن كانت ريحها فهي عطر، والألم إن جاء منها كان لذة، والذم إن جرى على لسانها كان ثناء، والظلم إن وقع منها أشهى إلى قلبه من نيل الحقوق من أيدي الغاصبين، والأهل أهلها أحباؤه وأصدقائه، ولو عدوا عليه، وأسأوا إليه.

يرضى منها بالقليل الذي لا يرضي، إن بسمت له بسمه فكأن قد بسم له الدهر، وواتته الأمانى، وإن كلمته كلمة، فكأن قد صبَّت في روحه الحياة، وإن وعدته بقبلة، عاش دهره يذكر الوعد ويتعلل بذكره.

يعاف لحبها طعامه وشرابه، ويهجر راحته ومنامه، والمجد يزهد فيه ولا يباله، والدين يتركه والمال لا يفكر فيه، وإن هواه بغى المعالي يوماً فإنما يبتغيها ليسرها ويرضيها، وإن نظم أو كتب فلها وحدها، يقرؤه عليها وإن كانت

لا تدركه ولا تفهمه، ولا تستطيع أن ترقى إلى سمائه، وإن أغار في الحرب
فلينال إعجابها، وإن طلب العظام فليعظم في عينها، إن سعد الناس بالغنى
والجاه لم يسعده إلا لقاءها، وإن حرص العقلاء على رضا الله لم يحرص إلا على
رضاها، وإن افتخروا بالصحة والقوة، فخر بالمرض والضعف والهزال، يرى
القصر إن خلا منها سجنًا، والسجن إن كان معها قصرًا، والفقر إن كانت فيه
روضة، والروضة إن فارقتها فقرًا، واليوم إن واصلته لحظة، واللحظة إن هجرته
دهرًا، يرى الشمس من هجرها سوداء مظلمة، والليل البهيم من وصالها شمسًا
مشرقة.

تؤرقه ويرجو لها طيب المنام، وتسقمه ويسأل لها البعد عن الأسقام،
يعتذر من ذنبها وهي المذنبه، ويبكي من حبها وهو القليل، فهي شفاؤه وهي
داؤه، وهي نعيمه وهي شقاؤه. وهي جنته وهي ناره، يطلب أن تلتقي
الروحان، ويتوحد الاثنان، وهذا ما لا يكون أبدًا، لذلك يترك حاضره ويحن إلى
الماضي، يعود بالذكرى إليه يفتش في زواياه عن هذه الأمنية، أو يتطلع إلى
المستقبل، يستشف بالخيال ما فيه، فلا يرجع له ماضٍ، ولا ينجلي له آتٍ،
ولا يثبت له حاضر.

وهذا أبدًا دأب العاشقين، إنهم يشوا من أن يساعدهم الناس على
بلواهم، فتركوا دنيا الناس وعاشوا وحدهم في دنياهم، هاموا على وجوههم
يبحثون عن قطع قلوبهم التي خلفوها في مدارج الهوى، وملاعب الصبا، وتحت
الأطلال، يسائلون الحفر والحجارة، ويناجون الأحلام والأوهام.

يقول العاذلون: انس ليلاك، ففي الأرض ليليات كثر، واستبدل بها...
وما يدري العاذلون، ماذا يلاقي، لا ولا نظروا إلى ليلي بعينيه،
ولا شعروا بها بقلبه...

فيا رحمتا للعاشقين، مما تقول العواذل.

* * *

هذا هو الحب عند الأدباء، فما الحب عند النفسين؟
أنا أقول لكم ما الحب عند النفسين.

لا يرى النفسي في الحب، إلا رغبة في متاع الجسد، قابلهامتناع وإباء فاشتدت وامتدت، وكانت بين الرغبة والامتناع شرارة، كالتى تكون بين سلكتي الكهرباء، وهذه الشرارة هي الحب، ما الحب إلا (شهوة) لم تقض ورغبة لم تتحقق، وكل ما يقول المحبون العذريون وهم وضلال، يقولون إنهم لا يطلبون إلا المجالسة والكلام، ولو كانت مجالسة وكلام، لطلبوا لمسة اليد وقبلة الخد، ولو كانتا لطلبوا العناق والضم، ورشفة الفم، كصاعد الجبل، يرى الذروة أمامه فيحسبها القمة التى لا شيء فوقها، فإذا بلغها تكشف له ذروة أعلى، إنها سلسلة لها حلقات متصلات، ما أمسكت بواحدة منها إلا جرّت معها التى بعدها، حتى تصل إلى آخر حلقة فيها:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء...

... فالمحكمة الشرعية لعقد العقد، أو محكمة الجنائيات لتلقي العقوبة، هذه هي سنة الله، ما جعل الله طريقاً للصدقة بين الشاب القوي والصبية الحسنة لا ولا بين الكهل والشواء، لا صداقة قط بين رجل وامرأة، ما بينها إلا الحب المفضي إلى (الاجتماع...)، إن الصداقة صلة بين متشابهين، بين الرجل والرجل، وبين المرأة والمرأة، والحب صلة بين مختلفين ليتكاملا به فيغدوا بالحب كالكائن الواحد.

فإن لم تكن رغبة يقابلها امتناع لم يكن حب، والمرأة التى تمنح جسدها كل طالب، تكون مطلوبة وتكون مرغوباً فيها، للذة العابرة والمتعة السائرة ولكنها لا تكون محبوبة أبداً!

والحب إن حلّته إلى عناصره، كما يفعل الكيميائيون بالجسم المركب وجدته يرجع إلى (غريزة الاستطلاع) وإلى (غريزة التغلب) وهما من (أصول الغرائز الإنسانية، وقد تعرف عشرات من النساء، ثم تلمح في الترام فتاة

تجلس أمامك يلوح بياض فخذيها، من تحت ذيلها. فتحاول أن تعرف ماذا هناك، وترى الممثلة في (الفلم) بلباس البحر، وتبّانه^(١) المشدود على فخذيها، فلا يثيرك تبّانها، ما تثيرك خرقه مهذلة ممزّقة، قد لفتها عليها تهتز مع الريح، ولولم تظهر منها أكثر مما يظهر التبان، والفتاة التي تصعد المسرح عارية لا تصنع بأحد مثلما صنعت (ريتا هوارث) لما صعدت بثيابها كلها، ثم ما زالت تلقبها عنها قطعة فقطعة، وتكومها عند قدميها، حتى بدت كالعارية... ومن هنا كانت الثياب، من أسباب الأنوثة، ودواعي الإغراء، ولو أن الناس كانوا كالحمير عراة دائماً، لما بقي من هذه (الرغبة الجنسية) واحد من كل مئة، ولقد قرأت مرة نكتة في مجلة، ولكنها كانت حقاً وصدقاً، أن تلميذاً في مدرسة الفنون الجميلة في مصر، يوم كانت لا تخشى الله، ولا ترعى الخلق، ولا تحكم العقل، فتأتي بالصبايا العاريات (تماماً) ليصورهن التلاميذ، إن هذا التلميذ قال لرفيقه: أما ترى جمال هذه الفتاة؟ قال: فكيف لو رأيته لابسة ثيابها؟!

أما كون الحب غريزة تغلب، فظاهر من أحوال الناس، والنفس تكون متعتها باللقاء الجنسي أكبر، كلما كانت العوائق أكثر، والطريق أبعد وأصعب، ومن أجل هذا ترون أناساً يتركون زوجات لهم كالبدور، ويتبعون نساء كالقردة، ما يستمتعون بالجمال وحده، بل بالوصول بعد العناء والظفر بعد النضال، وأنتم تعرفون قصة النوار مع زوجها الفاسق: الفرزدق الشاعر، وقوله لها: أنت أجهل ولكنّ الحرام ألذّ من الحلال!

ويسخر النفسيون من رجل يتوسل إلى المرأة التي يحبّها بالأرق والسهاد والضعف والنحول، والهزال المميت، والسلّ الرئوي... ويأبّنه شبح يمشي وخيال يتحرك، فماذا تصنع المحبوبة، بهذا (البلاء...)?

إن المرأة تريد في العاشق رجلاً، متين البناء، قوي الجسد، مفتول

(١) التبان: المايوه.

العقل، يسند ضعفها بقوّته، ويتمّ أنوثتها برجولته، لا تريد ميتاً (إن توكّأت عليه انهدم).

فإن كان (شعراء النحول) هؤلاء، صادقين بهذا الهذر الذي ملأوا به نسيبهم، وحشوا به أشعارهم، فليفتشوا لهم عن (ممرّضات)، لا عن (حبيبات)!

ولا يصدق النفسيون أوصاف الشعراء المحبين، إن المحب عندهم لا يرى الفتاة على حقيقتها، ولكنه يلبسها من حبّه ثوباً يراها فيه أجمل الناس، ولا يصدقون دعوى الحبّ من النظرة الأولى، إن النظرة الأولى تنشيء (الحسّ بالجمال) لا الحب، وقد وصف (وليم جيمس) هذا الحسّ بأنه هزّة في الأعصاب يعقبها خدر سريع، فإذا أحسست جمال فتاة قد طلعت عليك من الطريق فصبرت عنها نفسك، وغضضت بصرك، وثبتت لحظة واحدة حتى تمرّ بك وتمضي عنك، واشتغلت عنها بغيرها، نسيتهما، وإن كررت النظر إليها^(١) أو تبتعتها لتعرف مقرّها، ولد حبك إياها أي رغبتك في (الاجتماع...) بها!.

والحب عاطفة عابرة، تدوم ما دامت الرغبة والامتناع، فإن زال أحدهما زالت، فإن كان (اللقاء) لم يبق حب، لأنه يحنّث تحت اللحاف، ومن هنا يستبين لك أن الزواج إن بني على الحب وحده، لم يكن فيه خير ولو أن المجنون تزوج ليلي، زواج عاطفة فقط بلا مراعاة مصلحة، ولا نظر في كفاءة، لكان بينها بعد ثلاث سنين (دعوى تفريق)!

* * *

فإذا جثت علماء الحياة، وجدت للحب عندهم، منزلة أدنى، ورتبة أخسّ، الحب عندهم غريزة جعلها الله في نفس الإنسان لئلا ينقرض ويمحي، فالجوع منبه له ليأكل فيبقى شخصه، والحب (أو الرغبة...) منبه له ليعمل على ما يبقي نوعه، أو هو شيء (أبسط)^(٢) من ذلك وأحقّر، تمتلئ المثانة فيذهب

(١) وفي الحديث: لك النظرة الأولى، أي التي تلقىها عرضاً بلا تعمد ولا قصد، وعليك الثانية أي المتعمدة المقصودة.

(٢) البسيط في اللغة الواسع وقد اضطررت لاستعمال الكلمة بالمعنى العامي.

المرء ليبول، وتمتلىء الخويصلة بالسائل الآخر، فيذهب لـ (يعمل)! لا فرق في ذلك بين المجنون وليلي، وبول وفرجينى، وبين الحمار والأتان، والديك والدجاجة، وبين تلاقح الزهر والورد، وسواء بعد ذلك كل (إناء...) يلقي فيه هذا الماء!

(عملية) غير جراحية، ولكنها عملية قذرة بشعة، ولا بدّ في (العمليات) من (بنج)، والبنج هنا، البنج الذي يذهب الحسّ، ويضيع العقل، هو هذا (الحب) أو هذه (الرغبة)، لولا ذلك ما قبل عاقل أن يعمل ذلك العمل! هل يقبل عاقل أن يدخل أصبعه في أنف المحبوبة؟! إن ذلك الفعل أبشع وأشنع، ولكننا نفكر فيه ونحن (تحت البنج)! فلا ندرك بشاعته.

والمقصود هو بقاء النسل، وكلما علا الحيّ منزلة، قل اللقاء، وطال الحمل. الديك والدجاجة يجتمعان كل يوم، لأن مدة الحمل بالبيضة ليلة، أما الهرّ والهرّة فيجتمعان مرة في السنة أو مرتين، لأن الهرّة تلد مرة في السنة أو مرتين، ولولا المغريات في الناس، لكفى بين نوعي البشر اجتماع مرة في العام.

والحبّ العذري، أي الحب الشريف الذي ليس فيه مطلب جنسي هو في نظر العلم كذبة حمراء، وفرية ليس لها أصل، وإنما هما غريزتان، حفظ الذات بالطعام، وحفظ الجنس بالاتصال، فهل تصدّق الجائع إذا حلف لك، أنه لا يريد من المائدة الملوكية^(١) إلا أن ينظر إليها، ويشمّ على البعد ريحها؟! كلا. كل حبّ مصيره إلى النكاح أو السفاح.

* * *

هذا هو الحب، فصّدّق ما يقوله فيه المحبّون، أو صدّق ما يقوله المفكرون العالمون.

(١) القياس ملكي ولكن البلغاء قالوا (ملوكي) كما قالوا رسائل إخوانية وغيرها، والجمع إذا أجرى مجرى العلم جازت النسبة إليه كما قالوا عالم أصولي ورجل شعوبي.

هو عند الأدباء والشعراء، وعند المحبين والعشاق، سلطان عنت له
القلوب، وذلت له الملوك، فباعوا في سبيله التيجان، من لدن أنطونيوس
وكليوباترة، إلى إدوار وسمبسون.

والمحبة عندهم هي الدنيا، دينهم التوحيد في الحب، لكل شاعر عاشق
(واحدة) وقف عليها قلبه، وأدار عليها شعره، وقرن نفسه حياته^(١) بها، فقرن
التاريخ اسمه بعد موته باسمها، فلا تعرف إلا به ولا يعرف إلا بها قيس وليلى،
وقيس ولبنى، وجميل وبشينة، وكثير وعزة، وعروة وعفراء وذو الرمة ومي، وتوبة
والأخيلية، والعباس وفوز، وبول وفرجيني، فكان رباطاً لم تقدر على حله يد
الزمان.

وهو عند النفسيين والطبيين، ما قد رأيت وسمعت، وهو الحق،
لا ما يقول العشاقون. والحب بعد ذلك كله سر الحياة، وروح الوجود.

(١) أي مدة حياته.

[كان (ديوان الأصمعي) مفقوداً، حتى وجد صديقنا الأستاذ سعيد رمضان هذه النسخة المفردة منه في مكتبة جامعة برنستون فأهداها إلي، وأنا أنقل عنها اليوم هذه الصفحة من باب (الكنى والألقاب)^(١)]

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء، لم سمي أحمد بالشوقي؟ قال: لقد سألت عن هذا جدي أبا العلاء (يعني المعري)، قلت: وهو غير أبي علي المصري فقال: سمي بذلك لأنه أكثر في شعره من ذكر الشوق، قلت: فلم لقب إبراهيم بالحافظ؟ قال: لكثرة حفظه الحديث؟

قال الجاحظ: وأبو عمر هوزوج أم عمرو التي قال فيها الشاعر:

وقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

وسبب هجائه إياها، أنها منعت عنه الكأس، حيث يقول:

صبت الكأس، عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين

وما شرُّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

والثلاثة هم شوقي وحافظ والمطران، والمطران هو الذي (ذهب

(*) روى ابن إسحق أن ابن عباس كان إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة في القرآن والتفسير والحديث ثم يقول «حضورنا» فيأخذ في حديث العرب ثم يعود.

وروي عن أبي الدرداء قوله: إني لأستجم ببعض اللهلويكون لي عوناً على الحق. (١) هذه النسخة، وما مر في الكتاب عن (الأعرابي والشعر) وأمثاله كله من خيال المؤلف - نهت إليه في هذه الطبعة من الكتاب لأن أحد الأساتذة، ظن ذلك حقيقة وبني عليه فصلاً (لغوياً...) نشره في مجلة من أرقى المجلات العربية!.

بأم عمرو)، وسبب تلقيه بالحمار أنه كان مع صاحبيه بالحمار مع الجوادين، يحاول أن يجري معها، وما هو من جنسها.

قال الأصمعي، وحدثنا ابن قتيبة وطه بن الحصيني^(١)، عن أحمد الإسكندري أنه إنما لقب أحمد بالشوقي لأنه سمى ديوانه (الشوقيات).

قال: وحدثني إبراهيم المازني، عن جده أبي عثمان المازني، أنه قال: لقيت من الحفاظ من لا أحصي فما وجدت مثل الحفاظ إبراهيم. قلت: فما بلغ من حفظه؟ قال: أنه كان يحفظ أسماء أيام الأسبوع، وشهور السنة، ويعد الخلفاء الراشدين لا يغيب عن ذهنه أحد منهم.

قال إبراهيم بن عبد القادر المازني: فعجبت من ذلك، ورويته في كتابي (قبض الريح^(٢)) في أخبار رواة الصحيح).

قال: والمازني لم يكن من بني مازن، ولكنهم ادّعوه وسبب ذلك أنهم سمعوا قصيدته المشهورة:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شياننا
فأعجبته، فردّوا عليه إبله، وأكروها بني اللقيطة على تقبيل يده، وسؤاله الدعاء.

قلت: وزعم أبو عبيدة أن اللقيطة أمهم، والصحيح أن (اللقيطة) قصة مطبوعة في مصر.

قال الأصمعي: ووقفت في الموصل على حلقة محمد بن الصواف^(٣)، وهو يمي (باب الكنى والألقاب) من كتابه، وكان مما أملاه: وبنو الأصفر الروم، والمصفرة طائفة من الخوارج، والحمراء مضر، فسأله رجل من عرض الحلقة: وبنو الأسود^(٤) في حلب، لمن ينسبون؟

(١) الحصيني في لغة أهل الشام الثعلب.

(٢) قبض الريح كتاب للمازني.

(٣) الداعية الاسلامي المعروف.

(٤) منهم عبد القادر الأسود كان رئيس محكمة النقض.

قال الشيخ : للأسود بن أبي الأسود الدؤلي، الذي وضع النحو.

قال : فالأزرق؟ قال لعلائة بن الأحوط وهو أبو الأزارقة.

قال الأصمعي : وحدثنا السمعاني، وكان عالماً بالأنساب، أنه لما أوقع الحجاج بالأزارقة ذهب أخوان منهم، الأزرق والزرقاء، فسكنا حلب وأبوهما علائة، من بني فارغ بطن من تميم.

وحدثني ابن هشام وكان أنحى أهل زمانه، قال : أخبرني ابن جني، أن الزرقاء من أسماء الرجال، وعلامة التأنيث فيه للاكتفاء.

قلت : وما الاكتفاء : قال : كانت امرأة علائة تشتبه أن تلد بنتاً فلما ولدت فحلاً، سمته الزرقاء، اكتفاء بعلامة التأنيث عن الأنثى.

قال ابن هشام : وهذه فائدة جلييلة تكتب بماء الذهب.

وحدثني عبد القادر المغربي^(١)، وهو رجل عالم من أهل طرابلس الشام، وإنما سمي المغربي لكثرة غرائبه وفوائده، ثم قيل المغربي بفتح الميم تخفيفاً، فظن من لا علم له، أنه من المغرب، وليس كذلك.

قال : وللزرقاء عقب في حلب، منهم المحدث مصطفى الزرقاء^(٢)، وكان يملئ الحديث في جامع حلب، ثم اتصل بالسلطان، وثقه الذهبي، وقال يحيى بن سعيد القطان : أنه ثقة، ولكنه أضاع نفسه بدخوله النيابات، وسوّقه السيارات.

قال الأصمعي : وهو غير عبد الوهاب (وقيل عبد الوهاب) بن الأزرق، الذي كان يتولى جباية المكوس للملك أوديب (قلت : بل الملك أديب أي الشُّشكلي^(٣))، وهو الذي مدحه رؤية بن العجاج بقوله :

(١) كان نائب رئيس المجمع العلمي رحمه الله.

(٢) الأستاذ المعروف.

(٣) كان المدير العام للجمارك أيام الشيشكلي.

حيّ الفتى عبد الوهّاب الأزرقا
وهو مدير المكس أعني (القمرقا)
صيّر باب الرشوات مغلقا
وأصلح الأمور حتى فورقا

قال المبرّد في تفسيره: القمرقا المكس، معربة عن الهندية، وفورق لا يحتاج إلى تفسير لأنه غامض، والتفسير إنما يكون للواضحات البيّنات.

قال الأصمعي، وحدثني العزّ بن شيخ السروجية^(١)، قال: أخبرني أبو زيد السروجي (قلت: وهذا من روايات الأكابر عن الأصاغر، لأنه شيخ السروجية وأبو زيد سروجي من مريديه) قال:

لقد وهم المغربي، والصحيح أن (الزرقاء) (والأزرق) بلدان في البلقاء في شرقيّ الأردن^(٢) وليسا رجلين، كما خيّل إليه، والمغربي يتخيّل أشياء لا وجود لها، ويكتب عنها، من ذلك المجمع العلمي العربي، توهمه قائماً وهو لم يوجد، ولو كان موجوداً لكان له آثار ولنفع البلد بشيء.

وهذا الرجز منحول لرؤية، صنعه رجل من أهالي الشام يقال له أنور العطار^(٣)، وكان مولعاً بصنع الأشعار.

قال الأصمعي: ولقب بالحكيم جماعة منهم، توفيق الحكيم، وحكيم باشي قصر العيني في القاهرة، وهي إحدى مدن اليمن.

حدثني محمود بن محمد بن شاكراً^(٤) وهو محدث أصله من نينوى. قال: إن الذي أسقط القفطي وأخل ذكره هو حمار الحكيم.

قلت: وما خبر ذلك؟

(١) هو عز الدين التنوخي شيخ السروجية رحمه الله.

(٢) هما اسمتا بلدين في الأردن.

(٣) الشاعر المعروف رحمه الله.

(٤) توفيق الحكيم ومحمود شاكراً معروفان.

قال: إنه لما أُلّف كتابه (أخبار الحكماء) أهداه إلى أمير نينوى، وزعم له أنه لم يدع حكيماً لم يذكره فيه، وكان في مجلسه رجل ماكر، يجسد القفطي يقال له الفريد بن أبي الحديد (قلت: وقد شرح نهج البلاغة الذي أُلّفه الشريف الرضي) فقال له:

— تقول إنك لم تدع حكيماً إلا ذكرته فأين حمار الحكيم؟

فبهت، وغضب الأمير، وضربه عشرين سوطاً، ونهى الناس عن قراءة كتبه.

قال الأصمعي: وكان حمار هذا من كبار الحكماء، ولكن أهل مصر أطرحوه انتصاراً منهم للقفطي، فلم يذكره إلا رجل من أبناء عمومته يقال له توفيق الحكيم.

قال النووي: وتوفيق الحكيم وضاع لا يقبل له حديث، ذهب إلى قرى مصر نائباً في الأرياف، فأهمل عمله، وخان أمانته، وصار يفكر في الرقص والغناء، وهو على كرسي النيابة في المحكمة والقاضي ينتظر مطالعته، والظنين يرقب ما تنفرج عنه شفتاه، فلما أفاق، زعم أن نومه معجزة، وأنه كان مع (أهل الكهف)^(١)!

قلت: وكان يكتب في القهوةات وعلى أرصفة الشوارع، ويزعم في (الرسالة) أنه يكتب (من البرج العاجي)^(٢).

قال: ولقب طه بن الحصيني بطقطر، بفتح الطاء وسكون القاف وضم الطاء الثانية، واختلف في تفسيره على ثلاثة أوجه:

الأول: أنه لفظ أعجمي، معرب (دكتر) والدكتور بلسان الروم الطبيب، قال منير العجلاني الدمشقي^(٣)، في كتابه (الأمثال السائرة في طبقات الدكاترة):

وهذا أصح الأقوال، والجمع دكاترة، قاسوه على جهيز وجهابذة قياساً على التوهم.

(١) أهل الكهف كتاب له ومن البرج العاجي عنوان مقالات له في الرسالة.

(٢) منير العجلاني، وكان قد كتب مقالة عنوانها طبقات الدكاترة.

قال شارحه أحمد السمان^(١): وقياس التوهم، أن يكون على اختلاف الوزن الصرفي، وذلك لأن جهبذ فَعْلِل، كدَعْبِل، ودَكْتَر فَعْلَل كدُعْبِب وربما أشبعوا الضمة فقالوا: دكتور، كما قالوا: أصبوع في أَصْبُع، ويبرود في يبرد، قال الشاعر (قلت: وهو عبد القادر بن المبارك):

يبرود يبرد صيفاً من أقام بها لذاك قيل مع الأشباع (يبرود)

الثاني: أنه عند الروم بمعنى الحاج عند المسلمين وذلك أن كل من حج إلى دير يقال له الصربون في مدينة باريز^(٢)، على نهر السين وقيل نهر الشين، وجلس إلى رهبان فيه سمي طقطر، وهولقب تشریف.

وأكبر رهبان ذلك الدير المص صنيون^(٣)، على وزن صهيون وملعون. قال الزكي بن المبارك: وأصل المص المَصِي، حذف ياءه على شبه الترخيم والمَصِي والمصطر السيد^(٤)، ومن الروم قوم يقال لهم بنوألمان، يدعون السيد القبط.

قال النشاشيبي: وهو وهم من ابن المبارك والسيد عند الألمان (الهر) وعند الطليان السنور^(٥).

قلت: والقبط والهر والسنور واحد، ولا وجه لما قاله النشاشيبي.

الثالث: أن الطقطر من يأخذ من بيت مال المسلمين، ثمن ظهره ونفقتة ويرحل إلى بلاد الافرنج، فيلهو ويلعب، ثم إذا حان معاده إلى بلده، استكتب أحد العلوج كتاباً بلسان القوم هناك، ثم وضع اسمه في ذنبه وأخذ به إجازة مشايخ الافرنج بالتدريس والإقراء، وشهادتهم له بأنه عالم علامة مدرك فهامة!

(١) أحمد السمان كان رئيس الجامعة السورية رحمه الله.

(٢) السوربون في باريز.

(٣) ماسينيون.

(٤) المسيو والمستر.

(٥) السنيور والهر.

وربما اشترطوا أن يأتي معه بزوجة إفرنجية، من أجيرات المعامل أو بائعات التذاكر!

قال سعيد بن جمال الدين الأفغاني^(١): وهذا هو القول الصحيح، وبه قال شيخنا الصوفي الصالح أبو قيس عز الدين بن علم الدين التنوخي قدس سره، تحقق له من باب الكشف.

قال جعفر الحسني^(٢): وقد ثبت عند أهل الآثار، أن قبر السروجي بطاح الجمل، في (شاغور دمشق) هولشيخ السروجية هذا.

قال الأصمعي: وهذا غلط، لأن شيخ السروجية حي يرزق، وهو اليوم أمير بلاس^(٣)، من أعمال دمشق، يقصده فيها الشعراء وأرباب الحاجات فيعودون بالهبات الوفيرة من (جرز) البقدونس، و(حزم) البصل، مد الله في عمره، وزاد في ملكه.

وربما وصف الواحد بصفة الجماعة، فقالوا: (الدكاترة زكي مبارك).

حدثنا أبو هاشم محمد بن المبارك، عن أبيه، عن جده، قال حدثني عمي عبد الله بن المبارك، أن هرون الرشيد سأله لما دخل عليه، هل تعرف الزكي المبارك؟

قال هو من قبيلتنا. وكره أن يزيد على ذلك.

قال أبو هاشم: ولعله نزه نفسه عن الغيبة.

قلت: بل خشي لسانه، وكان هجاء، وابنه (ابن الزكي) كان قاضي دمشق على عهد صلاح الدين الأيوبي.

قال الزيات: وأنا أعرفه، وقد رويت عنه في الرسالة.

قال الأصمعي: والزيات صاحب الرسالة، مختلف في اسمه، قيل أحمد

(١) سعيد الأفغاني الأستاذ المعروف.

(٢) أمين سر المجمع ومدير الآثار.

(٣) للتنوخي مزرعة في قرية بلاس.

وقيل عبد الملك، كان في أول أمره يبيع الزيت في أزقة (المنصورة)، ثم رحل إلى بغداد ليؤدب بعض أولاد الملوك، وبها نشأ ابنه (ابن الزيات)، وعلا نجمه، حتى ولي الوزارة للمعتصم والواثق، فرحل أبوه إلى مصر، وأعرض عن الولايات والأعمال، وهجر (الرسالة)، واعتكف في (تكية الدراويش) التي يقال لها، المجمع اللغوي.

حدثنا أبو عبيدة، قال: أخبرني ابن الأعرابي، قرأت عليه من كتاب (أسواق الأدب)، أن أسواق الأدب كانت ممتلئة بأرباب الصناعات من الأدباء والعلماء، كالقطن واللباد والوراق والوشاء والشواء والعلاف والرفاء والدباغ والصباغ والعطار والصبان واللحام والقفال والبزاز والبزار والسمان والطحان والبيطار والصواف والعقاد والجوهري والأسطرلابي والصابوني والبستاني والحانوتي والسكري والحلواني والزجاجي والكتاني والحريري والبارودي والخضري والجندي والعسكري.

قال الأصمعي: حدثنا ابن قتيبة: أن السمان هو أزهر الذي وفد على المنصور، وله نسل في الشام، منهم أحمد ووجيه الدين، وكانا يبيعان السمن في دكان لهما في دمشق، عند باب القلعة، مما يلي المهاجرين في الباب الشرقي، ثم أقبلا على العلم، أما وجهه فبرع في السيمياء والسحر، حتى مدَّ حبلاً من داره إلى دور الناس، علق فيها قوارير صغاراً من الزجاج، فإذا كان الليل، نفث فيها من سحره، فتوقدت القوارير من غير نار فأضاءت ما حولها، وزعم أن اسمها الكهرباء^(١)، وصنع مراكب تمشي على دواليب وربطها بهذه الحبال فسارت من غير أن يجرها الإنسان أو حيوان، وقال أنها (الترام).

قال الأصمعي: وما رويت هذا الخبر إلا تلمحاً، فلا تغتر به، فإن ذلك من المحال الذي لا يكون أبداً.

وأما أحمد فبرع في العلم، حتى ولاه السلطان مشيخة المدرسة الكبرى^(٢)

(١) هو صديقنا الأستاذ وجهه السمان العالم الأديب مدير مؤسسة الكهرباء.

(٢) كان رئيس الجامعة.

التي تدعى الجامعة، خلفاً لقسطنطين بن زريق^(١)، صاحب القصيدة التي يقول فيها:

أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكوخ من فلك الأضرار مطلعته
ودعته ويودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

قال أنور العطار: وقد سألت عن خبر هذه القصيدة لما زرت الكرخ فعلمت أن هذا (القمر) هو الصافي النجفي^(٢)، وكان قد لقيه ففتنه جماله من أول نظرة.

قال الأصمعي: وهذا يدفع مقالة من ينكر العشق من النظرة الأولى.

والعطار هذا، شاعر بارع وصّاف، وكان يتجر بالعطر يأتي به من تلفتاً في جبل سنبر، ويبيعه في دارياً، وكان راوية يحفظ ما لا يحصى من القصائد، ولا يحفظ حسبة أربع في أربع، فكان الناس يحتالون عليه، فترك تجارة العطر، ورحل إلى الموصل، فاشتغل فيها بصناعة الشعر، وألف كتابه (ظلال^(٣) الأيام) وهو أجمع كتاب لفقهِ الإمامية.

وأما ابن البيطار، فهو أعلم الناس بالنبات، وله فيه الكتاب المعروف بالمفردات، وكان أبوه بيطاراً في الميدان بدمشق، وكان رجلاً صالحاً يطر خيول المجاهدين حسبة بالمجان.

قال ابن الأنباري: والبطر الشق، ومنه البيطر والبيطار.

ثم عكف على العلم حتى صار يشار إليه بالبنان، ولقب بـ (بهجة الشام) وكان محاضراً نظاراً بليغاً وكانت له حلقة في (جامعة دمشق)^(٤) يقرئ فيها.

والبارودي منسوب إلى البارود، قال جالينوس: وهو تراب أسود يؤتى به

(١) قسطنطين زريق من أساتذة الجامعة الأمريكية ولوه مرة رئاسة جامعة دمشق.

(٢) الشاعر المعروف، وابن زريق شاعر قديم.

(٣) ديوان أنور العطار وقد كتبت أنا مقدمته.

(٤) الشيخ بهجة البيطار وكان يدرس في الجامعة.

من جزيرة في بحر الظلمات، فإذا مسته النار كان له دويٌّ كأنه صوت الرعد، وهو يوضع في قناة الريح، فينطلق من أعلاها ناراً محرقة ويقال لها البندقية.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان: وهذا من أكاذيب الأولين، ولا يقول به إلا من أخزاه الله وسلبه نعمة العقل، ولو كانت هذه القناة تقذف ناراً لأحرقتها هذه النار، وما البندقية إلا اللوزينج بلب البندق وقد أكلتها غير مرة.

قال عمر الحكيم^(١): وهذا كله باطل، والبندقية مدينة في بلاد الصين، كثيرة المطر دروها مغمورة أبداً بالماء، فمن أراد أن يعبر غاص في الماء إلى ركبته وفيها رجل يقال له جندل بفتح الجيم وضم الدال، يحمل الناس على عاتقه لثلاً يسهم الماء، قرأنا ذلك في كتاب الجغرافية للنظيم الموصلي^(٢).

قال أحمد بن أمين: وكان جندل هذا ممدحاً، ولمحمد بن الوهاب المغني المحدث قصيدة في مدحه غاية في الغثاء والثقل، يصفه فيها بأنه (ذهبي الشعر حلو اللفتات)^(٣).

قال الأصمعي: والصحيح أن البارودي منسوب إلى بلدة يقال لها: بارودة، نبغ من أهلها جماعة منهم فخر الدولة، وسروال الملة^(٤)، ومنهم محمود بن سامي البارودي، ومصطفى البارودي^(٥).

وكان فخر الدولة، وربما اختصر فليل له: الفخري والسراويلي زعيم الحرباء، وهي بلدة في غوطة دمشق، على يمين السالك إلى بحر (لوط) ثم انتخب لنيابة السلطنة في دمشق، فقال فيه ابن منير الطرابلسي، وكان خبيث اللسان، أرجوزة مطلعها: دمشق قد فاز الزعيم (فخري)!

قال أبو الفرج: وكان الفخري البارودي، بصيراً بالموسيقى، وله أصوات

(١) أستاذ الجغرافية في جامعة دمشق.

(٢) كان أستاذ للجغرافية.

(٣) شطر من قصيدة الجنود.

(٤) كانت مباسطة لفخري البارودي.

(٥) أستاذ في جامعة دمشق سابقاً.

فيها صنعة حسنة، اتصل ببيحيى بن أكنم، (قاضي قضاة المسلمين)، الذي قال فيه الشاعر: (متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها) فأقطعه الجربا، ولما أغار الإفرنج على الشام، يتقدمهم غورو الأعور، باعها وأنفق ثمنها في الجهاد، وكان كريماً.

وحدثني من أثق به أن الخياط كان يخيّط ثياب الجند، ويعيش من ذلك ثم ادعى الولاية، وأظهر الكرامات، من ذلك أنه ينظر إلى قدح الماء العذب الزلال، فيرى فيه آلاًفاً من العقارب الصغيرة ذوات الأيدي والأرجل والخراطيم، وقال إن اسمها الجراثيم، وإنها على صغرها تقتل الفيل، وجاءه بأنبوبة مسحورة، فمن نظر منها خيل إليه أنه يرى ذلك، فأنكر عليه العلماء، وصدّقه جماعة من الأحداث، وتبعوه وعظموه أشد التعظيم، ولقبوه (العليم)^(١). قال ابن الأثير في حوادث تلك السنة: ثم رفع أمره إلى السلطان، فلما ثبت ذلك عليه، أخرجه من دمشق، فابتنى لنفسه صومعة في رأس جبل قاسيون^(٢)، وبقي فيها حتى نبغ ولده (ابن الخياط) هيثم المشهور^(٣)، فـ (انتصر)^(٤) له فأعادوه وولوه الإقراء في المدرسة الجامعة.

قال ووجدت في كتاب (صناعات الأشراف) للزكي المحاسني الشاعر^(٥):

إن الحضري المؤرخ الأصولي، كان يبيع الخضر على باب الجامع الأزهر في مصر، تورعاً وتترهاً عن أموال السلاطين، والماوردي كان يصنع ماء الورد وبيعه، والخبز أرزي، كان يعمل الأرز ملفوفاً برقاق الخبز، وبيع الواحدة بدرهم، وأن الخصاف، كان يخصف نعال الحجاج في منى، والقفال كان يصنع أقفال الصناديق الحديدية للمصارف، وأن حسن البنا كان يبني البيوت، ثم تركها وأقبل على بناء النفوس^(٦).

(١) أعني الدكتور أحمد حمدي الخياط أستاذ أطباء دمشق وأول من فتح مخبراً للتحاليل، وقد عرب هو كلمة الدكتور فجعلها العليم.

(٢) وكانت داره أعلى دار في جبل قاسيون في دمشق.

(٣) الدكتور هيثم ولده، وهو أستاذ في كلية الطب وأحد نوابغ الشام.

(٤) الانتصار كتاب معروف لابن الخياط.

(٥) توفي رحمه الله.

(٦) رحمه الله.

— زرت صديقاً لي، من رفاق الصغر، فرأيت ولده منكباً على أوراق له، يفكر ويكتب، ثم يمزق ما كتب، ثم يعود إلى التفكير. فقلت لأبيه: ما له؟

قال: إنه مستغرق في (الإنشاء)

قلت: فيم يكتب؟

قال: في الموضوع الأزلي الذي لا يمل منه مدرسو الإنشاء، ولا يسأمون من ترديده.

قلت: ما هو؟

فضحك وقال: السؤال الذي يلقي في كل بلد، وفي كل وقت، لا يتبدل بتبدل الأمكنة ولا الأزمان. وهو: «ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟». . . وسكت لحظة. كأنه يتذكر. ثم قال لي:

— تذكر كم مرة سئلنا هذا السؤال في المدرسة؟

قلت: أذكر، لقد كتبت فيه مرات لست أحصيها. عشرين مرة؟ ثلاثين، أكثر من ذلك! وكنت في كل مرة أنطلق مع أحلامي أنجيل دروب الحياة وقد فرشت لي بالسجاد الذي تغوص فيه من لينه الأقدام. ثم رشت عليها العطور، ونثرت فوقها الورود والزهور.

لقد طالما تخيلت نفسي هائماً في رياض هذا المستقبل، أنشق رياً عطره،
وأجتلي جمال زهره، وأرتع في خيره المرجى وبره.

تصورت نفسي طبيباً له العيادة الكبيرة، والزبائن الكثر، وعشت في هذا
الحلم حتى تخيلت نفسي أرى «اللوحة» على بابي، وأمد يدي للمس «السماعة»
في عنقي.

وتصورت نفسي ضابطاً كبيراً، قد هبطت النجوم من سمائها حتى
استقرت على كتفيه، ونزل البرق حتى صار يخرج من قرع مهمازه.

وتصورت نفسي صاحب المزارع الواسعة الشاسعة. والحقول الممرعة
المزهرة، أفيق فيها مع العصافير لأتطلع إليها، أكحل العين في
الإصباح بمرآها.

وتصورت وتصورت، فأين مني الآن تلك التصورات؟

لقد أردت لنفسي، وأراد الله لي، فكان ما أراد الله لي،
لا ما أردت لنفسي.

كنت من شهور أقلب أوراقاً لي قديمة، أفتش فيها عن وثيقة أطلبها،
فوجدت (إيضالاً) هذا نص ما فيه:

المملكة المصرية

دار العلوم العليا

نادي التمثيل والموسيقى

غرة متسلسلة (٧٠)

وصل من حضرة العضو محمد علي الطنطاوي الطالب في دار العلوم العليا
مبلغ ١٠ فقط (عشرة قروش صاغ) قيمة اشتراكه عن شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩.

تحريراً في ١٥ أكتوبر ١٩٢٩

الخاتم الرسمي

أمين الصندوق

الأمضاء (محمد علي الضبع)

علي الطنطاوي عضو نادي التمثيل والموسيقى؟!!

وتصورت ماذا تكون خاتمة القصة التي بدأت بهذا الإيصال لو قدر لها أن تكتمل فصلاً.

إلى أين كان يصل بي ذلك الطريق الذي وضعت قدمي عليه، يوم صرت عضواً في هذا النادي لو أني تابعت السير فيه حتى بلغت آخره؟

كنت أبدأ ممثلاً في الكلية، ثم أعتلي خشبة المسرح، ثم أدخل فرقة من الفرق ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ باسم (يوسف وهبي) وتنتهي باسم (إسماعيل ياسين).

فيكون (علي الطنطاوي) اليوم ممثلاً عجوزاً^(١) متقاعداً، يتسكع على أبواب الحانات، ويعاشر القينات، ويسهر الليالي، وينام الأيام^(٢)، ويعود بلا صحة ولا مال، وربما عاد بلا دنيا ولا دين.

ولم يكن يحول بيني وبين هذه الغاية شيء. فالاستعداد لذلك في نفسي كبير والرغبة فيه شديدة، وكان يزين لي فأراه يومئذ حسناً، ولكن الله صرفني عنه.

وما كان ذلك بعمل مني. ولكن بصنع الله لي.

وفي أوراقني التي وجدت فيها هذا (الإيصال) شهادة مكتوبة بالخط الديواني ولها إطار مذهب الحواشي، وفي رأسها اسم وزارة الأوقاف، فيها قرار تعييني إماماً في جامع رستم في حي العقبة في دمشق.

أي والله، وتاريخها سنة ١٩٢٤. أي من اثنتين وأربعين سنة شمسية.

إني لأنظر إلى هذه الشهادة، وأرجع البصر إلى ذلك (الإيصال) الذي

(١) كلمة عجوز في الأصل للمرأة ولكنها عمت في الاستعمال.

(٢) اليوم في الأصل النهار.

اصفر لونه، وبل ورقه، وتمزقت طياته، فأرى عجباً. دونه والله ما يشطح إليه خيال القصاص.

من إمام جامع، إلى ممثل في (التياترو).

ولكن كيف دخلت نادي التمثيل والموسيقى؟

إني لأتأمل هذا (الإيصال)، فأعود إلى أيامي الماضية إلى سنة ١٣٤٧، وقد نلت شهادة البكالوريا كما كنا نسميها يومئذ، أو التوجيهية كما تسمى اليوم وكان الفرنسيون قد أنشأوها تلك السنة فحملتها وسافرت إلى مصر، فدخلت دار العلوم العليا، وانتسبت إلى الجامعة المصرية وكنت أول سوري يؤم مصر للدراسة العالية في غير الأزهر؛ وكنت أحرر في مجلتي خالي وأستاذي محب الدين الخطيب: المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي - وهي (الزهراء) والمجلة الدينية الأولى في العالم الإسلامي. وهي (الفتح).

وأعلنت عمادة الكلية (أو مديرية المدرسة كما كانت تسمى) عن تأليف ناد للتمثيل والموسيقى، ودعوا من يريد الاشتراك فيه إلى طلب الانتساب، فكنت فيمن أراد.

وجاؤونا برجل (ممثل) يعلمنا التمثيل قصير متحذلق لا أدري ما صنع الله به بعد هذه السنين التي قاربت الأربعين، ولا أزال أذكر اسمه، حفظته لغرابته - وإن كان مكان الأسماء من ذاكرتي قد كثرت فيه الخروق التي لا ترفع.

واختبرنا بجمل نلقياها إلقاء مسرحياً على أن نعبر عن معانيها بخلجات وجوهنا، ولهجات حروفنا وإشارات أيدينا - فلما جاءت النوبة إلي - وألقيت تلك الجمل دهش هو ومن كان معنا من الطلاب ورأوا شيئاً ما كانوا يتوقعونه وشهدوا بأن هذا الشامي... (ممثل جامد) أي ماهر، ونعوذ بالله من الجمود..

وما كانوا يتوقعونه مني، أما أنا فكنت أتوقعه من نفسي، لأنني كنت قد ألفت من تلاميذي في المدرسة الابتدائية التي كنت أعلم فيها في دمشق فرقة للتمثيل، وكنت أكتب لهم القصة، وأعلمهم تمثيلها، وكنت بارعاً في التمثيل.

وما أريد أن أفيض في سرد القصة، فلذلك كتاب عنوانه (ذكريات نصف قرن) كتبت منه كثيراً وبقي علي منه كثير.

ولكن أريد بيان العبرة من هذه القصة.

لقد اشتغلت بالتمثيل، واحترفت الصحافة، وغصت في السياسة، ولكن الله كان يوجه طريق سيرتي، فلم يختر لي من ذلك كله شيئاً.

لا، لا أقول (إن الإنسان مسير)، فإنها أضل مقالة قالها الإنسان، والإنسان مخير، أعطاه الله اليدين، فهو يستطيع أن يحركهما ليتصدق على السائل، وأن يحركهما ليضرب البريء، ومنحه الرجلين فهو يقدر أن يمشي بهما إلى المسجد ليصلي أو إلى الماخور ليفسق.

(جول سيمون) يرد علي من يدعي أنه مسير. فيقول له: سأرفع يدي بعد ثلاث دقائق. فهل تراهني على أنني لا أستطيع أن أرفع يدي؟.

ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في الكون، ولا أن يقرر لنفسه المصير.

الصخرة لا تتحرك، والسيارة تتحرك، فنحن لا ننكر حركة السيارة، ولا (حرية) سائقها في التوجه بها، ولكن ليس معنى هذا أن يخترق بها الجبل، ولا أن يمضي بها على وجه الماء، إن السيارة تمضي (بحرية) سائقها واختياره، ولكنها لا تمضي إلا على الطريق. وتسرع ولكنها لا تتجاوز في سرعتها الحد الأقصى الذي حدده (مصنعها) لسيرها.

وكذلك الإنسان، إن له حرية واختياراً، ولكنه لا يستطيع أن يسلك إلا الطريق الذي تشقه له الأقدار. وله مقدرة ولكنها في حدود المقدرة التي أعطاه الله للإنسان.

إنه كراكب الزورق في البحر، يوجهه حيث شاء، ولكن قد تضربه موجة عاتية فتحول وجهته من اليمين إلى الشمال، وكذلك تصنع الأيام، بزوارق الأحلام.

كنت في مصر، وقد رسمت طريقي، وحددت وجهي: أن أكمل الدراسة في دار العلوم، وأعمل في الصحافة، وإذا بموجة تلطم صدر زورقي، فتعيدني إلى دمشق، فأدخل فيها كلية الحقوق وأغامر في السياسة، وأقود الطلاب جميعاً في ساح النضال، وأحترف الصحافة، فأكتب في (فتى العرب) عند مؤلف (سيد قريش) وفي (ألف باء) عند باقة الصحافة في الشام. ثم أتولى التحرير الداخلي في الجريدة الوطنية الكبرى، التي أصدرتها الكتلة الوطنية رافعة لواء النضال للاستقلال.

وكان آخر ما أفكر أن أكون موظفاً.

أنا أكون موظفاً في ظل الانتداب؟ وإذا فرض ما لا يكون وقبلت التوظيف^(١) فلن أكون معلماً محترفاً حسبي أنني أعلم في المدارس الأهلية في دمشق (الأمينية - والكاملية - والجوهرية - والتجارية) من سنة ١٣٤٥هـ إي والله!

ولكن هذا الذي كان:

فقد كانت في سنة ١٩٣١ نكسة وطنية، بعد انتخابات (٢٠ كانون) أي ديسمبر، التي قاطعناها، وسيطر الفرنسيون. وعطلوا الجريدة التي كنت أعمل فيها. فقبلت أن أكون معلماً، لئلا أدع إخوتي بلا طعام.

وضربت موجة أخرى زورقي، حين آذاني الحاكمون فنقلوني في أقل من ثلاث سنوات، بين خمس من القرى، وآذيتهم بقلمي ولساني، فتركت الشام وسافرت إلى العراق.

وكان لي في العراق إخوان، وكان لي تلاميذ، منهم من صار رئيس جمهورية (رحمه الله وأبقى في الرئاسة أخاه)^(٢) ومنهم من لست أحصي ممن صاروا وزراء، وصار منهم كبار القضاة، والقادة والضباط ما كان أحلى أيامي في العراق، وسلام مني لا ينقضي على إخواني وتلاميذي في العراق.

(١) الوظيفة في الأصل بمعنى الراتب.

(٢) كان عبد الرحمن عارف رئيس جمهورية العراق لما كتبت هذا الفصل.

وصرفني موجة إلى لبنان، فعملت في بيروت سنة ١٩٣٧ وصار من تلاميذي فيها أساتذة في الجامعة، وناس من كبار الناشرين وأصحاب المجلات وصار منهم رئيس القضاء الشرعي، ومنهم الشاب العالم الصالح الذي سرنى وفرح قلبي، أن سمعت من أيام نبأ انتخابه بالإجماع مفتياً للبنان^(١).

وموجة أخرى، حولتني إلى القضاء، وما كنت أظن يوماً أن سألي القضاء، ثم عدت بعد أكثر من ربع قرن في القضاء، أمضيت نصفها في (محكمة النقض)، عدت بعد التقاعد، مدرساً في مكة المكرمة بجوار حرم الله. جرنى إلى هذا الكلام كله، موضوع الإنشاء.

فليفكر إخواننا المعلمون، حين يلقون هذا السؤال، فيما كانوا يجيبون عليه وهم طلاب.

هل كانوا يريدون أن يكونوا معلمين، أم كانت لهم غايات، طالما تطلعوا إليها. وحاولوا بلوغها؟

وأحلام كبار طالما كانوا يناجونها في خلواتهم، ويسامرونها في لياليهم ويحلمون بها في يقظاتهم.

وجهوا إليها زوارق حياتهم، وكل همهم أن يصلوا إليها، فجاءت موجة فضربت الزورق فحولت طريقه؟

أما أنا فقد رث زورقي وبلى من طول ما توجه يميناً وتوجه شمالاً، فمرّ بي على كل بلد فرأيت، وأطال بي الرحلة فذقت الخلو والمر، وعرفت المتع واللذات، والمتاعب والآلام، عرفت لذة المال، ومتعة الشهرة وحلاوة المنصب، وإعجاب الجماهير، ولو عدت تلميذاً الآن وسئلت هذا السؤال لقلت إنه لم يبق لي من الآمال إلا أمل واحد، هو أن يرزقني الله حسن الخاتمة وأن يخلفني في أهلي وبناتي، وأن يريني قبل موتي بياض يوم النصر للإسلام وأهله، بعد هذا الليل الذي امتدّ سواده وعمّ، أَللّهُمَّ آمين.

(١) هو الشيخ حسن خالد.

غدوت أكتب مقالاتي في جلسة واحدة، لا أصبر على الابتداء بتسويدها، ولا على الانتهاء إلى تحريرها. ولكن هذه المقالة شغلتنى ليالي وأياماً، أجمع لها الشواهد، وأتألف الشوارد، ففكرت فيمن أهديها إليه، فلم أجد أحق بها منك. لأنك ابن نجد، أبوك الشيخ عبد الله بن حسن قاضي قضائه، تشرف بلقائه والاقتراس من معينه منذ أكثر من ثلث قرن، وجدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب معجزة نجد، ومجدد الإسلام في هذا العصر.

وما كنت يوماً ممن يتزلف إلى وزير، أو يتصاغر أمام كبير، ولكن كنت ممن يقدر الفضل، ويكبر النبل.

فأنا أهديها إليك لفضلك ونبلك لأنك وزير المعارف.

ركبت القطار من خمس سنوات، من الرياض إلى الظهران، وكان يطوي بنا الأرض، والذهن يطوي بي العصور، أنظر من وراء البلور وأنا في مثل نشوة المخمور أقول: هذه نجد؟ فأين صباها وأين صباياها؟

أين الصبا الذي كان يهبط على قلوب الشعراء، فيذيقها من الحنين شعراً يترع البيد والحضر؟ أين الصبايا اللواتي خلدن في الأدب قصائد لا تغنى وإن فني العمر؟

كيف أوحى هذه التلال المقفرة، وهذه الرمال المتسعة بما لم توح بمثله جنات الشام، وأودية لبنان، حيث الظل والماء، والأيكه الغناء. والسواقي

تتحدر من القمم المعتمة بالثلج، تنكسر تحت عين الشمس، كأن في كل ساقية
مئة ألف حجر من غالي الألماس^(١)، ثم تخطر على السفوح الكاسية بأثواب
الزهر، العابقة برياً العطر؟

كيف كسوا تلك الصحاري من أدبهم ثوب الخلود، وقالوا فيها ما لم نقل
مثله وعندنا هذي الجنات.

الآن القوم كانوا أمة البيان، كانت لهم عيون تتبع الحسن، وقلوب تهيم
بالجمال، وألسنة تصف ما ترى العيون وتحس القلوب، فما لشعرائنا في
هذا الزمان!؟

وجعلت أعرض في ذهني ما قيل من الشعر في نجد، وياما أكثر ما قيل في
نجد من الشعر، وسبقت إلى ذاكرتي أبيات للشاعر الأموي، المتنبّي الصغير،
(الأبيوردي) وكنت قد أولعت بديوانه حيناً، وكتبت عنه في (الرسالة) من أربع
وثلاثين سنة، فشعرت به يتمثل لي، فكأنني أراه قاعداً أمامي في القطار. ومعه
صاحبان له، وكانوا يتهامسون وكأنه يحدثهما عن سؤالي أيامه في نجد، ثم رأيته
يبيكي ويدعوها أن ييكيا معه أيام نجد، لأنه لم يجد بعد نجد مثل نجد.

يسألها أيعينان هذا القلب المعمود، على بكاء تلك العهود، أم ينسيان
الود، وينقضان العهد؟

ويدعو عليهما إن هما لم يفيا - لا بالموت، بل بما هو شر من الموت، وهو
الآ تبصر عيونهما علمي نجد، ولا ترعى ركائبهما حاه:

هلم نبك على نجد وساكنه	فلن نرى بعد نجد عيشة رغدا
ودع هذيماً، فقد طاف السلوي	وعن قريب نراه يلتوي كمدا
أتخذلان فؤاداً شيقاً علقت	به الصباية إن أتهمتا حسدا
أم تنقضان عهداً كنت أبرمها	إن تنقضاهما فلا لقيتما رشدا
ولا رأت علمي نجد عيونكما	ولا رعى بالحمى نضواكما أبدا

(١) مفرد الماس ولامه أصلية فهو الألماس لا الماس.

فرايتهما يكيان معه، ويسعدانه على أحزانه، حتى إذا هدأ وهدهأ رأى شيئاً أثاره،
فنظرت فلم أر إلا شجيرات خضراء شديدة الاخضرار يمر عليها القطار فعرفت إنها
الغضى وإذا به يقول، يخاطب صاحبيه:

خليلي هذا ربع ليلي بذي الغضى سقى الله ليلي والغضى وسقاكما
فقد كنتما لي مسعدين على البكا فما لكما لا تسعدان أخاكما
أظل وحيداً لا أرى من أحبه وهل بالحمى لي من خليل سواكما
ولو غاب عني واحد منكما وهت قوى الصبر، لا أوهى الزمان قواكما
فكيف أدود الهَمَّ عني تجلداً إذا غبتما عن أرض نجد كلاكما
ومر القطار ولاح لنا على البعد جبلان، يلوحان على حواشي الأفق، تضيع
أعاليهما في ألق الأصيل وإذا بي أرى شيخاً جليلاً، قد دخل القطار لست أدري من أين
جاء، وراءه نفر تعلوهم مهابة ووقار، وإذا بالشيخ يرنو إلى الجبلين، ويكلمهما،
يسألهما ويناديهما كأنهما يسمعان النداء ويدركان السؤال، يقول:

يا جبلي نجد أبينا سقيتما متى زالت الأظعان، يا جبلان
أناديكما شوقاً، وأعلم أنه وإن طال رجع القول لا تعيان
وسكت ساعة حتى غابت الشمس وظهر الليل، فعاد يقول:

أقول وقد مد الظلام رواقه وألقى على هام الربا بجران
نشدتكما أن تضرراني هنية لعلني أرى النار التي تريان
قفا صاحبي اليوم أسأل ساعة ولا ترجعا سمعي بغير بيان:
هل الربع بعد الظاعنين كمهده وهل راجع فيه عليّ زماني
فعلمت أنه سيد شعراء الغزل صاحب الحجازيات، أمير العشاق الشريف
الرضي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا قائم إليه أحبيه وأبته قديم حبي له، وإكباري
إياه. وإني كتبت عنه صفحات هي الشعر وإن توزن بميزان الخليل، فأنس بي
وجعل يحدثنني وقد سكرت من حديثه، كأن في فيه الخمر، وفي كلامه السحر،
ولحظ ذلك مني، فجعل يهزني، ويناديني فصحت وقلت:

— نعم؟

— قال: أما تحس نسيم الشيخ من نجد؟

فنظرت فإذا أنا قد رددت إلى حاضري، فلا أشم إلا هواء القطار
(المكيف)، فسكتُ. فلوى وجهه عني وهو يقول:
ولقد أقول لصاحب نَبْهته فوق الرحالة والمطيّ رواقِي
مع أننا كنا في قطار (الديزل) لا في قطار الأبل.

أوشممت بذِي الأبارق نفحة خلصت إلى كبد الفتى المشتاق
فجنى نسيم الشيخ من نجد له حرق الحشا وتحلب الآماق
آها على نفخات نجد إنها رسل الهوى وأدلة الأشواق
ثم أطرق، وجعل يحرك شفّتيه يناجي ذكريات له بعيداً مداها، فقلت له مباشطاً:
— أين أنتم يا مولانا؟ قال:

كأنا بنجد غداة الوداع نصادي عيوناً من الدمع رمداً
وأيسر مانال منا الغليل ألا نحس من الماء برداً
وغلبه الحنين، فتركته، فوقف إلى نافذة القطار، ينظر في سواد الليل، وأطلق نفساً
طويلاً، خلّت أضلاعه تقطعت منه، وهمس للريح بشيء، فدنوت فأصغيت، فإذا هو
يسأل الريح إن هي لم تحمل إليه حبيبه ليشم عبقه، أن تحمل نفسه هو إلى حبيبه،
وإذا هي إحدى روائعه التي يقول فيها:

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى فلاقي به ليلاً نسيم ربنا نجد
فإن بذاك الحي إلفاً عهدته وبالرغم مني أن يطول به عهدي
ولولا تداوي القلب من ألم الجوى بذكر تلاقينا قضيت من الوجد
ولكنه لا يشفى ولو تداوى، لأن المرض يتجدد له كلما رأى متألماً،
أو سمع شاكياً:

وإني لمجلوب لي الشوق كلما تنفس شاكٍ أو تألم ذو وجدٍ

ورثيت له لهذا الداء، الذي يستعصي على الدواء، وسألته ما سببه؟ فقال، إن سببه

شم الشيخ في نجد:

شممت بنجد شريحة حاجرية فأمطرتها دمعي وأفرشتها خدي
قلت: لماذا شممتها يا مولانا، إنما يشم مثلك الورد والفل لا يشم
الشيخ والقيصوم؟

قال: ذكرت بها ريا الحبيب على النوى.

قلت: وهل وجدت فيها مشابه من ريح الحبيب؟

قال: وهيهات ذا يا بعد بينها عندي.

وأقبل رجل (ديلمي) يتشبه بالسيد القرشي، يقلده في حركاته وإنشاده
و(يا بعد بينها) فالشيخ الشريف يصدر عن طبع، وهذا عن صناعة، وذاك
نبيل وهذا يتنبل.

وليس التكحل في العين كالكحل

ووقف يصرخ كأنه يخطب في أهل نجد:

يا أهل نجد كيف بالغور بعدكم بكاء تهامي يهيم بمنجد
ملكتم عزيزاً رقه فتعطفوا على منكر للذل لم يتعود
أغدرأ وفيكم ذمة عربية وبخلأ، ومنكم يستفاد ندى اليد
ثم انتقل من الصراخ إلى النحيب، وابتدعه القوم يلومونه، ويأخذون عليه بكاءه
ويتهمونه في حبه، فقال:

دعوني فلي إن زمت العيس وقفة أعلم فيها الصخر كيف يلين
وخلوا دموعي أويقال، نعم، بكى وزفرة صدر أويقال حزين
فلولا غليل الشوق أودمعة النوى لما خلقت لي أضلع وجفون
وفي الركب إني أنجد الركب حاجة أجل اسمها أن تقتضى وأصون
وعوذني عرأف نجد بذكرها فأعلمني أن الغرام جنون

وكانت مقطوعة من مطبوع الشعر، سما فيها فوق أفقه، وعلا فيها عن عادته فأعجبوا بها وطلبوا لها ولكن رجلاً غريباً قام كالخائف المذعور، وقال، أسرعوا ويحكم واهربوا العجل . العجل .

فدعروا - قالوا: ومم الهرب؟

- قال: من الوباء، إن في هذه الأرض مرضاً، ينبت فيها كما ينبت العشب هو مرض الحب النابت في القلب وكم من صحيح خلّي الفؤاد، نزلها مصباحاً معافى فلم يمس عليه المساء حتى عراه الداء فصارت له ليلي يهتف باسمها، أولبني بهيم بحبها:

النجاء النجاء من أرض نجد	قبل أن يعلق الفؤاد بوجود
إن ذاك الثرى لينبت شوقاً	في حشا ميّت اللبانات صلد
كم خلّي غدا إليه وأمسى	وهو يهذي بعلوة أوبهني
بحديث إذا سمعناه لم ند	ر بخمر فضحتنا أم بشهد
أنفت من براقع الخز والقز	قد برقعوها بورد
أمقاماً بعالج والمطايا	عرض يرين بالظعائن تخدي
لا الحمى بعدكم متاح ولا	ماء اللوى إذ هجرتموه بورد

قالوا أنت يا (صردر) تدعى الشوق بلا دليل، فقال:

ما تريدون من دلائل شوقي غير هذا الذي أجن وأبدي

ورأيت أعرابياً (لا يعرف اسمه أحد) يثب إليه، وقد أغضبه أن يقول
شاعر أن في نجد داء يفر منه الأصحاء. وانطلق يدفع عن نجد، فقال:

فيا حبذا نجد وطيب ترابه إذا هضبت به بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تسمت ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه
وأشهد لا أنساء ما عشت ساعة وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعة بذكره حتى يترك الماء شاربـه

ومثلت إلى جنبه بدوية، عرفت معها كيف تسرق الغيد عيون الغزلان،
وكيف تمس بغصن بان، وعذرت أحد لما ادعى أن:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
فانعقدت لمراها الألسنة، وتعلقت بها الأنظار، وقالت كلاماً طويلاً
ما (حفظوا) منه إلا هذا البيت:

الام على نجد ومن يك ذا هوى يهتجه بعد السلو مرابعه
ونسي (التهامي) مصابه بولده الذي أبقى ذكره في الأدب بتلك المراثية
الرائية التي كانت في الشعر مثل المعجزات وتعلق بهذه الشاعرة البدوية الحسنة
فناداها فدناها وتمایل العنقان، وتقارب الرأسان، وأحسست أنها يتساقيان ما بقي
في كأسيهما من خمر غرام قديم - حتى ذهبت فلاموه عليها فقال:

أهتز عند تمنى وصلها طرباً ورب أمنية أحلى من الظفر
صحيح والله أن أحلام الوصال، ألد من الوصال ولا يعرف هذا إلا من
جربه:

تجني عليّ وأجني من مراشفها ففي الجنى والجنايات انقضى عمري
أهدى لنا طيفها نجداً وساكنها حتى اقتنصنا ظباء البدو في الحضر

يريد أن الظبية قد صيدت في القطار!

وكان في القوم رجل ساهم واجم، تشغل ذهنه معضلة لا يعرف حلها
فكلما تكلم متكلم أو أنشد منشد. جذبه من كفه وسأله عنها، عن (الحمام
الورق):

أنظن الورق في الأيك تغني؟

فإذا أخبره أنها تغني، عجب من جهله، وأعلمه أنها لا تغني (أنها تضر
حزناً مثل حزني) فإذا لم يجبه دعا عليه:

لا أراك الله نجداً بعدها أيها الحادي بها إن لم تجبني
ثم يخلو إلى ذكرياته، فيناجي سؤال في الحجاز:

يا زمان الخيف هل من عودة يسمح الدهر بها من بعد ضنّ
أرضينا بثنّيات اللوى عن (زرود): يا لها صفقة غبن
سل أراك الجذع هل جادت به مزنة روت ثراها مثل جفني
وأحاديث الغضى، هل علمت أنها تملك قلبي قبل أذني

وأهاجته الذكرى، فصاح، والتبط به، فقال القوم قد جن، (ابن سنان
الخفاجي) قد جن فقال - ابن الخياط - أنا أدأويه، لأنّي أعرف مرضه، إنه
ما أطار له إلا صبا نجد، وإني مداويه بالتي كانت هي الدواء، فمن يجرّعه
الدواء؟.

فقام اثنان من الشعراء. فقال لهما، إن الدواء خطر وإني أخاف أن يشفيه
ويعرضكما.

قالا: ما عليك منا فهاته، فقال:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد ربّاه يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه إذا هبّ كان الوجد أيسر خطبه

فقالا - وما الوجد؟ ومتى كان الوجد خطباً؟ فرثى لهما من جهلهما وقال لهما:

خليلي لو أحبيتما لعلمتما محلّ الهوى من مغرم القلب صبه
قال له رجل: أنا لا أعرف ما الحب، فقل لي كيف أحب؟
قال:

تذكر فذوالذكرى يشوق وذو الهوى يتوق، ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
وفي الركب مطوي الضلع على هوى متى يدعه داعي الغرام يلبّه

ولما هب صبا نجد تداوى به الشاعر المصروع، ولكن صرع الشاعر
العاشق - ابن الدمينه - وراح يسائل الصبا:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
ثم تراجع واستحيى وقال لنفسه يؤنبها:

أئن هتفت ورفاء في رونق الضحى على عُصن غصّ النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي

فصاحوا به: لماذا التشوق إلى نجد وأنت في نجد، أفما يشفيك القرب،
من لوعة الحب قال:

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملّ وأن البعد يشفي من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذئ ود

وقام الأرجاني: يسأل: أجااء النسيم، أنقولون إنه جاء ركب النسيم،
أي:

إذا ما سرى ركب النسيم اعترضته
 فيا ليل نجد ما صباحك عائداً
 لأخبار من أحبته متنسماً
 ولكن من بالغور وهناً تبسماً
 فصاح به - الطغرائي - :

أجذك ما تنفك بالغور ناشدا
 تمادى غرام ليس يجري إلى مدى
 فؤاداً بنجد يا لقلبك من نجد
 وفرط سقام لا يقيم على حد
 أقول لأنضاء الغرام عشية
 بيمصرى وأنضاء المطي بنا تخدي
 أقيموا صدور العيس واستخبروا الصبا
 عن الحي بالجرعاء: ما فعلوا بعدي
 وما طاب نشر الريح إلا وعندها
 أخابير من نجد وعن ساكني نجد
 فصاحوا به: كلنا عاشق فلم تخص بالذكر نفسك؟
 قال:

تظنون حالي في الهوى مثل حالكم
 وهيهات أني في الهوى أمة وحدي
 قال ابن الخياط: أما أنا:

فلست على وجدي بأول عاشق
 أصابت سهام الحب حبة قلبه
 وكان في القطار (أعرابي) لا يزال يتلفت إلى الوراء... يحاول أن يخترق
 بنظره حجب الليل، فقالوا له: ما لك وما الذي تحاول أن تراه؟ فقال:
 أكرر طرفي نحو نجد وإني إليه وإن لم يدرك الطرف أنظر
 حيناً إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت، عود ومسك وعنبر
 قالوا له: ولكنك لا ترجع من النظرة بطائل فقد اسودّ الليل وغابت
 المشاهد. فقال:

وما نظري من نحو نجد بنافع
 أجل لا ولكني - على ذاك - أنظر
 وطال السفر، ونام في المقاعد أكثر الشعراء، وبقي واحد قاعداً لا ينام
 فدنوت فقلت له: ما لك لا تهجع كما هجعوا.

فأخبرني أنه يغار على حبيبته، يخاف إذا نام أن يزوره طيفها، فيراه من معه من أهل نجد:

وأشفق من طيف الخيال إذا سرى مخافة أن يدري به ساكنو نجد
قلت: وما بلغ من حبك إياها؟

فزفر زفرة زلزلت قلبه: وأعرض عني كأنه نسيني وجعل يخاطبها يقول:
ومن فرط إشفاعي عليك يسرني سلوك عني خوف أن تجدي وجدني
وأرضى بأن تفديك نفسي من الردى ولكنني أخشى بكاءك من بعدي
قلت له: هذا عظيم، هذا الذي أراده الشعراء، فأخطأه أكثرهم. فحاموا
ولم يلجوا ومشوا ولم يصلوا. قال:

مذاهب شتى للمحبين في الهوى ولي مذهب فيهم أقول به وحدي
وكان الشريف متيقظاً يسمع، فضحك
— فقلت: وما يضحك مولانا؟

— قال: كل يدعي أن له مذهباً في الهوى وأنه إمام في شرعة الحب.
وما شرب العشاق إلا بقتني وما وردوا في الحب إلا على وردني
وشغلنا عما كنا فيه (أعرابي) غيره، رأيناه من وراء الزجاج، يعدو جملاً
مهرباً يخب به في الرمل، يحاول أن يسابق القطار. فعلمنا أنه ضال يسألنا عن
الطريق، وأصغينا فسمعناه ينادي:
أصاح، ألا هل من سبيل إلى نجد وريح الخزامى غضة من ثرى جعد
وهل لليالينا بذى الرمث رجعة فنشفي جوى الأحزان من لاعج الوجد
فتألمته فعرفته وإذا به (الطرماح) فحيته وقلت:

— أما الطريق إلى نجد فهذه يا صديقي نجد، هذي روايبها وهذا
نسيمها، وأما الليالي الماضية فهيهات أن تجد السبيل إلى أن تعود إليها،

أو تعود بها إليك، لا يرجع الماضي ولا يكشف المستقبل فاقنع بما أنت فيه
فان:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها
قال: وكأنه يقول لنفسه: لا والله ما فات ولكن دُونَ في كتاب لا يدع
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فنسأل الله العفو عما مضى، والستر فيما هو آت.
ولوى عنق بعيره وولى وعيناه تنديان من الدمع.

وسمعت من يذكر ابن نباته، فقلت أي الثلاثة هو؟ الشاعر أم الخطيب.
أم المتأخر عنهما في زمانه وفي لسانه؟

قالوا: هذا ابن نباته الكبير. كان شاعراً ولكن قربه من صاحبكم النبيي
كسف نوره كما كسف أنوار جماعة من الفحول.

فظنرت فإذا رجل عليه هيبة، ينظر بعيداً ثم تبرق عيناه ويفترّ ثغره عن
ابتسامة ويقول: لقد أقبلوا.

قالوا: من هم. قال: وفد الشعراء،

حبذا القادمون من طرف الحزن ونجد منهم على ميعاد...

تلقاهم بنشر الخزامى نفحات تشفى عليل الفؤاد

وامتلاً المكان بالوافدين. واختلطت الأصوات وسمعت اسم - المجنون -

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

فكان ابن الملوح سيد المجانين، لأنه كان سيد العشاق ثم ميزت صوته
يقول:

لطول التناهي هل تغيرتا بعدي	ألا ليت شعري من عوازضتي قنا
على عهدنا أم لم تدوما على العهد	وهل جارتانا بالبئيل إلى الحمى
بريح الخزامى، هل تهب إلى نجد	وعن غُلُوبات الرياح إذا جرت
إذا هو أمسى ليلة بشرى جعد	وعن أقحوان الرمل ما هو فاعل

فقالوا: مجنون يخلط بين نجد وفبا وما أبعد فبا من نجد.

فزجرهم عنه - التهامي - وقال له :

اسفح بنجد ماء عينيك إنها للعامرية كل أرض دارُ

وعاد التهامي يقول لنفسه يذكر موقف وداع صاحباته وضماً ورشفاً . . .

لم أدر إذ ودعني أمقبّل لحلاوة في الريق أم مشتارُ

البسني سربال ضم ماله إلا رؤوس نهودها أزرار

قالوا: نسأل الله السلامة . . . من هذه الأزرار.

وعزى نفسه الطغرائي أن هذا يصف الدواع الذي مضى وهو يأمل اللقاء

الذي يأتي حين تستقر به الإقامة في نجد.

ياحبذا نجد وأعراق الثرى لذن وأنفاس الربيع رفاقُ

فهواؤه خصر النسيم وتربه حالي الأديم وماؤه رقرار

ولساكنيه إن استقر بنا النوى تشفى النفوس وتمسك الأرماق

واختلطت الأصوات ولم أعد أتبين إلا أبياتاً من مقطوعات، كلها في

نجد. هذا أبو تمام أستاذ الشعراء جميعاً. - لا أستثني المتنبي - يقول :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وهذا شيخ الشعراء الإسلاميين جرير يقول :

أحب ثرى نجد وفي الغور حاجة فغار الهوى يا عبد قيس وأنجدا

وهذا يقول :

سقى الله نجداً والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد

وهذا هو الطرمّاح يهتف بنجد وينسى أنه في نجد :

أصاح الأهل من سبيل إلى نجد وريح الخزامى غضة من ثرى جعد

وهل لليالينا بذى الرمث مرجع فيشفى جوى الأحزان من لاعج الوجد

وكان في القوم رجل جاء من بعيد بعيد من وراء البحر العريض ليقوم في
مهرجان نجد فيلقي فيه - كلمة الأندلس - قال ابن خفاجة:

يا ليل وجد ينحد أما لطيفك مسرى
وما لدمعي طليقاً وأنجم الجو أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير المجرة جسرا

وتغنى بها بنفحة من ألحان زرياب فأشجى من حضر... وذكر كل من
أيامه ما غبر وقام (سبط ابن التعاويذي). يبكي ويسأل رفيقه أن يستعيرا عينين
يبكيان بها.

ونسى قول عبقرى الغزل إذ يقول: (أرأيت عيناً للدموع تعار).

قال: يا رفيقي هل لذهاب أيام تقضت حميدة من مرد.

أنجداني بوقفة في مغاني الحمى أن جزتما بأعلام نجد
وابكيها بمقلتي واسألاها من سقاها ماء المدامع بعدي
فقلت له: ويحك، تسرق شعر مولانا الشريف، هذا البيت شريفي فأعذه
لصاحبه ولم يرد علي، ولم يرد صاحباه عليه، وكان القطار قد تباطأ في سفره ودنا
من غايته. فهما بالنزول فوثب الصمة بن عبد الله القشيري بمسك بهما ويقول
لهما: قفا أتنزلان لا تودعان نجداً، إن نجداً يستحق منكما أكثر من الوداع.

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا
وسمعنا من بعيد صوتاً حزيناً يتغنى (أغنية الوداع).

تزود من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فقال أحد الحاضرين منزل العامرية بشرقي نجد وما بلغناها، فصاح
المجنون:

لا تقل دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار

من تاريخ الماضي القريب : رقم مكسور

لا، لا تظنوه (رمزاً)، ولا تتعبوا أنفسكم في تفسيره فما كنت قط من كتاب (الرمزية)، ولا ملت يوماً إليها وما هو إلا (رقم مكسور) حقيقة، في التقويم المعلق في داري، نظر إليها صبي صغير: ابن أحد أصدقائي، وقد سأله عن السنة الجديدة، فقال أنها سنة ١٩١٨.

ذلك أن رقم السنة قد كسر رأسه، فصارت السنة واحداً.

قطعة طولها ثلاثة معيشيرات^(١) ولكنها ردتني إلى الوراء خمسين سنة.

وجدت نفسي مشدوداً إلى الماضي، على الرغم مني... لم أعد أستطيع أن أفكر في غير سنة ١٩١٨ لأن صورها طغت على نفسي، حتى أنستني الموضوع الذي كنت أفكر فيه، لأكتب فيه مقالة المجلة...

فأفتني، يا أخي الأستاذ العامودي، هل أدع الكتابة في هذا العدد، أم أسرد على القراء ذكريات ١٩١٨م؟

وما للقراء وذكرياتي؟ وليست مجلة الحج مجلة أدبية، وما أعدت لنشر الذكريات؟

(١) العشار ساني متر، والمعشير (مصغره) ميليمتر.

ما عندي اليوم إلا هذا الموضوع، فإما أن تتكرم بنشره وإما أن تعفيني من
الكتابة في هذا العدد من المجلة.

والأمر لك، يا أخي الأستاذ السعيد!

* * *

قطعة من الرقم بحجم رأس الدبوس، ولكنها ردتني إلى ما قبل خمسين
سنة، وما خمسون سنة بالزمن الطويل. ولكن هذه السنين الخمسين قد بدلت في
حياتنا كل شيء.

إني عندما أذكر كيف كنا سنة ١٩١٨م وأرى كيف صرنا سنة ١٩٦٨م
لا أكاد أصدق أنني يقظان، وأفرك عيني أحسب أنني نائم، وأن الذي أراه رؤيا
منام!

لقد تبدلت الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، وما كنا نظنه من
المستحيلات صار حقيقة واقعة.

وما لي أعمد إلى التعميم قبل التخصيص، والفلسفة قبل القصة، وأنسى
أني أدون ذكريات تلميذ، لا أسرد تاريخ عصر...

لقد كنت سنة ١٩١٨م تلميذاً، وعندي وثيقة محفوظة فيها درجاتي
المدرسية لتلك السنة، وكنا لا نزال في دمشق في ظلال الحكم التركي.

وكانت الحرب في نهايتها، ولكنني لا أعرف منها إلا ما يعرفه تلميذ يقيم في
بلد بعيد عن الحرب وأهواله، وإن لم يكن بعيداً عن آثار الحرب.

كنا نرى آثارها في الطرق الخالية من الرجال، لأن الرجال سيقوا كرهاً إلى
معركة كانوا يحسون أن ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، وأنها ليست جهاداً في سبيل
الله، ولا دفاعاً واجباً عن الأرض ولا عن العرض، لذلك كانوا يفرون منها،
وكان الضابط الموكل بالفرار، الذي كنا ندعوه بـ (أبي لباد) لأنه يلبس قلنسوة
طويلة من اللباد يمسك بكل شاب يراه (إذا هورأى شاباً) يسأله: (نرده وثيقة؟)
أين وثيقتك؟ فإذا لم يبرز وثيقة الإعفاء من الخدمة العسكرية، أو الإجازة

المعتادة، أمر بسحبه إلى مقر التجنيد، وكنا نسميه (السوقيات) وكان على طريق المدرسة.

فكنا نرى المقبوض عليهم بالعشرات، غمر بهم كل يوم، كما غمر بالجائعين المدين على جوانب الطرق، والذين يبحثون في أكوام القمامة عن شيء يأكلونه - وكان هذا من المناظر المألوفة!

وكان الخبز من النوادر، والأفران مغلقة الأبواب، ما فيها إلا كوة صغيرة، يزدحم عليها الناس ليأخذوا أرغفة من الخبز الأسود.

وما ذلك إلا لأن الترك أخذوا قمح الشام إلى حلفائهم الألمان، وتركوا أهل الشام، كما تركوا جنودهم في الميدان بلا طعام.

وزاد البلاء، ورود الجراد، وإني لأذكر صبيحة إعلان الحرب سنة ١٩١٤م وقد تغطت سماء المدرسة بالجراد تغطت حقيقة والله، كأن أرجل الجراد سحابة مطبقة، لا أقولها مجازاً، وكانت سحابة واطية قريبة، حتى كان الجراد يتساقط على الأرض!

جراد كنس الحقول، وقضى على كل شيء مر عليه... كانت أيام بلاء وشقاء، ولكننا كنا نهتف في المدرسة كل صباح (باديشاهم جوق يشا) أي أطال الله عمر السلطان!

كانت أناشيدنا باللغة التركية، وكان من المدرسين من يدرسنا باللغة التركية، حتى النحو: القواعد العربية كنا نتعلمه باللغة التركية، فإذا سألنا المدرس ما هو الفاعل؟ مثلاً، قال: (فاعل نه در)؟

وكان اسم جمال باشا، يدخل الرعب إلى قلوبنا نحن الصغار حتى أن معلماً في المدرسة أشاع أنه نسيب جمال باشا، فكنا نموت من الخوف إذا دخل علينا.

هذا كل ما كنا نعرفه عن الحرب.

ومن أين نعرف أكثر منه وما كان في البلد، بل لم يكن في الدنيا كلها إذاعات، وما كان عندنا جرائد، أو ما كنا نعرف نحن التلاميذ، وما كان يعرف جمهور الناس ما الجرائد وكانت دمشق في عزلة، كانت منظوية على نفسها.

لم يكن في الألف من أهلها واحد يستطيع أن يعد أساء خمس دول أوروية، لم تكن نعرف شيئاً من مخترعاتها، لما جاءتنا أول سيارة سنة ١٩١٥م أو ١٩١٦م لم أعد أذكر سيارة فورد، من ذوات الرفارف والدواليب الدقيقة والسقف مصنوع من القماش خرج الناس كلهم ليروها، ليروا هذه الأعجوبة: عربة تمشي بلا خيل تجرها فلما وصلت فزعوا منها، وابتعدوا عنها.

لم يكن في دمشق إلا عشرون داراً فيها الكهرباء... لم يكن فيها شارع واحد، وأول شارع فيها هو الذي فتحه جمال باشا سنة ١٩١٦م أذكر ذلك، ولا يزال يحمل عند الناس اسمه إلى الآن.

كنا نقرأ في المدرسة، الجغرافية، ولكن العلماء كانوا يبحثون في حلقاتهم عن حكم قراءة الجغرافية، هل هو الإباحة أو المنع؟

وكان ثلاثة أرباع الناس، بل أكثر، يعتقدون أن الأرض مسطحة، ويكفرون من يقول بكرويتها، مع أن المسلمين عرفوا أنها كروية، بل هم قد قاسوا محيط الأرض، وعرفوا طول خط الإستواء، قبل ألف ومئتي سنة، والرقم الذي وصلوا إليه لا يختلف عن الرقم المعترف به اليوم علمياً، إلا واحداً في الألف.

تقدمت الأمم وتأخرنا. وتعلمت وجعلنا، حتى انتهينا سنة ١٩١٨م على عهد العثمانيين إلى جهالة مطبقة بالدنيا وأهلها.

ولست أعني أن حكم العثمانيين كان شراً، ولست مع هؤلاء المغفلين الجاهلين، الذين يقولون (الاستعمار العثماني) كما يقولون (الاستعمار الفرنسي) و (الاستعمار الإنكليزي).

فلقد كان العثمانيون الأولون، ملوكاً مسلمين، رفعوا راية الدين، وفتحوا

لها ربيع أوروبا، وأقاموا للإسلام دولة كانت ثلاثة الدولتين الكبيرتين، دولة أمية ودولة العباس وكان منهم ملوك عظام، كالفاتح والقانوني (سليمان).

ولكن خلف من بعدهم خلف، كانوا شراً علينا وعلى قومهم هم الاتحاديون، بل لقد بدأ الفساد من عهد السلطان محمود، الذي أخذ قوانين أوروبا، وترك أحكام الشرع، دفعه إلى ذلك ضغط الكفار وجهود أذهان العلماء وعجزهم (كما يقول ابن القيم في مثل هذه الحال) عن استنباط الأحكام من أدلة الإسلام.

الاتحاديون الذين شوهوا اسم السلطان عبد الحميد وقد تبين اليوم براءته من أكثر ما اتهموه به، والذين انهزموا أمام دول البلقان، التي كانت تخضع للسلطين من آل عثمان، والذين أقحموا الدولة في حرب ما لها فيها مصلحة، فقصوا عليها هؤلاء الذين منهم جمال باشا، هم الذين أسأؤوا إلينا، وإلى الترك على السواء.

وأصبحنا يوماً من سنة ١٩١٨م وإذا في البلد رجة وما كانت تعرف بلدنا الرجات، وإذا نحن نرى لأول مرة (المظاهرات) وما كنا نعرف إلا (العرضات) وإذا نحن نسمع هتافاً، لا كهتاف (باديشاهم جوق بشا) بل هو هتاف جديد (ليحي الاستقلال العربي).

ورأينا الناس فرحين، ففرحنا معهم، لا لأننا عرفنا سر فرحهم، بل لأن مدرستنا التركية، قد أغلقت وسرحنا منها فلذلك فرحنا.

وسمعنا الناس يقولون: جاء الشريف وانقضى حكم الأتراك فقلنا: من الشريف؟ قالوا: فيصل بن الحسين منقذ العرب ومحررهم، وقائد نهضتهم.

ولم نكن نعرف ما صنع منقذ العرب، ولا ندري ما هذه (النهضة العربية) التي يتحدثون عنها فعمشنا حتى عرفنا ودرينا.

كم رأينا بعد، وكم شاهدنا: رأينا ولادة الاستقلال وموته في ميسلون، ودخول غورو، وثورة سنة ١٩٢٥ التي دامت سنتين، قهرنا فيها فرنسا التي غلبت الامبراطور غليوم، غلبها منا مئات من الثوار، وشهدنا بعث الاستقلال

سنة ١٩٣٦، والانقلابات التي بدأها حسني الزعيم ولما كتته بعد، ولا يعلم أحد متى تنتهي، والوحدة والانفصال.

كم شاهدنا من دول قامت ثم زالت، وعهود كانت ثم انقضت وناس كانوا على كراسي الحكم في (السراي) ثم صاروا على حصير السجن أو على أعواد المشانق.

أدركنا عهد الترك، وعهد الشريف، وعهد الفرنسيين، وعهد الاستقلال، وعهد الوحدة، وما عهد منها إلا بكينا فيه منه، وبكينا بعده عليه، الناس يقرأون التاريخ ولكننا عشنا نحن في التاريخ. لم نطل عليه من نوافذ المناهج المدرسية، بل كنا فيه من داخل، الأساتذة والمؤرخون الذين يكتبون التاريخ، يقعدون مع المشاهدين وكنا نحن على المسرح مع الممثلين.

يقولون أن الدهر دولاب يدور أبداً، يرفع ويضع، ويعلي وينزل ولكنه كان يدور ببطء عقرب الساعة، فصار يدور بسرعة مراوح الطائرة.

لقد تبدلت الأحوال، وتغير المجتمع، في هذه السنين الخمسين، أضعاف أضعاف ما تبدلت في القرون الخمسة الماضية.

كنت ألفت قصة خيالية مطبوعة من أربعين سنة عنوانها (دمشق بعد تسعين سنة) وصفت فيها أبعد ما وصل إليه خيالي، فما بلغت بالخيال يومئذ عشر ما وقع الآن.

والحديث طويل طويل، وإذا قدر الله أن يتم كتابي الكبير (ذكريات نصف قرن) قرأتموه، كما أرجو أن يوفقني الله إلى إكمال كتاب (تعريف عام بدين الإسلام).

يقولون إن امرأ القيس كان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى، وأنا صانع اليوم مثل ما صنع امرؤ القيس.

ولكن امرأ القيس استوقف أصحابه، فوقفوا له مطيهم. يقولون: (لا تهلك أسىً وتجمل)، واستوقفت أنا (سيارة القصاع) لتنتظرنى حتى أقف بالأطلال، فما التفتت (سيارة القصاع) إليّ ولا ردت عليّ.

وكان وقوفه على (سقط اللوى)، ألا تعرفون ما سقط اللوى، إنه (بين الدّخول وخومل)؛ ثلاثة أسماء ما زالت تجري على كل لسان، وتقرع كل سمع، من ألف وخمسمئة سنة إلى اليوم، وما عرف أحد قط، ما هي (*)، ولا أين تكون؛ ووقفت أنا على أطلال ماثلة في قلب دمشق، وفي أكبر سوحها.

ووقف امرؤ القيس ليكي ذكر الغرام، ووقفت لأعرض صور الماضي، وأعتبر بأحداث الليالي.

* * *

(*) حددها كلها الشيخ ابن بلهيد رحمه الله في كتابه (صحيح الأخبار) هو مطبوع.

صليت العصر أمس في جامع يلبغا^(١) وخرجت أنتظر سيارة القصاص،
فسلم علي صديق لي، وأشار إلى بقايا الغرف في شمالي المسجد، وسألني:
ماهي؟ فحرك بهذا السؤال سواكن ذكرياتي، وردني إلى مواضي أيامي، فرجعت
أدراجي ثلاثاً وأربعين سنة، حتى عدت تلميذاً في هذه المدرسة، وجعلت
أستعيد صور حياتي فيها، وأتذكر أساتذتي ورفاقي...

... وأين رفاقي؟ أين؟ لقد تشعبت بهم سبل الحياة، وضربهم موج
جُتَها فرفع ناساً، وخفض ناساً، وأغرق آخرين.

كانوا متجاورين في المدرسة على مقعد واحد، فاختلفت في الحياة
مقاعدهم. فجلس هذا على سدة الحكم، وذلك على كرسي الحاجب على بابه،
وصار هذا هو القاضي، ورفيقه هو المتهم الذي يقوم بين يديه، وغدا هذا من
أرباب الأموال والأعمال، فلا يدري ما يصنع بماله، وذلك من أصحاب
العيلة^(٢) والعيال فلا يعرف لعلته من أين ينفق على عياله.

اغتنى ابن الفقير، وافتقر ابن الغني، وتأخر في الحياة من كان في المدرسة
سابقاً، وسبق من كان فيها متأخراً، ومشى قوم على الطريق السوي، فكان غاية
مسعاهم وظيفة فيها الستر، أو مورد فيه الكفاف، وقفز قوم من فوق الأسوار
فكانوا يوماً في الأوج، ويوماً في الحضيض... في القصر حيناً وحيناً في السجن.

كم ربت هذه المدرسة من أطفال، وكم خرجت من رجال. كانت
الدروس للجميع وكانت كلها هدى وخيراً، فاهتدى بها من اهتدى وضل من
ضل، كالطر يهطل على الأرض كلها فتشربه قطعة فتنبت به الزهر والثمر،
وتأباه أخرى، فتحيله برَكاً، لا تلبث أن يأسن ماؤها ويفسد الأرض والجو.

(١) كان موضعه تلا يشق عليه المجرمون فأخذه والي الشام سيف الدين يلبغا سنة ٨٤٧هـ
وأنشأ عليه هذا المسجد وقد أراد يوماً بعض حكام السوء أن يستغلوا موقعه من لب
المدينة فيبنوا مكانه بناء تجارياً يخصص منه طابق (!) للمسجد - فأنكرنا ذلك وأبطلناه
بعون الله.

(٢) العيلة - الفقر.

لقد لبثتُ نصف قرن، تربى وتعلم، وكانت قوية شابة، ثم نال منها
الوفى، وهدها الكلال، ثم آصت أطلالاً.

إنها كسفينة ترددت آلاف المرات، بين الشاطئين، تنقل الركاب من
شاطيء الطفولة، إلى شاطيء الشباب، تقطع بهم لجة المضيق العميق، فمنهم
من يصل، ومنهم من تطويه اللجة بمياهها، ثم يتفاوت الواصلون، فمنهم من
يبقى على الشاطيء يسير على الطريق المستقيم، أو يلتوي وينحرف، ومنهم من
يصعد الجبل، فيعلو قليلاً أو كثيراً، ومنهم نفر يبلغ الذروة؛ ثم يهبط الجميع،
سواء منهم من علا ومن انخفض، ويواريهن التراب...

... حتى إذا كَلَّت السفينة ورثت حبالها، وصدئت وتخرقت، وقفت، ثم
مالت، وغاصت في رمال الشطّ وبقيت مكانها، كأنها هيكل حوت كبير، فقد
الحياة من زمن بعيد...

* * *

إني لأذكر الآن كيف دخلت هذه المدرسة.

لقد كنت في مطلع سنة ١٩١٨ تلميذاً في الصف الخامس، في مدرسة
جمعية الاتحاد والترقي (اتحاد وترقي مكتبي إعدادي سي) التي كانت تعرف بين
الناس بـ (المدرسة التجارية) لأن التجار هم الذين أنشأوها بأموالهم وكانت أكبر
ثانوية في البلد، وكان والدي مديراً، وكان يدرس فيها فحول الرجال،
وحسبكم أن تعرفوا أن منهم العالم الجليل هاشم بك - مدير المعارف - الذي
كان له وحده من السلطان ما يقتسمه اليوم أربعة وزراء للمعارف في أربع
دول، هي سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

وكان يحكم الشام الأتراك، لا أعني محمداً الفاتح وسليمان وأولئك
السلف الصالح الذين حملوا راية الهدى إلى أسوار فيينا، بل الخلف الفاجر:
الاتحاديون الملحدون، وكان الأمر لجمال السفاك، فكنا نحن الصغار نرتجف هلعاً
إذا ذكر فينا اسمه.

... فأصبحنا يوماً، فإذا الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، لقد دالت دولة الترك، واختفت رايتهم الحمراء، ذات الهلال، وجاءت دولة جديدة، لها راية مربعة الألوان، وبطل هتافنا كل يوم (باديشاهم جوق يشا) ومعناها (أطال الله عمر السلطان) وجد هتاف جديد (ليحي الاستقلال العربي) وغدونا على المدرسة وكانت في دار العابد في سوق صاروجا^(١) فإذا المدرسة قد أغلقت.

وافتح مدرسة ثانوية جديدة (وكانت المدرسة الثانوية تسمى يومئذ السلطانية) باسم السلطانية الثانية، وكان مقرها في هذه الغرف التي تمثل أطلالها اليوم شواخص في صحن الجامع.

ودخلت إليها، فوضعت في الصف الرابع، بعد أن كنت في الخامس. إنني لا أذكر من رفاقي فيها إلا ثلاثة كانوا في صفي، هم عبد الحكيم مراد (المحامي) وصالح الدين شيخ الأرض (المهندس) وحسن السقا - (الكيميائي).

أما المعلمون فأنا أذكر منهم حسني كنعان والتكريتي وجميل مراد، وكانوا يومئذ في مطلع الشباب، والشيخ محمداً النابلسي رحمه الله، وكان مدير القسم الابتدائي شريف آبيق، ومدير الثانوي سعيد مراد رحمه الله.

والأستاذ سعيد مراد شيخ المعلمين، مامات حتى رأى تلاميذ تلاميذ تلاميذ تلاميذه، حقيقة لا مبالغة، وخليفته اليوم عبد الرحمن السفرجلاني، ابن معلم الشام شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني، الذي حوت سجلات مدرسته الابن وأباه وجده، كلهم مر عليه وكان من تلاميذه، ومن تلاميذ (أستاذنا عبد الرحمن بك) شيوخ يشار إليهم اليوم بالبنان منهم الرئيس شكري القوتلي رحمه الله، وفقيد القضاء وعميده مصطفى برمدا، وشيخ الإداريين في ديار

(١) صاروجاً من أمراء المالك مات سنة ١٧٤٣هـ.

الشام جميل الدهان - وقد ذكرته استطراداً، وحديثه وحديث أبيه أطول من أن يكتفى فيه بالإشارة العارضة...

أعود إلى الكلام على الأستاذ سعيد مراد.

لقد كان في القوافين عند باب الأموي، حذاء (كندرجي) من فضلاء الناس، وكان في التجار وأرباب الصناعات كثير من أهل العلم والفضل في تلك الأيام، وكان والذي يبعث بي إليه كلما احتجت إلى حذاء.

وكان أبي يجلس عنده فيمن يجلس عنده من العلماء، فذهبت إليه يوماً فوجدت في دكانه الأستاذ مراد، فصرت من بعدها أتيهه كلما لقيته، وأجله عن أن أمد إليه رجلي، ليأخذ قياسها، لمجرد أني علمت أنه صديق المدير الأول.

ومرت أيام طوال وكنت يوماً على قوس المحكمة وأمامي من المحامين والمتقاضين عشرات وعشرات، فلمحت من نافذة القاعة، وكانت المحكمة في دار البارودي في القنوات، الأستاذ (سعيد مراد) واقفاً في صحن الدار، مع من ينتظر من الناس، وقد أحنّت الأيام ظهره، وأرعشت يده، فتركت القوس ونزلت، والحاضرون يعجبون، حتى وصلت إليه، فقبلت يديه وسألته عما يأمر به، وأخذته من يده، فقلت لمن كان في المحكمة «هذا أستاذي وأستاذ الشام، وأنا أستاذنكم في أن أؤخر دعاواكم لأقضي حاجته، فكانوا في عجلة من أمرهم، فلما رأوا ذلك قالوا جميعاً: نعم، ونحن راضون».

فأقعده على كرسي، وانطلقت أحمل أوراقه بنفسي، فرأيت دموعه تتساقط من خلال لحيته البيضاء...

* * *

وكنت يوم وفاة أستاذنا سعيد البحرة قاضي دمشق، وكنت في صدر مجلس التعزية، فجاء الأستاذ شريف آبيق، فلم يجد مكاناً، فنزلت حتى أخذت بيده، وأقعده مكاني، وقلت لهم، هذا أستاذي.

أما الأستاذ الذي طالت له صحبتي، واتصلت به مودتي، فهو حسني

كنعان، وإن من الإنصاف أن أقر هنا، وهو حي يرزق، أنه أول من علمني ما هو الإنشاء العربي، وكانوا يعلموننا الإنشاء بالتركية، ولو امتد بالاتحاديين العهد، لما كنت أستطيع أن أخط سطرًا من كتاباتي التي بلغ المطبوع منها إلى اليوم^(١) أكثر من عشرة آلاف صفحة.

وكان حسني كنعان صدرًا في الموسيقى، بل لقد كان إليه الفضل في الأناشيد المدرسية، فقد كان يؤلفها ويلحنها، وكان ينشدها بصوته العذب، وأنا أشهد أن أصفى حنجرة عرفتها، هي حنجرة حسني كنعان في شبابه، ولقد أنشد مرة النشيد المشهور (ويلي على أوطاني من غارة العدوان) أمام الملك فيصل بن الحسين، فأبكى الملك وكل من حضر، وجعل على أثرها مدرسًا في السلطانية الأولى (مكتب غير) فكان من تلاميذه جميل صليبا.

وله مع ذلك مئات من المقالات، وما زال يوالي نشرها من أكثر من ثلاثين سنة إلى الآن.

وهو نابلسي، ونابلس بلد الأنجاد الأحرار، وفيها جبل النار، والنابلسيون قومه وهم أصله، ولكن يظهر أنهم قد استنفذوا الشجاعة كلها، فلم يورثوه شيئًا منها، فكان جريء القلم ولكنه منخلع القلب.

ومن أخباره في هذه المدرسة، أنه كان يأخذ الأشعار القديمة فيبدل من كلماتها، ويلقيها علينا فكان منها قصيدة الحلبي:

سلي الرماح العوالي عن معالينا
واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي (العرب والألبان) ما فعلت
بعسكر (الترك والألمان) أيدينا

(١) إلى يوم كتابة هذا الفصل سنة ١٩٦٢.

وزار المدرسة يوماً الحاكم العسكري رضا باشا الركابي، وكان مهيباً مخيفاً ورث سطوة جمال باشا وإن لم يكن له ظلمه، ودخل الصف بلباسه العسكري، تزين صدره الأوسمة ويتدلى على جانبه السيف، ومن ورائه وزير المعارف والمديران وبعض الأعوان وكان رفيقنا حسن السقا يقرأ هذه القصيدة، فمد بها صوته، وصال بها وجال ومال واختال، فلما انتهى، قال له الباشا:

— من علمك هذا؟

— فقال الأستاذ، (وأشار إلى حسني كنعان مدّ الله في عمره).

فمد الباشا يده ليصافحه، فنظرنا فإذا الأستاذ يصفر لونه ويمد يده لولا أن استند على مقعد الطلاب، كل ذلك من رعبه من اليد الممتدة إليه، حتى إذا علم أنها مدت للمصافحة، عادت إليه روحه،

فلما خرج الباشا، قال الأستاذ:

— أرايتم؟ هكذا ينبغي أن تكون الشجاعة، ويكون الثبات.

وضحك التلاميذ ضحكاً مكتوماً، لا من كلامه، بل من البلب الذي لحظوه في سراويله. . .

وقد روى هذه القصة بنفسه، وكتبها بقلمه، ولو كنت أعلم أنه يسوؤه ذكرها لما ذكرتها.

والأستاذ حسني كنعان بعد ذلك، من أبرّ الأخوان، وأوفى الأصدقاء.

* * *

تركت الناس يزدهون على سيارة القضاة، وهي تجري في هذا الشارع الجديد، الذي يمشي من المرجة من أمام الفندق الكبير، إلى مدخل شارع بغداد، ورحت أعيش وحدي في دنيا تلك الأيام، حين لم يكن هذا الشارع، ولا الفندق الكبير، ولا شارع بغداد.

حين كان إلى جنب الجامع، بناء قديم يطل على المرجة هو (العدلية)

وإلى جانبه بناء أقدم منه هو (البريد) وكان في موضع الفندق بيوت صغار متصلة، كبيوت البحصنة.

كانت (المرجة) آخر البلد، كما كان آخرها من هناك القصاع، وكانت دمشق كلها، بيوتاً عربية متلاصقة، لم يكن فيها إلا عمارة واحدة، هي عمارة العابد، ولم يكن فيها إلا شارع واحد، هو شارع جمال باشا الذي افتتح سنة ١٩١٦، وأنا أتذكر فتحه وكان طريق الصالحية يمشي بين البساتين، ما فيه إلا مجموعات قليلة من البيوت، عند بوابة الصالحية، وعند الشهداء وعرنوس. أما شارع بغداد والروضة والحبوبي والمزرعة، والميدان الجديدة، فلم يكن لشيء من ذلك وجود، وكانت بوابة الصالحية جادة ضيقة، على يمينها (حيث يبدأ اليوم شارع بغداد) ذلك وراءه بستان يقال له (بستان الكركه) وعن شمالها (الحسنة خانة) المستشفى العسكري، وكان في موضع التجهيز الأولى، تلال تلقى عليها الأوساخ.

لم يكن في دمشق سنة ١٩١٨ شوارع ولا عمارات، ولا كان فيها هذا العدد من المدارس والمستشفيات وما كان فيها إلا خمس سيارات (فورد) صغيرات، وما كان فيها هذا الجمهور من المهندسين والمحامين والأطباء، ولم تكن تضاء بيوتها بالكهرباء، ولم يسمع أحد في دمشق بالراد بل لم يكن قد وجد يومئذ ولا بالهاتف الآلي، ولا بمواقد الغاز، ولا بالغسالات والبرادات، ولم يركب أحد من أهل دمشق الطيارات.

ما كان في دمشق شيء من مظاهر هذه الحضارة النافعة، وما كان فيها كذلك شيء من أوضاعها ولا أضرارها، لا ملاهي ولا فسوق ولا إحصاء ولا تكشف، وكان الناس ينامون من بعد العشاء، ويفيقون من قبل الشمس.

وكانت المساجد ممتلئة، والدروس فيها حافلة، وكان العلماء عاملين بعلمهم، يريدون به وجه الله لا يطلبون به الدنيا، وكان الناس يرجعون إليهم في شؤون دينهم ودنياهم.

هذه دمشق سنة ١٩١٨ ذكرتني بها هذه الأنقاض، فهل كانت خيراً
أم ما نحن فيه هو الخير؟ هل خسرنا في هذه السنين الأربعين أم ربحتنا؟
أما أنت يا مدرستي فعليك وعلى أساتذتي فيك وعلى رفاقي، سلام الله
ورحمته وبركاته.

* * *

لما دفع إلي الموزع الكتاب، ورأيت على ظرفه اسم جريدة (البلاد) قرأته من عنوانه، وعرفت قبل أن أفتحه، إن فيه تكليفاً بمقال، ولكن ما عرفت ولا قدّرت أن يكون المقال في الفلسفة.

وظننت أن الأستاذ رئيس التحرير غلط فظن اسمي (هنري برجسون) أو (وليم جيمس)، أو أن أحد أولاد الخ... لال قد (اغتابني) عنده، فقال له، إني فيلسوف عظيم، وهممت أن أعتذر.

ثم داخلني الغرور، وقلت ما دام رئيس التحرير، قد رآني أهلاً للكتابة في الفلسفة فأنا من الفلاسفة الكبار ولكني من التواضع أجهل مقدار نفسي، وذكرت أن في بطاقتي القديمة، بطاقة مطبوعة سنة ١٣٤٨ هـ مكتوباً عليها تحت الاسم الكريم (أي اسمي) بكالوريوس فلسفة، وكنت قد اقتديت في ذلك بصديقي الدكتور زكي المحاسني الشاعر الكاتب، وكان زكي قد نال الشهادة في الفلسفة قبل بسنة واحدة، وهو في مثل سني، ولكنه يدعي أن عمره ست وخمسون فقط!

وكنا قد تعلمنا أن الفلسفة كانت قديماً (تخضن) العلوم كلها، لما كانت العلوم كالأطفال في سن الحضانة، فكلما كبر علم و (بلغ) سن الرشد استقل عنها. وكانت مناهج الفلسفة التي درسناها، فيها علم النفس والأخلاق والاجتماع والمغيبات (ما وراء الطبيعة أي الميتافيزيك) وعلم الجمال وعلم المنطق بقسميه، الصوري اليوناني والفكري.

أي أن الفلسفة كانت على أيامنا مثل بريطانيا (التي كانت) العظمى، فكبرت تلك العلوم فاستقلت، وصغرت هي وقلت، حتى لم يبق فيها إلا مباحث (ولا أقول علم) ما وراء المادة (الميتافيزيك) كما أنه لم يبق لبريطانيا التي كانت تحكم ربع سكان الأرض، من ربع قرن، إلا لندن وضواحيها، لأن إيرلندا لا يريدونها أكثرها، واسكتلندا لها تاريخها المغاير لها، وويلز (حتى ويلز) تنطق كما سمعنا بغير لغتها.

إذن . . . إذن أنا فيلسوف حقاً ما دام رئيس التحرير وهو حجة في معرفة الرجال قد رأي أهلاً للكتابة في الفلسفة وما دمت أحمل شهادة في الفلسفة مر عليها أربعون سنة، ولم يبق عليّ لأستكمل شروط الفلسفة كلها إلا أن أطيل شعر رأسي وأركب على حمار أبيض، كما فعل الأستاذ الزهاوي، لما عمل فيلسوفاً بعد أن كان شيخاً له جبة وعمامة.

وهذا سهل فتطويل الشعر يوفر أجرة الخلاق، وركوب الحمار يغني عن السيارة ومشاكل السائقين . . . ولكن كيف (أتفلسف) في الكلام على العيد؟

قرأت مرة لأستاذ جامعي كبير فضلاً في (فلسفة) عبيد بن الأبرص، وليست فلسفته مذهباً يفسر مشاكل الفكر، أو يكشف خفايا النفس، أو يزاحم فلسفة أرسطو وأفلاطون، بل إن فلسفته في قوله:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

هذا الكشف العظيم، هو الذي أدهش الأستاذ الجامعي الكبير حتى جعل منه فلسفة، عرف فيها هذا الأمر المخبأ، وكشف هذا السر المتواري، لأن الناس كانوا يظنون أن الميت يؤوب، وأنه يموت اليوم ليعود غداً، وأنهم يضعونه في القبر، فيجدونه خارجاً من بئر المقبرة، قاعداً في دلو الماء، فجاء الشاعر الفيلسوف ابن الأبرص يؤكد لهم أنه لا يؤوب.

فهل تريدون فلسفة من هذا النوع؟

هل أقول أن الأيام تمر متشابهة متشاكلة كما يمر الجندي في العرض، لباسهم واحد وزيمهم واحد، ثم يأتي القائد، بشيابه المتفردة، وأوسمته اللامعة، وأن العيد في الأيام كالقائد في الجند..

ولكن هذا تشبيه (سخيف) وليس فلسفة العيد..

أم أقول إن أعياد الناس، منها أعياد وطنية، تذكر بحادث رائع، أو نصر بارع، وأعياد موسمية، كيوم النيروز، وأعياد الربيع، أو أعياد لهُو ولعب ومتعة، كأعياد البراقع (الكرنفال)، وأعياد الفسوق الذي يسمى فناً، وأعياد فيها مزيج من هذا وذاك، تبدأ في العيد وتنتهي في المرقص، وأن لنا معشر المسلمين عيدين اثنين، عيد الفطر وعيد الأضحى، وأنها عيدان دينيان، فالفطر شكر الله على التوفيق للصيام، والأضحى شكر الله على التوفيق للحج، ولكن دين الإسلام يجمع الدنيا والآخرة، ويطلب أداء حق الله، وحق النفس، وحق الأهل، وحق الناس، لذلك كان في العيد، لبس الحديد، وبهجة الوجه، وحلاوة القول، وبسطة اليد، وسعة في الإنفاق وأن يشمل بالخير القريب والجار.

فيكون عيدنا ثواباً من الله، وألفة بين الناس، وتعميماً للخير.

ولكن هذا الكلام ليس فلسفة العيد.

فما (فلسفة العيد) التي يطلب رئيس التحرير أن أكتب فيها؟

هل أقول: إن العيد في حقيقته عيد القلب، فإن لم تملأ القلوب المسرة، ولم يترعها الرضا، ولم تعمها الفرحة، كان العيد مجرد رقم على (التقويم).

إذا كان هذا هو العيد؟ فأين يا إخوتي هو العيد؟

أين بهجة القلب، وأين مسرة النفس، وأين بهاء الأيام، وهؤلاء هم العرب، بل هؤلاء هم المسلمون كلهم، في خلاف ونزاع، وتهاثر وتحاصم. قد

اشتغلوا بهدم أنفسهم عن هدم عدوهم، وألقي بأسهم بينهم، وترك أكثرهم دينهم، وتخلوا عن كريم خلاهم.

أين العيد، وهذي حال المسلمين، وكيف يتسم القلب، وهو يبكي دماً لما يرى ويسمع، وكيف نقول لمن نلقاه: كل عام وأنتم بخير، وما نحن بخير هذا العام، ولا كنا بخير العام الذي قبله.. ولو أنه لا يجوز اليأس لقلت إننا، لا ننتظر أن نكون بخير العام الذي بعده.. فلا تقولوا (كل عام وأنتم بخير)، ولكن قولوا لمن تلقونه في هذا العيد، ما كل عام وأنتم بشر..

فهل تكون هذه هي (فلسفة العيد)؟

[إلى السيدة الفاضلة، التي كتبت إلي،
وكتبت اسمها عني. ونعما فعلت، فما لي
باسمها حاجة، بعدما فهمت ما في كتابها].

وأنا أحب أن تصدقي يا ابنتي (أو يا أختي) أني لما قرأت كتابك بكيت
معك. وشاركتك حزنك، وأنني قرأته على أصحابي فبكوا منه مثل بكائي.

إنها فاجعة، ولكنك لست أول من فرق الموت بينه وبين من يحب، ولست
أول أم فقدت بنتها، ومن عرف أن له في مصيبتة شركاء، ولهذا المصيبة أمثال،
خف عنه بعض ما يلقي.

إن كتابك على عامية ألفاظه، وعلى أنه ليس فيه كلمة صحيحة، لا في
رسمها ولا في إعرابها، أنه على هذا كله - قطعة فنية، قليل أمثالها.

إنك استطعت أن تستتزي به الدمع، من عيون طائفة من أعلام الأدب،
وكم من الشعراء الذين يرثون، فلا يستقظرون قطرة من دمع قارئ أو سامع،
لأنهم ما بكوا لما نظموا.

ذلك ليعلم طلاب الأدب، أن الذي يخرج من القلب هو الذي يقع في
القلب، وأن من يمتلكه المعنى الذي يكتب فيه، هو الذي يملك به الذين
يقرأونه، أما الذي ينحت الألفاظ من أعماق القاموس بالمعول، ليكومها على
الورق بالمجرفة، فهو (عامل) في إصلاح الطرق وليس صائغاً لجواهر الكلام.

ولست أدعو إلى العامية، ولا إلى نبذ البلاغة، وإهمال القواعد، معاذ الله،
ولكن أدعو إلى امتلاء النفس بالفكرة قبل تحريك القلم على القرطاس.

* * *

والعفو، يا ابنتي، إذا انصرفت عن جوابك، وتكلمت في الإنشاء، فإنما جاء ذلك استطراداً والصناعة تميل بطبع الإنسان، والاستطراد من شأن الأديب العربي.

فهمت من كتابك أنك من مكة، لأنك تقولين أنك لم تعودى تستطيعين دخول الحرم، بعد ذهاب الفقيدة؟.

... فما هذا الكلام يا ابنتي؟

إن فقدت ابنتك، فهل فقدت (والعياذ بالله) إيمانك؟

في مثل هذه المواقف: مواقف الحزن واللوعة، يعرف المؤمن قيمة هذه النعمة التي هي الإيمان.

الملحد الذي لا يرى إلا هذه الحياة الدنيا يحزن إن مات له عزيز، أو ينتحر، إنه يتصور أنه كان له فقده، وكان معه فقارقه إلى الأبد.

أما المؤمن فيعلم أن الله هو الذي أعطى، وهو الذي أخذ، وأن بعد هذا الفراق لقاء، حيث يلتقي الصالحون في الجنة، فهو يجتهد ليكون من أهل الصلاح، ويسأل الله أن يرحم ميته ويجعله من أهل الصلاح ليكون هذا اللقاء، لقاء دائماً سعيداً لا فراق بعده.

هذا هو الفرق بين المؤمن والكافر — فأين إيمانك؟

* * *

اسمعي يا ابنتي:

لو أن الفقيدة — رحمها الله — ذهبت تزور خالتها أو جدتها، وبقيت عندها شهراً، هل كنت تخافين، أم تطمئنين عليها، لأنها في رعاية أختك أو أمك؟
هل كنت تبكين، وتعولين لذهابها، أم ترضين وتسرين لثقتك بمن هي ذاهبة لزيارتها؟

فلماذا لا تطمئنين عليها، وأنت مؤمنة تعتقدين أنها ذهبت إلى رحمة من هو أرحم منك بها، وهو الله الذي خلقك وخلقها؟

أنا أعلم أن هذا الكلام الذي أقوله حق كله، ولكن من كان مصاباً مثلك لا يفهمه، ولا يدخل في عقله، ويجده ثقيلاً على قلبه، فدعيه واشتغلي بشيء يملأ وقتك، بعمل من الأعمال، بدلي منزلك وانتقلي إن استطعت إلى منزل آخر. لأن بقاءك في المنزل الذي كانت فيه الفقيدة يهيج عليك أحزانك. إن كل ركن منه، وكل شيء فيه يذكرك بها، فإن بدلته أو تركته وسافرت، فابتعدت عنه حيناً، خف عليك لذع الذكريات.

تحدثني عنها، قولي لمن معك كل ما يخطر منها على بالك، حملي من حولك بعض أحزانك، لا تنطوي على نفسك، وهي على ظهورك فتفتردي وحدك بحملها.

لذلك كان من المستحسن عند التعزية، الكلام عن الميت لينفس أهله عن أنفسهم بهذا الكلام، والخوض في غيره من الموضوعات لينسوا بها لحظة ما هم فيه من الأحزان.

أما ما يصنعه النساء عندنا (في الشام) في المآتم مما لم يرد به شرع، ولم يسوغه عقل، إذ يصطف قريبات الميت حتى يملأن المكان، ولا يبقين إلا كرسيّاً أو كرسيين، للمعزيات. تدخل المعزية، بلا سلام، وتقعّد لحظة بلا كلام، ثم تنسل خارجة بلا وداع فشيء من أقبح العادات.

* * *

إنّ الكلام ينفس عن المصاب فتكلمي، والشغل يلهي عن الحزن فاعلمي، والسفر والانتقال، يمنع سيل الذكريات الأليمة فانتقلي أوفسافري، وإن عرض لك البكاء فابكي، لا تحجلي.

أما سمعت بحديث الرسول ﷺ لما أرسلت إليه إحدى بناته أن ولدها يمجد بنفسه، وتسأله الحضور، فأرسل إليها أن اصبري واحتسبي فأعادت الطلب حتى ذهب، فلما رأى الولد وهو يضطرب اضطراب الموت، لم يستطع أن يمسك عينه فبكى ﷺ.

ابكي فالبكاء سلوة المحزون . ولكن لا تقولي ما لا يرضاه الله من القول .

* * *

تقولين إن ابتك التي كنت تخافين عليها النسيم ، أن ينال منها مس
النسيم . وتذنين عنها الذباب ، كيلا يؤذيها حط الذباب .

... قد وضعت في التراب ، وداخلها دود الأرض وأنت تركتها وحيدة ،
وقد كنت لا تتخلين لحظة عنها؟

فما هذا الكلام يا أيتها المرأة؟ البنت وضعت في التراب؟

لا . . إن الجسد هو وحده الذي وضع في التراب ، ورتع فيه الدود .

وما الجسد؟ الجسد قميص . فهل كنت تبكين وتقولين إن نزع قميصها
البنت ، فاحرق بالنار القميص؟

صحيح أن الجسد جزء منا ، ولكن في هذه الدنيا فقط . ألم تكن المشيمة
جزءاً من الجنين ، ثم إذا ولد ألقيت في صندوق القمامة !
أفتبكي الأم لأن ولدها نزع عنه مشيمته وألقاها؟

ولو كان في بطن الحامل توأمان اثنان ، يعيشان فيه معاً وأمكن أن يفكرا ،
لاعتقدا أن البطن هو الدنيا .

ولو جاءت ساعة الولادة . . . وسبق واحد منها ، ورآه الثاني ، يفارقه
ويغوص في الأعماق ، لظن أنه مات ودفن في باطن الأحشاء ولبكى عليه ورثاه .

ولو ترك مشيمته وراءه لحزن الباقي لمراها ، كما نحزن نحن إذ نرى جسد
الميت .

هذا هو مثال الموت :

إن الذي اعتقده التوأم موتاً ، إنما هو ولادة وخروج إلى عالم أرحب
وأوسع ، عالم لا يقاس به البطن وضيقه وظلامه .

وما نراه نحن موتاً، إنما هو (ولادة) وخروج إلى عالم آخر، إذا قسناه بهذه الدنيا، رأينا نسبته إليها كنسبة الدنيا إلى بطن الحامل.

هل سافرت مرة من جدة إلى مكة؟ إنك تنظرين فلا ترين من الطريق إلا خطأً قصيراً، ولكن الطريق أطول مما ترين، وما خفي وراءك مما قطعت، وما بقي أمامك مما لم تقطعي، لأكثر مما ظهر.

وكذلك طريق الحياة.

إننا نرى منه خطأً قصيراً، هو هذه الحياة الدنيا، التي نعيش فيها، وما خفي عنا أكثر.

الحياة أربع مراحل.

مرحلة الحمل في بطن الأم، ومرحلة الدنيا، ومرحلة البرزخ، ومرحلة الآخرة.

ونسبة كل واحدة لما قبلها، كنسبة ما بعدها إليها.

لو أمكن أن تخاطب الجنين في بطن أمه، وتسأله: ما هي الدنيا؟ لأجابتك أن الدنيا هي هذه الأحشاء المظلمة الضيقة.

فلو قلت له: إنَّها هنا، دنيا أوسع، فيها الأفق الممتد، والبحر العريض، والسهل الفسيح، والجبل العالي.

وفيه جمال الربيع، وصفاء ينبوع، وفتنة الجمال وسحر العيون، ونشوة الحب.

لما استطاع أن يفهم لذلك كله معنى.

وكذلك نحن إذا سمعنا وصف الحياة الآخرة، وما أعد الله فيها، من ألوان النعيم، وأفانين العذاب.

* * *

لا تقولي، إني أتفلسف عليك، فإن الذي أقوله صحيح، وأنا لا أملك لك مع الأسف إلا الكلام.

أنا لا أستطيع أن أنتزع أشواك الحزن من قلبك، ولكن أنت تستطيعين.

تقولين: كيف؟

بالرجوع إلى الذي يقلب القلوب، وببذل الأحوال، إلى الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

توجهي إليه، فأسأليه لك الصبر، والأجر، ولها المغفرة والعفو، وأسأليه أن يجمعك بها في دار النعيم. يوم يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

انظري الأكلة التي كانت تحبها، فاصنعها وجودها وتصدقها بها عن روحها.

انظري الثوب الذي كانت تؤثره، فجودي به على من يستحقه وهبي ثوابه إليها.

هذا الذي ينفعها عند ربها، ويخفف عنك من حزنك عليها. هذا وأنا أسأل الله أن يرزقك الصبر ويحزل لك إن صبرت الأجر.

زارني الليلة البارحة صديق لي فاستقبلته واعتذرت إليه بأني مشغول،
عندي مقالة، قال: كل يوم مقالة، أو حديث؟ متى تنتهي هذه المقالات وهذه
الأحاديث؟..

قلت: حتى أنتهي أنا... .

قال: إنك تنشر باستمرار من أربعين سنة^(١) فمن أين تجيء بهذه
الموضوعات كلها؟

قلت: أسمع كلمة من تكلم أو أبصر مشهداً في طريق فأدير ذلك في
ذهني ولا أزال أولد من الكلمة كلمة، ومن المشهد مشهداً حتى يجيء من ذلك
حديث أو مقالة.

قال: أرني كيف تصنع حتى أتعلم!

فضحكت وقلت: إنها عملية تتم في ذهني لا في يدي، فكيف أريك
ما لا يرى؟.

(١) لي في سنة ١٣٤٧ مقالات في مجلة الزهراء التي كانت تصدر في القاهرة وكانت المجلة
الأدبية الأولى ولي مقدمة بكتاب الظرف والمتماجين لابن الجوزي وكتاب المطامع
النصرية وقد طبعاً سنة ١٣٤٧ — أي قبل هذه الطبعة بإحدى وخمسين سنة.

وكنا قد شربنا القهوة ولكني لم أكتف بها ووجدت أنها لا تزال بي رغبة إلى الشاي وأنا كالإنكليز (في هذه فقط) أشرب الشاي في الصباح وفي الأصيل وفي الليل لا أنتهي منه حتى أعود إليه. فقلت للبنت: قولي لأمك أن بابا يسألك: هل من آداب الضيافة أن نقدم الشاي بعد القهوة؟

فذهبت فقالت لها: بابا عاوز شاي.

قلت له: «أسمعت؟ هذا موضوع حديث».

قال متعجباً: هذا؟ قلت: نعم. لقد بعثتها لتتقل إليها عبارة معناها إني أريد شايًا. ولكني جعلتها نكتة لطيفة، ليس فيها أمر وليس فيها جفاء... فأضاعت البنت هذه المزاي كلها حين بلغت المعنى المجرد جافاً قاسياً كأنه أمر عسكري.

أفلا يوحى إليك هذا بشيء؟

فنظر وقال: لا!

قلت: أما أنا فقد ذكرني بقصة الأمير الذي رأى رؤيا مزعجة فدعا بمن يعبرها له، فقال له: تفسيرها أنها ستموت أسرتك كلها. فغضب الملك وأمر به فجلد عشر جلدات وطرد. ودعا بآخر، فقال له... أيها الأمير إن تعبير رؤياك واضح أنك أطول عمراً من أسرتك كلها.

فسر الأمير وأمر أن يعطى عشرة دنانير.

والمعنى واحد ولكن هذا قذف به في وجه الأمير عارياً صلداً كأنه يقذفه بحجر فخرج مضروباً وذلك لفه بثوب جميل من حسن التعبير وقدمه إليه بيمينه برفق وتعظيم فخرج بالجائزة.

إن هذا هو الموضوع؟

قال: إني لم أفهم شيئاً إلى الآن؟ فما هو الموضوع؟

قلت: فن الكلام.

إن الإنسان كما يقولون حيوان ناطق، وليس النطق أن يخرج الحروف ويصف الكلام، بل أن يعرف كيف يتكلم، ورب كلمة تدخل الجنة، وكلمة تدخل النار وكلمة أنجت من القتل وكلمة دفعت صاحبها إلى القتل، ورب صاحب حاجة عند وزير أو كبير، عرف كيف يطلبها فقضيت له، وآخر طلبها فلم يصل إليها. وكثيراً ما كان يقصدي أرباب الحاجات يسألونني أن أكلم لهم من أعرف من الوزراء والكبراء وأنا أكره أن أسأل في حاجة لي أو لغيري، فكنت أعذر إليهم ولكني أفيدهم فائدة أكبر من وساطتي، هي أن أفهم الكلام الذي يقولونه للوزير أو للكبير ولولا أن الوقت يضيق عن التمثيل لضربت لذلك أمثالاً.

وفي كتب الأدب العجائب في هذا الباب ولعلي أعود إلى الكلام فيها يوماً.

وهذا فن لا يتعلم تعليماً ولكن يوصل إليه بالقلب الذكي، وبأن تعرف خلق من تكلمه والطريق إلى نفسه. وكل نفس لها باب، وإليها طريق، لم يخلق الله نفساً مغلقة لا باب لها، فهذا يدخل إليه من باب التعظيم، وهذا من باب العاطفة وهذا من باب المنطق، وهذا من باب التهديد والتخويف، وهذا يزعجه التطويل ويحب الاختصار وهذا يؤثر الشرح والبيان ولا بد لك من قبل أن تكلم أحداً أن تعرف من أي باب من هذه الأبواب تدخل عليه.

ولا أذهب بك بعيداً معك في الدار، أليس لك أولاد؟

قال: بلى.

قلت: قد يجيئك ولدك وهو عابس مبرطم (الكلمة عربية) فيقول لك بلا سلام ولا كلام: أبغي نصف ريال.

فتقول له: أما أخذت البارحة نصف ريال؟ أكل يوم نصف ريال؟ وتطرده.

ويجيء الولد الآخر فيقبل يدك، ويسلم عليك، ويقول لك بابا أنا

أشكرك لأنك أعطيتني أمس نصف ريال ولكني أنفقته وأنا أريد غيرها ولكني مستحي منك. وسأقتصد ولن أنفقها كلها مثل المرة الماضية.

فتقول له: لماذا تستحي مني؟ هل يستحي أحد من أبيه؟ خذ هذا ريال.

إنك لا تفضل ولداً على ولد، ولا تبخل بنصف الريال ولكن الأول أساء الأدب فعاقبته بالحرمان والثاني أحسن الأدب فأجبت له الطلب.

والمرأة الحكيمة التي تعرف خلق زوجها وتعرف كيف تكلمه تصل إلى كل ما تريده منه، والمرأة الحمقاء تحرم نفسها من كل شيء.

الأولى تعرف الوقت المناسب لعرض طلبها فلا تحيء زوجها وهو غضبان أو متضايق، بل تنظر ساعة رضائه وانطلاق نفسه فتطلب منه. ولا يكفي الرضا منه بل يجب أن يكون مع رضا النفس امتلاء اليد فإذا كانت تعلم أن الزوج ليس لديه من المال ما يلبي به الطلب لم يفدها حسن العرض ولا جمال القول.

وليست العبرة بالفاظ الكلام فقط بل باللهجة التي يلقي بها هذا الكلام والتحية إن ألقى بلهجة جافة كانت شتيمة والشتيمة إن ألقى بلهجة حب كانت تحية، والولد الصغير يعرف هذا بالفطرة. إن قلت وأنت ضاحك (أخ يا خبيث) سر وابتمس، وإن قلت وأنت عابس مهدد: تعال يا آدمي يا — منظوم — خاف وهرب.

وإن قلت لصديقك في الدار: تفضل اقعد كانت مكرمة وإن قالها رئيس المحكمة للمحامي في وسط دفاعه كانت إهانة.

مع أن الكلمة واحدة وإن كتبت لم يكن بين حاليتها اختلاف وما نقلها من حال إلى حال إلا اللهجة.

ونخذ مثلاً أقرب كلمة صباح الخير.

إن صباح الخير قد يكون معناها إني لا أبالي بك ولا أحس غيابك ولا حضورك... وذلك إن قلتها ووجهك خال من كل تعبير وصوتك خال من الحرارة، كأنك تردد جملة محفوظة.

وقد يكون معناها إني أعطف عليك ولكني أراك دوني وأحس أني أرفع منك - إن قلتها وأنت باسم بسمه دبلوماسية وقد أحنيت رأسك ربع سанти انحناءة مصطنعة .

وقد يكون معناها إني صديقك المخلص لك - إن قلتها بابتسامة صادقة وبلمهجة طبيعية .

وإن برقت عيناك وأنت تقولها وارتحف صوتك حتى كأنه صوت (أحمد علام) في رواية مجنون ليلي^(١) كان معناها إني أعشقتك وأموت حباً فيك .

وقد يكون معناها، إني أحتقرك وأزدريك إن قلتها وأنت مصغر خدك زاو نظرك شامخ بأنفك .

وقد يكون معنى صباح الخير سب الأب فإذا عوتب القائل قال: «وهل شتمته، هل قلت له شيئاً؟ إنما قلت له صباح الخير» .

وقد يكون للكلمة أحياناً عكس معناها، الذي يدل عليه لفظها، يفهم ذلك من قرائن القول وظروف الكلام .

فإذا خرجت من الوزارة أنت وزميلك، فاصطحبتما في الطريق، حتى بلغت دارك، تقول له: تفضل معنا .

فيقول لك: في أمان الله .

لأن (تفضل معنا) هنا. معناها، فارقنا واذهب عنا، بدليل أنه لو أخذها على حقيقتها وتفضل معك، لضقت به واستقبلته وعجبت منه .

وقد يطيل الزائر السهرة، ثم يتهاى للقيام فتقول له: بدري (كمان شوي) ومعنى ذلك لقد أطلت فاذهب .

وإذا مللت من حديث محدثك، تقول: (لا يمل) وهو في الحقيقة قد مل .

(١) لشوقي، كما كان يمثلها ونحن شباب .

وتقول: (غير مقطوع حديثك) وقد قطعته وفصلت رأسه عن جسده،
أو بترت ذنبه عن جسمه.

وقد يفقد الكلام كل معنى، وبصير جملاً فارغة، كقولك لمن تلقاه.
كيف حالك؟

ولا يهيك حقيقة أن تعرف حاله ولا ماله.

ويقول لك: مشتاقون، وما هو بالمشتاق إليك ولا المفكر فيك.

ويقول: طمني عن الصحة؟.

كان صحته تشغل فكرك، وتطرد النوم عن عينيك ولا تطمئن حتى تثق
بكمالها وتماها.

كنت مرة خارجاً من المستشفى، بعد عملية جراحية، لا أزال أقاسي
آلامها، فلقيني صديق لي: فقال كيف الصحة؟

فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي وأصور ما أجد وتكلمت
خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة — على مائدة الإفطار — في رمضان. فلما
انتهيت سكت ونظرت إليه، أسمع منه، فقال:

كيف الصحة إن شاء الله بخير.

وإذا به لم يسمع من شرحي وبياني شيئاً.

ودليل آخر، هو أسلوب التحية هنا وفي مصر وفي الشام يقول لك، من
تلقاه. كيف أصبحت؟ كيف الأولاد؟ فتجيبه بما تيسر، فيعود فيقول: وكيف
أصبحت وكيف الأولاد؟

يعيدها — كما تعاد (أزيك) في مصر، و (أيش لونك) في الشام والعراق،
سبع عشرة مرة على الأقل — فلا تدري بماذا تجيب.

ومن الكلام الذي لا يدري المراد منه سؤال أخواننا الصحفيين كل من

يلقونه، في كل مناسبة، وفي غير مناسبة، عن (شعوره) عند رؤيته هذا المشاهد، و (انطباعه) — وما أدري ما معنى (انطباعه) — لذلك الحادث.

ولو حققت عن مراد السائل... من سؤاله. وجدت السائل لا يعرف حقيقة ما يريد، فضلاً عن أن يعرفه المسؤول.

ولهجة الكلام وملامح الوجه، تغلب المعنى قلباً. تصوروا رجلاً يدخل المأتم الحزين، وهو باسم الثغر، منطلق الوجه، ويقول بلهجة مرحة: (عظم الله أجركم، والله تألنا لمصابكم). أو يدخل الفرح وهو دامع العين، ويقول بلهجة باكية: لكم تهانينا، إننا فرحون لفرحكم...

إن من يسمعه، يقول إنه أحق، أو كاذب، ومثله مثل هؤلاء المغنين الذين يسمون أنفسهم قراء وما هم بالقراء، يتلون آية العذاب من كتاب الله التي تقشعر لها الجلود بصوت مرح ونغمة مرقصة، ويتلون آية البشري والنعيم بنغمة حزينة وصوت باك...

وإن من إمارات الحكم على شخصية إنسان لهجة كرمه، فمن كان يتكلم بصوت هادئ ولهجة متزنة، وحروف واضحة، كانت له شخصية المهذب النبيل، ومن كان مرتفع الصوت، حاد اللهجة يتشدد في كلامه أو يطمط الحروف لم تكن له هذه الشخصية وقد ترى امرأة جميلة الوجه وأخرى دونها جمالاً، ثم نسمع كلامهما، فتجد صوت الأولى خشناً ولهجتها قاسية، وهي مسترجلة في نطقها، وتجد للثانية صوتاً رقيقاً ولهجة ناعمة ونغمة حبيبة فيزيد في عينيك جمالها حتى لتجدها أجمل من صاحبها بل ربما شوه كلام الأولى صورتها في بصرك حتى رأيت جمالها قبحاً.

قال صاحبي: لقد اكتملت المقالة.

قلت: نعم، وكان موضوعها جديداً، هو (فن الكلام).

الموضوع	الصفحة
عام جديد	٥
السعادة	١٣
تسعة قروش	٢١
القبر التائه	٢٧
في الليل	٣٥
إلى أخي النازح في باريز	٤١
اعرف نفسك	٤٧
مجانين	٥١
بيني وبين نفسي	٦٠
شهيد العيد	٦٧
أعرابي في حمام	٧١
أعرابي في سينما	٧٨
الأعرابي والشعر	٨٥
هيكل عظمي	٩٣
في الترام	٩٩
مرثية غمراي	١٠٦
بين البهائم والوحوش	١١١
لا أؤمن بالإنسان	١١٧
حكمة القدر	١٢١
بين الطبيعة والله	١٢٧
وحي الصورة	١٣٨

الموضوع	الصفحة
يا ابنتي	١٤٩
يا ابني	١٥٦
رمضان	١٦٣
طبقات الأصدقاء	١٦٩
أنا والإذاعة	١٧٣
يوم مع الشيطان	١٧٩
نداء إلى أدباء مصر	١٩٧
نحن المذنبون	٢٠٢
في الحب	٢٠٩
ديوان الأصمعي	٢٢٢
زورق الأحلام	٢٣٣
حلم في نجد	٢٤٠
رقم مكسور	٢٥٥
وقفه على طلل	٢٦١
فلسفة العيد	٢٧٠
كتاب تعزية	٢٧٤
فن الكلام	٢٨٠

* * *